

المسيران

في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

الجزء السادس عشر

المسيران في تفسير القرآن

الميزان في تفسير القرآن

الجزء السادس عشر

تأليف : العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق و التصحيح الكامل
واضافات و تغييرات هامة من قبل المؤلف

ملاحظة: تم تطبيق الصفحات مع طبعة الأعلمي الثالثة المطبوعة في سنة ١٩٧٣ م

(٢٨) (سورة القصص مكية، وهي ثمان وثمانون آية) (٨٨)

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١ الى ١٤]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ● طسم ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ
مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ
طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى
الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ
نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ
فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
⑦ فَالتَّقَطُّهُ أَل فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ
⑧ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ⑨ وَأَصْبَحَ

فَوَادُّ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٧﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾

(بيان)

غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين وهم بمكة قبل الهجرة شذمة قليلون يستضعفهم فراعنة قريش و طغاتها و اليوم يوم شدة و عسرة و فتنة بأن الله سيمن عليهم و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين و يمكن لهم و يرى طغاة قومهم منهم ما كانوا يحذرون يقص تعالى للمؤمنين من قصة موسى و فرعون أنه خلق موسى في حين كان فرعون في أوج قدرته يستضعف بني إسرائيل يذبح أبناءهم و يستحي نساءهم فرباه في حجر عدو، حتى إذا استوى و بلغ أشده نجاه و أخرجهم من بينهم إلى مدين ثم رده إليهم رسولا منه بسلطان مبین حتى إذا أغرق فرعون و جنوده أجمعين و جعل بني إسرائيل هم الوارثين و أنزل التوراة على موسى هدى و بصائر للمؤمنين.

و على هذا المجرى يجري حال المؤمنين و فيه وعد لهم بالملك و العزة و السلطان و وعد للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) برده إلى معاد.

و انتقل من القصة إلى بيان أن من الواجب في حكمة الله أن ينزل كتابا من عنده للدعوة الحقّة ثم ذكر طعنهم في دعوة القرآن بقولهم: لو لا أوتي مثل ما أوتي موسى

و الجواب عنه، و تعلمهم عن الإيمان بقولهم: إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا و الجواب عنه و فيه التمثل بقصة قارون و خسفه.

و السورة مكية كما يشهد بذلك سياق آياتها، و ما أوردناه من الآيات فصل من قصة موسى و فرعون من يوم ولد موسى إلى بلوغه أشده.

قوله تعالى: **{طَسْمَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}** تقدم الكلام فيه في نظائره.

قوله تعالى: **{نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** {مِنْ} للتبويض و **{بِالْحَقِّ}** متعلق بقوله: **{نَتْلُوا}** أي نتلو تلاوة متلبسة بالحق فهو من عندنا و بوحى منا من غير أن يداخل في إلقاءه الشياطين، و يمكن أن يكون متعلقا بنبا أي حال كون النبا الذي نتلوه عليك متلبسا بالحق لا مرية فيه.

و قوله: **{لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** اللام فيه للتعليل و هو متعلق بقوله: **{نَتْلُوا}** أي نتلو عليك من نياهما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا.

و محصل المعنى: نتلو عليك بعض نيا موسى و فرعون تلاوة بالحق لأجل أن يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوك و هم طائفة أذلاء مستضعفون في أيدي فراعنة قريش و طعاة قومهم فيتحققوا أن الله الذي آمنوا به و برسوله و تحملوا كل أذى في سبيله هو الله الذي أنشأ موسى (عليه السلام) لإحياء الحق و إنجاء بني إسرائيل و إعزازهم بعد ذلتهم هاتيك الذلة يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم و قد علا فرعون و أنشب فيهم مخالب قهره و أحاط بهم بجوره.

أنشأه و الجو ذلك الجو المظلم الذي لا مطمع فيه فرباه في حجر عدوه ثم أخرجهم من مصر ثم أعاده إليهم بسطان فأنجى به بني إسرائيل و أفنى بيده فرعون و جنوده و جعلهم أحاديث و أحلاما.

فهو الله جل شأنه يقص على نبيه قصتهم و يرمز له و لهم بقوله: **{لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** أنه سيفعل بهؤلاء مثل ما فعل بأولئك و يمن على هؤلاء المستضعفين و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين حذو ما صنع بني إسرائيل.

قوله تعالى: **{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ}** إنح، العلو في الأرض كناية عن التجبر و الاستكبار، و الشيع جمع شيعة و هي

الفرقة، قال في المجمع: الشيع: الفرق و كل فرقة شيعة و سموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضا. انتهى. و كان المراد بجعل أهل الأرض و كأنهم أهل مصر و اللام للعهد فرقا إلقاء الاختلاف بينهم لئلا يتفق كلمتهم فيثوروا عليه و يقبلوا عليه الأمور على ما هو من دأب الملوك في بسط القدرة و تقوية السلطة، و استحياء النساء إبقاء حياتهن.

و محصل المعنى: أن فرعون علا في الأرض و تفوق فيها ببسط السلطة على الناس و إنفاذ القدرة فيهم و جعل أهلها شيعا و فرقا مختلفة لا تجتمع كلمتهم على شيء و بذلك ضعف عامة قوتهم على المقاومة دون قوته و الامتناع من نفوذ إرادته.

و هو يستضعف طائفة منهم و هم بنو إسرائيل و هم أولاد يعقوب (عليه السلام) و قد قطنوا بمصر منذ أحضر يوسف (عليه السلام) أباه و إخوته و أشخصهم هناك فسكنوها و تناسلوا بها حتى بلغوا الألوف.

و كان فرعون هذا و هو ملك مصر المعاصر لموسى (عليه السلام) يعاملهم معاملة الأسراء الأرقاء و يزيد في تضعيفهم حتى بلغ من استضعافه لهم أن أمر بتذبيح أبنائهم و استبقاء نسائهم و كان فيه إفناء رجالهم بقتل الأبناء الذكور و فيه فناء القوم.

و السبب في ذلك أنه كان من المفسدين في الأرض فإن الحلقة العامة التي أوجدت الإنسان لم يفرق في بسط الوجود بين شعب و شعب من الشعوب الإنسانية ثم جهز الكل بما يهديهم إلى حياة اجتماعية بالتمتع من أمتعة الحياة الأرضية و لكل ما يعادل قيمته في المجتمع و ما يساوي زنته في التعاون.

هذا هو الإصلاح الذي يهتف به الصنع و الإيجاد، و التعدي عن ذلك بتحرير قوم و تعبيد آخرين و تمتيع شعب بما لا يستحقونه و تحريم غيرهم ما يصلحون له هو الإفساد الذي يسوق الإنسانية إلى البید و الهلاك.

و في الآية تصوير الظرف الذي ولد فيه موسى (عليه السلام) و قد أحدقت الأسباب المبيدة لبني إسرائيل على إفنائه.

قوله تعالى: **{وَأُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ}** إلى قوله **{مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}** الأصل في معنى المن - على ما يستفاد من كلام الراغب الثقل و منه تسمية ما يوزن به منا، و المنة النعمة الثقيلة و من عليه منا أي أثقله بالنعمة. قال: و يقال

ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله: **{وَأُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا}** أي نعطيهم من النعمة ما يثقلهم و الثاني بالقول كقوله: **{يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ اسَلَمُوا}** و هو مستقبح إلا عند كفران النعمة. انتهى ملخصا.

و تمكينهم في الأرض إعطاؤهم فيها مكانا يملكونه و يستقرون فيه و عن الخليل أن المكان مفعول من الكون و لكثرتة في الكلام أجري مجرى فعال. فقيل: تمكن و تمسكن نحو تمززل انتهى.

و قوله: **{وَأُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ}** إلتح الأنسب أن يكون حالا من **{طَائِفَةً}** و التقدير يستضعف طائفة منهم و نحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا إلتح و قيل: معطوف على قوله: **{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ}** و الأول أظهر، و **{نُرِيدُ}** على أي حال لحكاية الحال الماضية.

و قوله: **{وَنَجْعَلُهُمْ أَبْنَاءَ}** عطف تفسير على قوله: **{نَمُنَّ}** و كذا ما بعده من الجمل المتعاقبة.

و المعنى: أن الظرف كان ظرف علو فرعون، و تفريقه بين الناس و استضعافه لبني إسرائيل استضعافا يبيدهم و يفنيهم و الحال أنا نريد أن ننعلم على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة نثقلهم و ذلك بأن نجعلهم أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين، و نجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم و نمكن لهم في الأرض بأن نجعل لهم مكانا يستقرون فيه و يملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلا ما أراد غيرهم أن يبوئهم فيه و يقرهم عليه، و نري فرعون و هو ملك مصر و هامان و هو وزيره و جنودهما منهم أي من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحذرون و هو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم و مالهم و سنتهم كما قالوا في موسى و أخيه لما أرسلوا إليهم: **{يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}** طه: ٦٣.

و الآية تصور ما في باطن هذا الظرف الهائل الذي قضى على بني إسرائيل أن لا يعيش منهم متنفس و لا يبقى منهم ناخ ناري و قد أحاطت بهم قدرة فرعون الطاغية و ملاء أقطار وجودهم رعبه و هو يستضعفهم حتى يقضي عليهم بالبيد هذا ظاهر الأمر و في باطنه الإرادة الإلهية تعلقت بأن تنجيهم منهم و تحول ثقل النعمة من آل فرعون

الأقوياء العالين إلى بني إسرائيل الأذلاء المستضعفين و تبدل من الأسباب ما كان على بني إسرائيل لهم و ما كان لآل فرعون عليهم و الله يحكم لا معقب لحكمه.

قوله تعالى: **{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ}** إلى آخر الآية، الإيحاء هو التكليم الخفي ويستعمل في القرآن في تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام و الإلقاء في القلب كما في قوله: **{بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا}**: الزلزال: ٥ و قوله: **{وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}**: النحل: ٦٨ و قوله في أم موسى: **{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ}** (الآية) أو بنحو آخر كما في الأنبياء و الرسل، و في غيره تعالى كما في قوله: **{إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ}**: الأنعام: ١٢١، و الإلقاء الطرح، و اليم البحر و النهر الكبير.

و قوله: **{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ}** في الكلام إيجاز بالحذف و التقدير و حبلت أم موسى به و الحال هذه الحال من الشدة و الحدة و وضعته و أوحينا إليها إنخ.

و المعنى: و قلنا بنوع من الإلهام لأم موسى لما وضعته: أرضعيه ما دمت لا تخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه أن يطلع عليه آل فرعون فيأخذوه و يقتلوه فألقيه في البحر و هو النيل على ما وردت به الرواية و لا تخافي عليه القتل و لا تحزني لفقده و مفارقتة إياك إنا رادوه إليك بعد ذلك و جاعلوه من المرسلين فيكون رسولا إلى آل فرعون و بني إسرائيل.

فقوله: **{إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ}** تعليل للنهي في قوله: **{وَلَا تَحْزَنِي}** كما يشهد به أيضا قوله بعد: **{فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ}** و الفرق بين الخوف و الحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون في مكروه محتمل الوقوع و الحزن في مكروه قطعي الوقوف.

قوله تعالى: **{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ}** الالتقاط أصابه الشيء و أخذه من غير طلب، و منه اللقطة و اللام في قوله: **{لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا}** للعاقبة على ما قيل و الحزن بفتححتين و الحزن بالضم فالسكون بمعنى واحد كالسقم و السقم، و المراد بالحزن سبب الحزن فإطلاق الحزن عليه مبالغة في سببته لحزنهم.

و الخاطئين اسم فاعل من خطئ يخطأ خطأ كعلم يعلم علما كما أن المخطئ اسم فاعل من أخطأ يخطئ إخطاء، والفرق بين الخاطئ و المخطئ على ما ذكره الراغب أن الخاطئ يطلق على من أراد فعلا لا يحسنه ففعله قال تعالى: **{إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا}**، وقال: **{وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ}**، و المخطئ يستعمل فيمن أراد فعلا يحسنه فوقع منه غيره و اسم مصدره الخطأ بفتحتين، قال تعالى: **{وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْأً}**: النساء: ٩٢ و المعنى الجامع هو العدول عن الجهة. انتهى ملخصا.

فقوله: **{إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}** أي فيما كانوا يفعلونه في أبناء بني إسرائيل و موسى تحذرا من انهدام ملكهم و ذهاب سلطانهم بيدهم إرادة لتغيير المقادير عن مجاريها فقتلوا الجم الغفير من الأبناء و لا شأن لهم في ذلك و تركوا موسى حيث التقطوه و ربوه في جورههم و كان هو الذي بيده انقراض دولتهم و زوال ملكهم.

و المعنى: فأصابه آل فرعون و أخذوه من اليم و كان غاية ذلك أن يكون لهم عدوا و سبب حزن إن فرعون و هامان و جنودهما كانوا خاطئين في قتل الأبناء و ترك موسى: أرادوا أن يقضوا على من سيقضي عليهم فعادوا يجتهدون في حفظه و يجدون في تربيته.

و بذلك يظهر أن تفسير بعضهم كونهم خاطئين بأنهم كانوا مذنبين فعاقبهم الله أن ربي عدوهم على أيديهم ليس بسديد.

قوله تعالى: **{وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ}** شفاعة من امرأة فرعون و قد كانت عنده حينما جاءوا إليه بموسى و هو طفل ملتقط من اليم تخاطب فرعون بقوله: **{قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَ لَكَ}** أي هو قرّة عين لنا **{لَا تَقْتُلُوهُ}** و إنما خاطب بالجمع لأن شركاء القتل كانوا كثيرين من سبب و مباشر و أمر و مأمور.

و إنما قالت ما قالت لأن الله سبحانه ألقى محبة منه في قلبها فعادت لا تملك نفسها دون أن تدفع عنه القتل و تضمه إليها، قال تعالى فيما يمن به على موسى (عليه السلام): **{وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي}**: طه: ٣٩.

وقوله: **{عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}** قالته لما رأت في وجهه من آثار الجلال و سيماء الجذبة الإلهية،
و في قولها: **{أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}** دلالة على أنهما كانا فاقدين للابن.

وقوله: **{وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}** جملة حالية أي قالت ما قالت و شفعت له و صرفت عنه القتل و القوم لا يشعرون ما ذا يفعلون و ما هي حقيقة الحال و ما عاقبته؟

قوله تعالى: **{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** الإبداء بالشيء إظهاره، و الربط على الشيء شدة و هو كناية عن التثبيت.

و المراد بفراغ فؤاد أم موسى فراغه و خلوة من الخوف و الحزن و كان لازم ذلك أن لا يتوارد عليه
خواطر مشوشة و أوهام متضاربة يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدي ما كان عليها أن تخفيه من أمر
ولدها.

و ذلك أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها و سبب فراغ قلبها الربط على قلبها و سبب
الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى إليها: **{لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ}** إلخ.

و قوله: **{إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا}** إلخ **{إِنْ}** مخففة من الثقيلة أي إنها قربت من أن تظهر الأمر و
تفشي السر لو لا أن ثبتنا قلبها بالربط عليه، و قوله: **{لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** أي الواثقين بالله في حفظه فتصبر
و لا تجزع عليه فلا يبدو أمره.

و المجموع أعني قوله: **{إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ}** إلى آخر الآية في مقام البيان لقوله: **{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ
فَارِغًا}** و محصل معنى الآية و صار قلب أم موسى بسبب و حينا خاليا من الخوف و الحزن المؤديين إلى إظهار
الأمر، لو لا أن ثبتنا قلبها بسبب الوحي لتكون واثقة بحفظ الله له لقربت من أن تظهر أمره لهم بالجزع عليه.

و بما تقدم يظهر ضعف بعض ما قيل في تفسير جمل الآية كقول بعضهم في **{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ
فَارِغًا}** أي صفرا من العقل لما دهمها من الخوف و الحيرة حين سمعت بوقوع الطفل في يد فرعون، و قول
آخرين: أي فارغا من الوحي الذي أوحى إليها

بالنسيان، و ما قيل: أي فارغا من كل شيء إلا ذكر موسى أي صار فارغا له. فإنها جميعا وجوه لا يحتمل شيئا منها السياق.

و نظير ذلك في الضعف قولهم: إن جواب لو لا محذوف و التقدير لو لا أن ربطنا على قلبها لأبدته و أظهرته، و الوجه في تقديرهم ذلك ما قيل: إن لو لا شبيهه بأدوات الشرط فلها الصدر و لا يتقدم جوابها عليها. و قد تقدمت المناقشة فيه في الكلام على قوله تعالى: **{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}**: يوسف: ٢٤.

قوله تعالى: **{وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}** قال في الجمع: القص اتباع الأثر و منه القصص في الحديث لأنه يتبع فيه الثاني الأول. و قال: و معنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنابة أي عن بعد. انتهى.

و المعنى: و قالت أم موسى لأخته اتبعي أثر موسى حتى ترين إلام يئول أمره فرأته عن بعد و قد أخذه خدم فرعون و هم لا يشعرون بأنها تقصه و تراقبه.

قوله تعالى: **{وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}** التحريم في الآية تكويني لا تشريعي و معناه جعله بحيث لا يقبل ثدي مرضع و يمتنع من ارتضاعها. و قوله: **{مِنْ قَبْلٍ}** أي من قبل حضورها هناك و مجيئها إليهم و المرضع جمع مرضعة كما قيل.

و قوله: **{فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}** تفریع على ما تقدمه غير أن السياق يدل على أن هناك حذفاً كأنه قيل: و حرمننا عليه المرضع غير أمه من قبل أن تجيء أخته فكلما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها فلما جاءت أخته و رأت الحال قالت عند ذلك لآل فرعون: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لنفعكم و هم له ناصحون؟

قوله تعالى: **{فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّا كَثُرْنَا لَا يَعْلَمُونَ}** تفریع على ما تقدمه مع تقدير ما يدل عليه السياق، و المحصل أنها قالت: هل أدلكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلتهم على أمه فسلموه إليها فرددناه إلى أمه بنظم هذه الأسباب.

وقوله: **{كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ}** إنخ، تعليل للرد والمراد بالعلم هو اليقين بالمشاهدة فإنها كانت تعلم من قبل أن وعد الله حق و كانت مؤمنة وإنما أريد بالرد أن توقن بالمشاهدة أن وعد الله حق.

و المراد بوعد الله مطلق الوعد الإلهي بدليل قوله: **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** أي لا يوقنون بذلك ويرتابون في مواعده تعالى و لا تطمئن إليها نفوسهم، و محصله أن توقع بمشاهدة حقيقة هذا الذي وعدها الله به أن مطلق وعده تعالى حق.

و ربما يقال: إن المراد بوعد الله خصوص الوعد المذكور في الآية السابقة: **{إِنَّا رَأَوُهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}** و لا يلائمه قوله بعد: **{وَلَكِنَّ}** إنخ على ما تقدم.

قوله تعالى: **{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}** بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشد عند ذلك قواه و يكون في الغالب في الثمان عشرة، و الاستواء الاعتدال و الاستقرار فالاستواء في الحياة استقرار الإنسان في أمر حياته و يختلف في الأفراد و هو على الأغلب بعد بلوغ الأشد، و قد تقدم الكلام في معنى الحكم و العلم و إيتائهما و معنى الإحسان في مواضع من الكتاب.

بحث رواني

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رض في قوله تعالى: **{وَوُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ}** قال: **يوسف و ولده.**
أقول: لعل المراد بنو إسرائيل، و إلا فظهور الآية في خلافه غير خفي.

و في معاني الأخبار بإسناده عن محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: **إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نظر إلى علي و الحسن و الحسين (عليه السلام) فبكى و قال: أنتم المستضعفون بعدي.** قال المفضل: فقلت له: ما معنى ذلك؟ قال: **معناه أنكم الأمة بعدي إن الله عز و جل يقول: {وَوُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}** فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة.

أقول: و الروايات من طرق الشيعة في كون الآية في أئمة أهل البيت (عليه السلام) كثيرة و بهذه الرواية يظهر أنها جميعا من قبيل الجري و الانطباق.

و في نهج البلاغة: لتعطفن الدنيا عليا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها و تلا عقيب ذلك **{وَوَئْرِيْدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}**.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ}** إلى آخر الآية: حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إنه لما حملت به أمه لم يظهر حملها إلا عند وضعها له و كان فرعون قد وكل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظهن و ذلك أنه كان لما بلغه عن بني إسرائيل أنهم يقولون: إنه يولد فينا رجل يقال له: موسى بن عمران يكون هلاك فرعون و أصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك: لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون و فرق بين الرجال و النساء و حبس الرجال في المحابس.

فلما وضعت أم موسى بموسى نظرت إليه و حزنت عليه و اغتمت و بكت و قالت: يذبح الساعة فعطف الله عز و جل قلب الموكلة بها عليه فقالت لأم موسى: ما لك قد اصفر لونك؟ فقالت أخاف أن يذبح ولدي فقالت: لا تخافي و كان موسى لا يراه أحد إلا أحبه و هو قول الله: **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي}**.

فأحبتة القبطية الموكلة بها و أنزل الله على أم موسى التابوت، و نوديت ضعيه في التابوت فألقيه في اليم و هو البحر **{وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}** فوضعتة في التابوت و أطبقته عليه و ألقته في النيل.

و كان لفرعون قصر على شط النيل متنزه فنظر من قصره و معه آسية امرأته إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج و الرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصر فرعون - فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت و رفع إليه فلما فتحه وجد فيه صبيا فقال: هذا إسرائيلي فألقى الله في قلب فرعون محبة شديدة و كذلك في قلب آسية.

و أراد فرعون أن يقتله فقالت آسية: **{لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ}** أنه

موسى.

و في الجمع في قوله تعالى: {قُرْتُ عَيْنِي لِي وَ لَكَ لَا تَقْتُلُوهُ} إنخ عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): و الذي يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون له قرّة عين كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها و لكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه.

و في المعاني بإسناده عن محمد بن نعمان الأحول عن أبي عبد الله (عليه السلام): في قول الله عز و جل: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} قال: أشده ثمان عشرة سنة {وَاسْتَوَى} التحي.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١٥ الى ٢١]

{و دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾

(بيان)

فصل ثان من قصة موسى (عليه السلام) فيه ذكر بعض ما وقع بعد بلوغه أشده فأدى إلى خروجه من مصر وقصده مدين.

قوله تعالى: **{وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا}** إنح، لا ريب أن المدينة التي دخلها على حين غفلة من أهلها هي مصر، وأنه كان يعيش عند فرعون، ويستفاد من ذلك أن القصر الملكي الذي كان يسكنه فرعون كان خارج المدينة وأنه خرج منه ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، ويؤيد ما ذكرنا ما سيأتي من قوله: **{وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى}** على ما سيحييء من الاستظهار.

و حين الغفلة من أهل المدينة هو حين يدخل الناس بيوتهم فتتعطل الأسواق وتخلو الشوارع والأزقة من المارة كالظهيرة وأواسط الليل.

و قوله: **{فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ}** أي يتنازعان و يتضاربان، و قوله: **{هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ}** حكاية حال تمثل به الواقعة، و معناه: أن أحدهما كان إسرائيليًا من متبعيه في دينه فإن بني إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ إلى آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليه السلام) في دينهم وإن كان لم يبق لهم منه إلا الاسم و كانوا يتظاهرون بعبادة فرعون و الآخر قبطيا عدوا له لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل، و من الشاهد أيضا على كون هذا الرجل قبطيا قوله في موضع آخر يخاطب ربه: **{وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}**: الشعراء: ١٤.

و قوله: **{فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ}** الاستغاثة: الاستنصار من الغوث بمعنى النصره أي طلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره على عدوه القبطي.

و قوله: **{فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}** ضميرا **{فَوَكَزَهُ}** و **{عَلَيْهِ}** للذي من عدوه و الوكز على ما ذكره الراغب و غيره الطعن و الدفع و الضرب بجمع الكف،

و القضاء هو الحكم و القضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته، و المعنى: فدفعه أو ضربه موسى بالوكر فمات، و كان قتل خطأ و لو لا ذلك لكان من حق الكلام أن يعبر بالقتل.

و قوله: **{قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}** الإشارة بهذا إلى ما وقع بينهما من الاقتتال حتى أدى إلى موت القبطي و قد نسبة نوع نسبة إلى عمل الشيطان إذ قال: **{هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}** و **{مِنْ}** ابتدائية تفيد معنى الجنس أو نشوئية، و المعنى: هذا الذي وقع من المعادة و الاقتتال من جنس العمل المنسوب إلى الشيطان أو ناش من عمل الشيطان فإنه هو الذي أوقع العداوة و البغضاء بينهما و أغرى على الاقتتال حتى أدى ذلك إلى مداخلة موسى و قتل القبطي بيده فأوقعه ذلك في خطر عظيم و قد كان يعلم أن الواقعة لا تبقى خفية مكتومة و أن القبط سيثورون عليه و أشرافهم و ملؤهم و على رأسهم فرعون سينتقمون منه و من كل من تسبب إلى ذلك أشد الانتقام.

فعند ذلك تنبه (عليه السلام) أنه أخطأ فيما فعله من الوكر الذي أورده مورد الهلكة و لا ينسب الوقوع في الخطأ إلى الله سبحانه لأنه لا يهدي إلا إلى الحق و الصواب فقضي أن ذلك منسوب إلى الشيطان. و فعله ذاك و إن لم يكن معصية منه لوقوعه خطأ و كون دفاعه عن الإسرائيلي دفعا لكافر ظالم، لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان في الإثم و المعصية كذلك يوقعه في أي مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة و المشقة كما أوقع آدم و زوجه فيما أوقع من أكل الشجرة المنهية فأدى ذلك إلى خروجهما من الجنة.

فقوله: **{هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}** انزجار منه عما وقع من الاقتتال المؤدي إلى قتل القبطي و وقوعه في عظيم الخطر و ندم منه على ذلك، و قوله: **{إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}** إشارة منه إلى أن فعله كان من الضلال المنسوب إلى الشيطان و إن لم يكن من المعصية التي فيها إثم و مؤاخذة بل خطأ محضا لا ينسب إلى الله بل إلى الشيطان الذي هو عدو مضل مبين، فكان ذلك منه نوعا من سوء التدبير و ضلال السعي يسوقه إلى عاقبة وخيمة و لذا لما اعترض عليه فرعون بقوله: **{وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ}**

مِنَ الْكَافِرِينَ} أجابه بقوله: {فَعَلْتَهَا إِذْأَ وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ}: الشعراء: ٢٠.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} اعتراف منه عند ربه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر وألقاها في التهلكة، ومنه يظهر أن المراد بالمغفرة المسئولة في قوله: {فَاغْفِرْ لِي} هو إغناء تبعة فعله وإنجاؤه من الغم وتخليصه من شر فرعون وملئه، كما يظهر من قوله تعالى: {وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}: طه: ٤٠.

وهذا الاعتراف بالظلم وسؤال المغفرة نظير ما وقع من آدم وزوجه المحكي في قوله تعالى: {قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الأعراف: ٢٣.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ} قيل: الباء في قوله: {بِمَا أَنْعَمْتَ} للسببية والمعنى رب بسبب ما أنعمت علي، لك علي أن لا أكون معيناً للمجرمين فيكون عهداً منه لله تعالى وقيل: الباء للقسم والجواب محذوف والمعنى: أقسم بما أنعمت علي لأتوبن أو لأمتنعن فلن أكون ظاهراً للمجرمين، وقيل: القسم استعطافي وهو القسم الواقع في الإنشاء كقولك بالله زرني، والمعنى أقسمك أن تعطف علي وتعصمني فلن أكون ظاهراً للمجرمين.

و الوجه الأول هو الأوجه لأن المراد بقوله: {بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ} على ما ذكره أما إنعامه تعالى عليه إذ حفظه وخلصه من قتل فرعون و رده إلى أمه، وأما إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطي و غفر له بناء على أنه علم مغفرته تعالى بإلهام أو رؤيا أو نحوهما وكيف كان فهو إقسام بغيره تعالى، والمعنى أقسم بحفظك إياي أو أقسم بمغفرتك لي، ولم يعهد في كلامه تعالى حكاية قسم من غيره بغيره بهذا النحو.

وقوله: {فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ} قيل: المراد بالمجرم من أوقع غيره في الجرم أو من أدت إعانتته إلى جرم كالإسرائيلي الذي خاصمه القبطي فأوقعت إعانتته موسى في جرم القتل فيكون في لفظ المجرمين مجاز في النسبة من حيث تسمية السبب الموقع في الجرم مجرماً.

وقيل: المراد بالمجرمين فرعون وقومه والمعنى: أقسم بإنعامك علي لأتوبن فلن

أكون معينا لفرعون و قومه بصحبتهم و ملازمتهم و تكثير سوادهم كما كنت أفعله إلى هذا اليوم.
و رد هذا الوجه الثاني بأنه لا يناسب المقام.

و الحق أن قوله: **{رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ}** عهد من موسى (عليه السلام) أن لا يعين مجرما على إجرامه شكرا لله تعالى على ما أنعم عليه، و المراد بالنعمة و قد أطلقت إطلاقا الولاية الإلهية على ما يشهد به قوله تعالى: **{فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الشَّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ}**: النساء: ٦٩.

و هؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال و الغضب لقوله تعالى: **{إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ}** الفاتحة: ٧ و ترتب الامتناع عن إعانة المجرمين على الإنعام بهذا المعنى ظاهر لا سترة عليه.

و من هنا يظهر أن المراد بالمجرمين أمثال فرعون و قومه دون أمثال الإسرائيلي الذي أعانه فلم يكن في إعانته جرم و لا كان وكز القبطي جرما حتى يتوب (عليه السلام) منه كيف؟ و هو (عليه السلام) من أهل الصراط المستقيم الذين لا يضلون بمعصيته، و قد نص تعالى على كونه من المخلصين الذين لا سبيل للشيطان إليهم بالإغواء حيث قال: **{إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا}**: مريم: ٥١.

و قد نص تعالى أيضا آنفا بأنه آتاه حكما و علما وأنه من المحسنين و من المتقين من أمره أن لا تستخفه عصبية قومية أو غضب في غير ما ينبغي أو إعانة و نصره لمجرم في إجرامه.

و قد كرر **{قَالَ}** ثلاثا حيث قيل: **{قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}** **{قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي}** **{قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ}** و ذلك لاختلاف السياق في الجمل الثلاث فالجمل الأولى قضاء منه و حكم، و الجملة الثانية استغفار و دعاء، و الجملة الثالثة عهد و التزام.

قوله تعالى: **{فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ}** تقييد **{فَأَصْبَحَ}** بقوله: **{فِي الْمَدِينَةِ}** دليل على أنه بقي في المدينة و لم يرجع إلى قصر فرعون، و الاستصراخ الاستغاثة برفع الصوت من الصراخ بمعنى الصياح، و الغواية إخطاء الصواب خلاف الرشد.

و المعنى: فأصبح موسى في المدينة و لم يرجع إلى بلاط فرعون و الحال أنه خائف من فرعون ينتظر الشر ففاجأه أن الإسرائيلي الذي استنصره على القبطي بالأمس يستغيث به رافعا صوته على قبطي آخر قال موسى للإسرائيلي توييخا و تأنيبا: إنك لغوي مبین لا تسلك سبيل الرشد و الصواب لأنه كان يخاصم و يقتل قوما ليس في مخاصمتهم و المقاومة عليهم إلا الشر كل الشر.

قوله تعالى: **{فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ}** إلى آخر الآية، ذكر جل المفسرين أن ضمير **{قَالَ}** للإسرائيلي الذي كان يستصرخه و ذلك أنه ظن أن موسى إنما يريد أن يبطش به لما سمعه يعاتبه قبل بقوله: **{إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ}** فهاله ما رأى من إرادته البطش فقال: **{يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ}** إنخ، فعلم القبطي عند ذلك أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس فرجع إلى فرعون فأخبره الخبر فأتمروا بموسى و عزموا على قتله.

و ما ذكره في محله لشهادة السياق بذلك فلا يعبا بما قيل: إن القائل هو القبطي دون الإسرائيلي، هذا و معنى باقي الآية ظاهر. و في قوله: **{أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا}** تعريض للتوراة الحاضرة حيث تذكر أن المتقاتلين هذين كانا جميعا إسرائيليين، و فيه أيضا تأكيد أن القائل: **{يَا مُوسَى أَتُرِيدُ}** إنخ، الإسرائيلي دون القبطي لأن سياقه سياق اللوم و الشكوى.

قوله تعالى: **{وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ}** إنخ، الائتمار المشاورة، و النصيحة خلاف الخيانة.

و الظاهر كون قوله: **{مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ}** قيدا لقوله: **{جَاءَ}** فسياق القصة يعطي أن الائتمار كان عند فرعون و بأمر منه، و أن هذا الرجل جاء من هناك و قد كان قصر فرعون في أقصى المدينة و خارجها فأخبر موسى بما قصدوه من قتله و أشار عليه بالخروج من المدينة.

و هذا الاستئناس من الكلام يؤيد ما تقدم أن قصر فرعون الذي كان يسكنه كان خارج المدينة، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: **{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** فيه تأكيد أنه ما كان يرى قتله القبطي خطأ جرماً لنفسه.

(بحث روائي)

في تفسير القمي قال: فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال و كان ينكر عليه ما يتكلم به موسى (عليه السلام) من التوحيد حتى هم به نخرج موسى من عنده و دخل المدينة فإذا رجلان يقتتلان أحدهما يقول بقول موسى و الآخر يقول بقول فرعون فاستغاثه الذي من شيعته فجاء موسى فوكر صاحب فرعون ففضى عليه و توارى في المدينة.

فلما كان الغد جاء آخر فتشبت بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له. **{أُتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ}**؟ نفلى عن صاحبه و هرب.

و في العيون بإسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى. قال: فأخبرني عن قول الله: **{فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}** قال الرضا (عليه السلام): إن موسى (عليه السلام) دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها و ذلك بين المغرب و العشاء فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته و هذا من عدوه ففضى على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكره فوات، قال: **{هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}** يعني الاقتتال الذي وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى (عليه السلام) من قتله **{إِنَّهُ}** يعني الشيطان **{عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}**.

قال المأمون: فما معنى قول موسى: **{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي}**؟ قال: يقول: وضعت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة فاغفر لي أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. قال موسى: رب بما أنعمت علي من القوة حتى قتلت رجلاً بوكرة فلن أكون ظهيراً للمجرمين بل أجاهدهم بهذه القوة حتى ترضى.

فأصبح موسى (عليه السلام) في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه على آخر قال له موسى إنك لغوي مبين قاتلت رجلا بالأمس وتقاتل هذا اليوم لأؤدبناك وأراد أن يببطش به فلما أراد أن يببطش بالذي هو عدو لهما وهو من شيعته {قَالَ: يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}. قال المأمون: جزاك الله عن أنبيائه خيرا يا أبا الحسن.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٢٢ الى ٢٨]

{وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

(بيان)

فصل ثالث من قصته (عليه السلام) يذكر فيه خروجه من مصر إلى مدين عقيب قتله القبطي خوفا من فرعون و تزوجه هناك بابنة شيخ كبير لم يسم في القرآن لكن تذكر روايات أئمة أهل البيت (عليه السلام) و بعض روايات أهل السنة أنه هو شعيب النبي المبعوث إلى مدين.

قوله تعالى: **{وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}** قال في المجمع: تلقاء الشيء حذاءه، ويقال: فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من حذاء داعي نفسه. و قال: سواء السبيل وسط الطريق انتهى.

و مدين على ما في مرصد الاطلاع، مدينة قوم شعيب و هي تجاه تبوك على بحر القلزم بينهما ست مراحل و هي أكبر من تبوك و بها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب (عليه السلام) انتهى، و يقال: إنه كان بينهما و بين مصر مسيرة ثمان و كانت خارجة من سلطان فرعون و لذا توجه إليها.

و المعنى: و لما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال: أرجو من ربي أن يهديني وسط الطريق فلا أضل بالعدول عنه و الخروج منه إلى غيره.

و السياق - كما ترى - يعطي أنه (عليه السلام) كان قاصدا لمدين و هو لا يعرف الطريق الموصلة إليها فترجى أن يهديه ربه.

قوله تعالى: **{وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ}** إنخ الذود الحبس و المنع، و المراد

بقوله: **{تَدْوِدَانِ}** أنهما يحبسان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط بأغنام القوم كما أن المراد بقوله: **{يَسْقُونَ}** سقيهم أغنامهم و مواشيهم، و الرعاء جمع الراعي و هو الذي يرعى الغنم.

و المعنى: و لما ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أغنامهم و وجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحبسان أغنامهما و تمنعانهما أن ترد المورد قال موسى مستفسرا عنهما حيث وجدتهما تذودان الغنم و ليس على غنمهما رجل: ما شأنكما؟ قالتا لا نسقي غنمنا أي عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون و يخرجوا أغنامهم و أبونا شيخ كبير - لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقي و لذا تصدنا الأمر.

قوله تعالى: **{فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}** فهم» (عليه السلام) من كلامهما أن تأخرهما في السقي نوع تعفف و تحجب منهما و تعد من الناس عليهما فبادر إلى ذلك و سقى لهما.

و قوله: **{ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}** أي انصرف إلى الظل ليستريح فيه و الحر شديد و قال ما قال، و قد حمل الأكثرون قوله: **{رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ}** إنلخ على سؤال طعام يسد به الجوع، و عليه فالأولى أن يكون المراد بقوله **{لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ}** القوة البدنية التي كان يعمل بها الأعمال الصالحة التي فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيلى و الهرب من فرعون بقصد مدين و سقى غنم شعيب و اللام في **{لِمَا أَنْزَلْتَ}** بمعنى إلى و إظهار الفقر إلى هذه القوة التي أنزلها الله إليه من عنده بالإفاضة كناية عن إظهار الفقر إلى شيء من الطعام تستبقى به هذه القوة النازلة الموهوبة.

و يظهر منه أنه (عليه السلام) كان ذا مراقبة شديدة في أعماله فلا يأتي بعمل و لا يريد و إن كان مما يقتضيه طبعه البشري إلا ابتغاء مرضاة ربه و جهادا فيه و هذا ظاهر بالتدبر في القصة فهو القائل لما وكرز القبطي: **{رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}** ثم القائل لما خرج من مصر خائفا يترقب: **{رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** ثم القائل لما أخذ في السلوك: **{عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}** ثم القائل لما سقى و تولى إلى الظل: **{رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}** ثم القائل لما آجر نفسه شعيبا و عقد على بنته: **{وَ اللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَ كَيْلٌ}**.

و ما نقل عن بعضهم أن اللام في **{لِمَا أَنْزَلْتَ}** للتعليل و كذا قول بعضهم إن المراد بالخير خير الدين و هو النجاة من الظالمين بعيد مما يعطيه السياق.

قوله تعالى: **{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمَثَّى عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ}** إلى آخر الآية. ضمير إحداهما للهرأتين، و تنكير الاستحياء للتفخيم و المراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفف من مشيتها، و قوله: **{لِيَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}** ما مصدرية أي ليعطيك جزاء سقيك لنا، و قوله: **{فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقُصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ}** إنح يلوح إلى أن شعيبا استفسره حاله فقص عليه قصته فطيب نفسه بأنه نجا منهم إذ لا سلطان لهم على مدين.

و عند ذلك تمت استجابته تعالى لموسى (عليه السلام) أدعيته الثلاثة فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجيهِ من القوم الظالمين فأخبره شعيب (عليه السلام) بالنجاة و ترجى أن يهديه سواء السبيل و هو في معنى الدعاء فورد مدين، و سأله الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجر ما سقى و زاد تعالى فكفاه رزق عشر سنين و وهب له زوجا يسكن إليها.

قوله تعالى: **{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}** إطلاق الاستيجار يفيد أن المراد استخدامه لمطلق حوائجه التي تستدعي من يقوم مقامه و إن كانت العهدة باقتضاء المقام رعي الغنم.

و قوله: **{إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ}** إنح، في مقام التعليل لقوله: **{اسْتَأْجِرْهُ}** و هو من وضع السبب موضع المسبب و التقدير استأجره لأنه قوي أمين و خير من استأجرت هو القوي الأمين.

و في حكمها بأنه قوي أمين دلالة على أنها شاهدت من نحو عمله في سقي الأغنام ما استدلت به على قوته و كذا من ظهور عفته في تكليمهما و سقي أغنامهما ثم في صحبته لها عند ما انطلق إلى شعيب حتى أتاه ما استدلت به على أماته.

و من هنا يظهر أن هذه القائلة: **{يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ}** إنح، هي التي جاءت و أخبرته بدعوة أبيها له كما وردت به روايات أئمة أهل البيت (عليه السلام) و ذهب إليه جمع من المفسرين.

قوله تعالى: **{قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَابٍ}** إنح، عرض من شعيب لموسى (عليه السلام) أن يأجره نفسه ثمانين سنين أو عشرا

قبال تزويجه إحدى ابنتيه و ليس بعقد قاطع و من الدليل عدم تعين المعقودة في كلامه (عليه السلام).

فقوله: **{إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ}** دليل على حضورهما إذ ذاك، وقوله: **{عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّج}** أي على أن تأجرني نفسك أي تكون أجيرا لي ثماني حجج، و الحجج جمع حجة و المراد بها السنة بعناية أن كل سنة فيها حجة للبيت الحرام، و به يظهر أن حج البيت و هو من شريعة إبراهيم (عليه السلام) - كان معمولا به عندهم.

و قوله: **{فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ}** أي فإن أتممته عشر سنين فهو من عندك و باختيار منك من غير أن تكون ملزما من عندي.

و قوله: **{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمُشِقَ عَلَيْكَ}** إخبار عن نحو ما يريد منه من الخدمة و أنه عمل غير موصوف بالمشقة و أنه مخدوم صالح.

و قوله: **{سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}** أي إني من الصالحين و ستجدني منهم إن شاء الله فلا استثناء متعلق بوجدان موسى إياه منهم لا بكونه في نفسه منهم.

قوله تعالى: **{قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَصَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}** الضمير لموسى (عليه السلام).

و قوله: **{ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ}** أي ذلك الذي ذكرته و قررته من المشاركة و المعاهدة و عرضته علي ثابت بيننا ليس لي و لا لك أن نخالف ما شارطناه، و قوله: **{أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَصَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ}** بيان للأجل المردد المضروب في كلام شعيب (عليه السلام) و هو قوله: **{ثَمَانِي حَجَّجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ}** أي لي أن أختار أي الأجلين شئت فإن اخترت الثماني سنين فليس لك أن تعدو علي و تلزمني بالزيادة و إن اخترت الزيادة و خدمتك عشرا فليس لك أن تعدو علي بالمنع من الزيادة.

و قوله: **{وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}** توكل له تعالى فيما يشارطان يتضمن إشهاده تعالى على ما يقولان و إرجاع الحكم و القضاء بينهما إليه لو اختلفا، و لذا اختار التوكيل على الإشهاد لأن الشهادة و القضاء كليهما إليه تعالى، و هذا كقول يعقوب (عليه السلام) حين أخذ الموثق من بنيه أن يردوا إليه ابنه فيما يحكيه الله: **{فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}**: يوسف: ٦٦.

(بحث روائي)

في كتاب كمال الدين بإسناده إلى سدير الصيرفي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث طويل:
**{وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ
فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}** من مصر بغير ظهر ولا دابة ولا خادم تخفضه أرض و ترفعه أخرى حتى انتهى
إلى أرض مدين.

فانتهى إلى أصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر وإذا عندها أمة من الناس يسقون وإذا جاريتان ضعيفتان
وإذا معهما غنيمة لهما قال ما خطبكما قالتا أبونا شيخ كبير ونحن جاريتان ضعيفتان لا نقدر أن نزاحم
الرجال فإذا سقى الناس سقينا فرحمهما فأخذ دلوهما فقال لهما: قدما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل
الناس.

ثم تولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها و قال: **{رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}** فروي أنه قال
ذلك وهو محتاج إلى شق تمره فلها رجعتا إلى أبيهما قال: ما أعجلكما في هذه الساعة قالتا: وجدنا رجلا صالحا
رحمنا فسقى لنا. فقال لإحدهما اذهبي فادعيه لي فجاءته إحدهما تمشي على استحياء قالت: **{إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}**.

فروي أن موسى (عليه السلام) قال لها: وجهني إلى الطريق و امشي خلفي فإننا بني يعقوب لا ننظر
في أعجاز النساء، فلها جاءه و قص عليه القصص قال: **{لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}**.

قال: **{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ
عِنْدِكَ}** فروي أنه قضى أتمهما لأن الأنبياء (عليه السلام) لا تأخذ إلا بالفضل و التمام.

أقول: و روى ما في معناه القمي في تفسيره.

و في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ذكره عن أبي عبد الله (عليه السلام):
في قول الله عز و جل حكاية عن موسى (عليه السلام): **{رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}** قال: **سأل**
الطعام.

أقول: و روى العياشي عن حفص عنه (عليه السلام): **مثله، و لفظه إنما عنى الطعام:**

وأيضا عن ليث عن أبي جعفر (عليه السلام) **مثله**، وفي نهج البلاغة: **مثله ولفظه والله ما سأله إلا خبزاً يأكله.**

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **لما سقى موسى للجاريين ثم تولى إلى الظل فقال: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} قال: إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر.**

وفي تفسير القمي قال: قالت إحدى بنات شعيب: **{يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}**، فقال لها شعيب (عليه السلام): أما قوته فقد عرفته أنه يستقي الدلو وحده فبم عرفته أمانته؟ فقالت: إنه لما قال لي: تأخري عني وديني على الطريق فإننا من قوم لا ينظرون في أدبار النساء عرفت أنه ليس من الذين ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانته.

أقول: وروي مثله في المجمع عن علي (عليه السلام).

وفي المجمع وروى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **رسائل أيتهما التي قالت: إن أبي يدعوك؟ قال: التي تزوج بها. قيل: فأبي الأجلين قضى؟ قال: أوفاهما وأبعدهما عشر سنين. قيل: فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه؟ قال: قبل أن ينقضي. قيل له: فالرجل يتزوج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك؟ قال: إن موسى علم أنه سيم له شرطه. قيل: كيف؟ قال: علم أنه سيبقى حتى يفي.**

أقول: وروى قضاء عشر سنين في الدر المنثور عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعدة طرق.

وفي تفسير العياشي وقال الحلبي: سئل أبو عبد الله (عليه السلام) عن البيت أ كان يحج قبل أن يبعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: **نعم وتصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى (عليه السلام) حيث تزوج: {عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَابٍ} ولم يقل ثمان سنين.**

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٢٩ الى ٤٢]

{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ}

نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَضْطَلُونَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا
مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣٣﴾ أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ
غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٥﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ
أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٦﴾ قَالَ سَنُنْشِدُكَ
بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا
جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ
﴿٣٨﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى
الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي

لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمِ إِنَّا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ
وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَ اتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

(بيان)

فصل آخر من قصة موسى (عليه السلام) و قد أودع فيه إجمال قصته من حين سار بأهله من مدين قاصدا لمصر و بعثته بالرسالة إلى فرعون و ملئه لإنجاء بني إسرائيل و تكذيبهم له إلى أن أغرقهم الله في اليم و تنتهي القصة إلى إيتائه الكتاب و كأنه هو العمدة في سرد القصة.

قوله تعالى: **{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا}** إِنْخ، المراد بقضائه الأجل إتمامه مدة خدمته لشعيب (عليه السلام) و المروي أنه قضى أطول الأجلين، و الإيناس الإبصار و الرؤية، و الجذوة من النار القطعة منها، و الاصطلاء الاستدفاء.

و السياق يشهد أن الأمر كان بالليل و كانت ليلة شديدة البرد و قد ضلوا الطريق فرأى من جانب الطور و قد أشرفوا عليه نارا فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب إلى ما آنسه لعله يجد هناك من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعة من النار فيصطلوا بها، و قد وقع في القصة من سورة طه موضع قوله: **{لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ}** إِنْخ قوله: **{لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى}** طه: ١٠، و هو أدل على كونهم ضلوا الطريق.

و كذا في قوله خطابا لأهله: **{أَمْكُثُوا}** إِنْخ، شهادة على أنه كان معها من يصح

معه خطاب الجمع.

قوله تعالى: **{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ}** إلمح قال في المفردات: شاطئ الوادي جانبه، وقال: أصل الوادي الموضع الذي يسيل منه الماء ومنه سمي المنفرج بين الجبلين واديا وجمعه أودية انتهى و البقعة القطعة من الأرض على غير هيئة التي إلى جنبها.

و المراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابل الأيسر و هو صفة الشاطئ و لا يعبأ بما قاله بعضهم: إن الأيمن من اليمين مقابل الأشأم من الشؤم.

و البقعة المباركة قطعة خاصة من الشاطئ الأيمن في الوادي كانت فيه الشجرة التي نودي منها، و مباركتها لتشرفها بالتقريب و التكليم الإلهي و قد أمر بخلع نعليه فيها لتقدسها كما قال تعالى في القصة من سورة طه: **{فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}**: طه: ١٢.

و لا ريب في دلالة الآية على أن الشجرة كانت مبدءا للنداء و التكليم بوجه غير أن الكلام و هو كلام الله سبحانه لم يكن قائما بها كقيام الكلام بالمتكلم منا فلم تكن إلا حجابا احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه من معنى الاحتجاب و هو على كل شيء محيط، قال تعالى: **{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ}**: الشورى: ٥١.

و من هنا يظهر ضعف ما قيل: إن الشجرة كانت محل الكلام لأن الكلام عرض يحتاج إلى محل يقوم

به.

و كذا ما قيل: إن هذا التكليم أعلى منازل الأنبياء (عليه السلام) أن يسمعوا كلام الله سبحانه من غير واسطة و مبلغ. و ذلك أنه كان كلاما من وراء حجاب و الحجاب واسطة و ظاهر آية الشورى المذكورة أنفا أن أعلى التكليم هو الوحي من غير واسطة حجاب أو رسول مبلغ.

وقوله: **{أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** أن فيه تفسيرية، وفيه إنباء عن الذات المتعالية المسماة باسم الجلالة الموصوفة بوحداية الربوبية النافية لمطلق الشرك إذ كونه ربا للعالمين جميعا و الرب هو المالك المدبر للملكه الذي يستحق العبادة من مملوكيه لا يدع شيئا من العالمين يكون مربوبا لغيره حتى يكون هناك رب غيره وإله معبود سواه.

ففي الآية إجمال ما فصله في سورة طه في هذا الفصل من النداء من الإشارة إلى الأصول الثلاثة أعني التوحيد والنبوة والمعاد إذ قال: **{إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ}** الآيات: طه: ١٤-١٦.

قوله تعالى: **{وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ}** تقدم تفسيره في سورة النمل.

قوله تعالى: **{يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ}** بتقدير القول أي قيل له: أقبل ولا تخف إنك من الآمين، وفي هذا الخطاب تأمين له، وبه يظهر معنى قوله في هذا الموضع من القصة في سورة النمل: **{يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ}**: النمل: ١٠ وأنه تأمين معناه أنك مرسل والمرسلون آمنون لدي وليس من العتاب والتوبيخ في شيء.

قوله تعالى: **{أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}** المراد بسلوك يده في جيبه إدخاله فيه و المراد بالسوء على ما قيل البرص.

و الظاهر أن في هذا التقييد تعريضا لما في التوراة الحاضرة في هذا الموضع من القصة: ثم قال له الرب أيضا: أدخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج.

قوله تعالى: **{وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ}** إلى آخر الآية، الرهب بالفتح فالسكون و بفتحتين و بالضم فالسكون الخوف، و الجناح قيل: المراد به اليد وقيل: العضد.

قيل: المراد بضم الجناح إليه من الرهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدة انقلاب العصا حية ليذهب ما في قلبه من الخوف.

وقيل: إنه لما ألقى العصا وصارت حية بسط يديه كالمثقي وهما جناحاه فقيل له: اضمم إليك جناحك أي لا تبسط يديك خوف الحية فإنك آمن من ضررها.

و الوجهان كما ترى مبنيان على كون الجملة أعني قوله: **{وَأَضْمُمْ}** إنخ، من تمة قوله: **{أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنْ آلِ آمِنِينَ}** وهذا لا يلائم تخلل قوله: **{أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ}** إنخ، بين الجملتين بالفصل من غير عطف. وقيل: الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أراده الله سبحانه منه والحث على الجد في أمر الرسالة لثلا يمنعه ما يغشاه من الخوف في بعض الأحوال.

ولا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإن من دأب المتكبر المعجب بنفسه أن يفرج بين عضديه و جنبه كالمتمطي في مشيته فيكون في معنى ما أمر الله به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من التواضع للمؤمنين بقوله: **{وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}**: الحجر: ٨٨ على بعض المعاني. قوله تعالى: **{قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}** إشارة إلى قتله القبطي بالوكز و كان يخاف أن يقتلوه قصاصا.

قوله تعالى: **{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ}** قال في الجمع: يقال: فلان رداء لفلان إذا كان ينصره ويشد ظهره. انتهى.

وقوله: **{إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ}** تعليل لسؤاله إرسال هارون معه، و السياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبه فيغضب و لا يستطيع بيان حجته للكفة كانت في لسانه لا أنه سأل إرساله لثلا يكذبه فإن من يكذبه لا يبالي أن يكذب هارون معه و من الدليل على ذلك ما وقع في سورة الشعراء في هذا الموضع من القصة من قوله: **{قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ}**: الشعراء:

٠١٣

فمحصل المعنى: أن أخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معينا لي بين

صدقي في دعواي إذا خاصموني إني أخاف أن يكذبون فلا أستطيع بيان صدق دعواي.

قوله تعالى: **{قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}** شد عضده بأخيه كناية عن تقويته به، و عدم الوصول إليهما كناية عن عدم التسلط عليهما بالقتل و نحوه كأن الطائفتين يتسابقان وإحداهما متقدمة دائما والأخرى لا تدرکہم بالوصول إليهم فضلا أن يسبقوهم.

و المعنى: قال سنقويك و نعينك بأخيك هارون و نجعل لكما سلطة و غلبة عليهم فلا يتسلطون عليكما بسبب آياتنا التي نظهر كما بها. ثم قال: **{أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}** و هو بيان لقوله: **{وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا}** إِنْخ، يوضح أن هذا السلطان يشملهما و من اتبعهما من الناس.

و قد ظهر بذلك أن السلطان بمعنى القهر و الغلبة و قيل: هو بمعنى الحجمة و الأولى حينئذ أن يكون قوله: **{بِآيَاتِنَا}** متعلقا بقوله: **{الْغَالِبُونَ}** لا بقوله: **{فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا}** و قد ذكروا في الآية وجوها أخر لا جدوى في التعرض لها.

قوله تعالى: **{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى}** إِنْخ، أي سحر موصوف بأنه مفترى و المفترى اسم مفعول بمعنى المخلوق أو مصدر ميمي و وصف به السحر مبالغة. و الإشارة في قوله: **{مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى}** إلى ما جاء به من الآيات أي ليس ما جاء به من الخوارق إلا سحرا مختلفا افتعله فنسبه إلى الله كذبا.

و الإشارة في قوله: **{وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ}** إلى ما جاء به من الدعوة و أقام عليها حجة الآيات، و أما احتمال أن يراد بها الإشارة إلى الآيات فلا يلائمه تكرار اسم الإشارة على أنهم كانوا يدعون أنهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في قوله: **{فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ}**: طه: ٥٨ على أن عدم معهودية السحر و عدم مسبقيته بالمثل لا ينفعهم شيئا حتى يدعوه.

فالمعنى: أن ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن آبائنا الأولين أنهم اتخذوه في وقت من الأوقات، و يناسبه ما حكى في الآية التالية من قول موسى: **{رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى}** إِنْخ.

قوله تعالى: **{وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ}** إِنْخ، مقتضى السياق كونه جوابا من موسى عن قولهم: **{وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ}** في رد دعوى موسى، و هو جواب مبني على التحدي كأنه يقول: إن ربي و هو رب العالمين له الخلق و الأمر هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى و من تكون له عاقبة الدار و هو الذي أرسلني رسولا جائيا بالهدى و هو دين التوحيد و وعدني أن من أخذ بديني فله عاقبة الدار، و الحجّة على ذلك الآيات البينات التي آتانيها من عنده.

فقوله: **{رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ}** يريد به نفسه و المراد بالهدى الدعوة الدينية التي جاء بها.

و قوله: **{وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ}** المراد بعاقبة الدار إما الجنة التي هي الدار الآخرة التي يسكنها السعداء كما قال تعالى حكاية عنهم: **{وَأُورَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ}**: الزمر: ٧٤ وإما عاقبة الدار الدنيا كما في قوله: **{قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**: الأعراف: ١٢٨ وإما الأعم الشامل للدنيا و الآخرة، و الثالث أحسن الوجوه ثم الثاني كما يؤيده تعليقه بقوله: **{إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}**.

و في قوله: **{إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}** تعريض لفرعون و قومه و فيه نفي أن تكون لهم عاقبة الدار فإنهم بنوا سنة الحياة على الظلم و فيه انحراف عن العدالة الاجتماعية التي تهدي إليها فطرة الإنسان الموافقة للنظام الكوني.

قال بعض المفسرين: و الوجه في عطف قوله: **{وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ}** إِنْخ، على قولهم: **{مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ}** إِنْخ حكاية القولين ليوازن السامع بينهما ليميز صحيحهما من الفاسد. انتهى. و ما قدمناه من كون قول موسى (عليه السلام) مسوقا لرد قولهم أوفق للسياق.

قوله تعالى: **{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** إلى آخر الآية، فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوة الحقّة المؤيدة بالآيات المعجزة يريد أنه لم يتبين له حقية ما يدعو إليه موسى و لا كون ما أتى به من الخوارق آيات معجزة من

عند الله و أنه ما علم لهم من إله غيره.

فقوله: **{مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** سوق للكلام في صورة الإنصاف ليقع في قلوب الملأ موقع القبول كما هو ظاهر قوله المحكي في موضع آخر: **{مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}**: المؤمن:

٠٢٩

فمحصل المعنى: أنه ظهر للملأ أنه لم يتضح له من دعوة موسى و آياته أن هناك إلها هو رب العالمين و لا حصل له علم بأن هناك إلها غيره ثم أمر هامان أن يبني له صرحا لعله يطلع إلى إله موسى.

و بذلك يظهر أن قوله: **{مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** من قبيل قصر القلب فقد كان موسى (عليه السلام) يثبت الألوهية لله سبحانه و ينفى عن غيره و هو ينفى عنها تعالى و يثبتها لنفسه، و أما سائر الآلهة التي كان يعبدها هو و قومه فلا تعرض لها.

و قوله: **{فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الْطِينِ فَاَجْعَلْ لِي صَرْحًا}** المراد بالإيقاد على الطين تأجيج النار عليه لصنعة الأجر المستعمل في الأبنية، و الصرح البناء العالي المكشوف من صرح الشيء إذا ظهر ففي الجملة أمر باتخاذ الأجر و بناء قصر عال منه.

و قوله: **{لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى}** نسب الإله إلى موسى بعناية أنه هو الذي يدعو إليه، و الكلام من وضع النتيجة موضع المقدمة و التقدير: اجعل لي صرحا أصعد إلى أعلى درجاته فأنظر إلى السماء لعلني أطلع إلى إله موسى كأنه كان يرى أنه تعالى جسم ساكن في بعض طبقات الجو أو الأفلاك فكان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطلع إليه أو كان هذا القول من قبيل التعمية على الناس و إضلالهم.

و يمكن أن يكون المراد أن يبني له رصدا يترصد الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول أو حقيقة ما يصفه موسى (عليه السلام)، و يؤيد هذا قوله على ما حكى في موضع آخر: **{يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ الْأَسْبَابِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا}**: المؤمن: ٠٣٧.

و قوله: **{وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}** ترق منه من الجهل الذي يدل عليه قوله: **{مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** إلى الظن بعدم الوجود و قد كان كاذبا في قوله هذا و لا يقوله إلا تمويهها و تعمية على الناس و قد خاطبه موسى بقوله: **{لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ}**

هُؤْلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ: إسرء: ١٠٢ .

و ذكر بعضهم أن قوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} من قبيل نفي المعلوم بنفي العلم فيما لو كان لبان فيكون نظير قوله: {قُلْ أَنْتَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}: يونس: ١٨ و أنت خبير بأنه لا يلائم ذيل الآية.

قوله تعالى: {وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ} أي كانت حالهم حال من يترجح عنده عدم الرجوع و ذلك أنهم كانوا موقنين في أنفسهم كما قال تعالى: {وَ جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُتْوًا}.

قوله تعالى: {فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ} إنلح النبذ الطرح، و اليم البحر و الباقي ظاهر.

و في الآية من الاستهانة بأمرهم و تهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى.

قوله تعالى: {وَ جَعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ} الدعوة إلى النار هي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر و المعاصي لكونها هي التي تنتصرون لهم يوم القيامة نارا يعذبون فيها أو المراد بالنار ما يستوجبها مجازا من باب إطلاق المسبب و إرادة سببه.

و معنى جعلهم أمة يدعون إلى النار، تصييرهم سابقين في الضلال يقتدي بهم اللاحقون و لا ضير فيه لكونه بعنوان المجازاة على سبقهم في الكفر و الجحود و ليس من الإضلال الابتدائي في شيء.

و قيل: المراد بجعلهم أمة يدعون إلى النار تسميتهم بذلك على حد قوله: {وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاءً}: الزخرف: ١٩ .

و فيه أن الآية التالية على ما سيجيء من معناها لا تلائم. على أن كون الجعل في الآية المستشهد بها بمعنى التسمية غير مسلم.

و قوله: {وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ} أي لا تنالهم شفاعة من ناصر.

قوله تعالى: {وَ أَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ} بيان للآزم ما وصفهم به في الآية السابقة فهم لكونهم أمة يقتدي بهم من خلفهم في الكفر و المعاصي لا يزال يتبعهم ضلال الكفر و المعاصي من مقتديهم و متبعيهم و عليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر و المعاصي بعدهم.

فالآية في معنى قوله: **{وَلِيَحْمِلْنَ أُنْقَالَهُمْ وَأُنْقَالًا مَعَ أُنْقَالِهِمْ}**: العنكبوت: ١٣ و قوله: **{وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}**: يس: ١٢ و تنكير اللعنة للدلالة على تفخيمها و استمرارها.

و كذا لما لم ينلهم يوم القيامة نصر ناصر كانوا بحيث يتنفر و يشمئز عنهم النفوس و يفر منهم الناس و لا يدنو منهم أحد و هو معنى القبح و قد وصف الله تعالى من قبح منظرهم شيئاً كثيراً في كلامه.

(بحث روائي)

في المجمع روى الواحدي بالإسناد عن ابن عباس قال: **سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاهما وأبطأهما.**

أقول: و روي ما في معناه بالإسناد عن أبي ذر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن مقسم قال: لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب رض فقلت له: **أي الأجلين قضى موسى؟ الأول أو الآخر؟ قال: الآخر.**

و في المجمع روى أبو بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **لما قضى موسى الأجل و سار بأهله نحو البيت أخطأ الطريق فرأى نارا {قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا}**.

و عن كتاب طب الأئمة بإسناده عن جابر الجعفي عن الباقر (عليه السلام) في حديث قال: **و قال الله عز و جل في قصة موسى (عليه السلام): {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} يعني من غير برص.**

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي}** قال الراوي: فقلت لأبي جعفر (عليه السلام): **فكم مكث موسى (عليه السلام) غائبا عن أمه حتى رده الله عز و جل عليها؟ قال: ثلاثة أيام.**

قال: فقلت: فكان هارون أخا موسى (عليه السلام) لأبيه و أمه؟ قال: نعم أ ما تسمع الله عز و جل يقول: **{يَا بَنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي}**؟ فقلت:

فأيهما كان أكثر سناً؟ قال: هارون. قلت: فكان الوحي ينزل عليهما جميعاً؟ قال: كان الوحي ينزل على موسى و موسى يوحىه إلى هارون .

فقلت له: أخبرني عن الأحكام والقضاء والأمر والنهي كان ذلك إليهما؟ قال: كان موسى الذي ينجي ربه ويكتب العلم ويقضي بين بني إسرائيل و هارون يخلفه إذا غاب من قومه للمناجاة. قلت: فأيهما مات قبل صاحبه؟ قال: مات هارون قبل موسى و ماتا جميعاً في التيه. قلت: فكان لموسى ولد؟ قال: لا كان الولد لهارون و الذرية له.

أقول: و آخر الرواية لا يوافق روايات أخر تدل على أنه كان له ولد، و في التوراة الحاضرة أيضاً دلالة على ذلك.

في جوامع الجامع في قوله تعالى: **{وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ}** قال (عليه السلام) فيما حكاه عن ربه عز و جل: **الكبرياء ردائي و العظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار.**

و في الكافي بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال: **إن الأئمة في كتاب الله عز و جل إمامان قال الله تبارك و تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا}** لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم و حكم الله قبل حكمهم. قال: **{وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِ}** يقدمون أمرهم قبل أمر الله و حكمهم قبل حكم الله و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز و جل.

(كلام حول قصص موسى و هارون (عليه السلام)) في فصول

١ - منزلة موسى عند الله و موقفه العبودي

كان (عليه السلام) أحد الخمسة أولي العزم الذين هم سادة الأنبياء و لهم كتاب و شريعة كما خصهم الله تعالى بالذكر في قوله: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقاً غَلِيظاً}**: الأحزاب: ٧، و قال: **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى}**: الشورى: ١٣

و لقد امتن الله سبحانه عليه و على أخيه في قوله: **{وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ}**: الصفات: ١١٤
و سلم عليهما في قوله: **{سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَارُونَ}**: الصفات: ١٢٠.

و أثنى على موسى (عليه السلام) بأجمل الثناء في قوله: **{وَأُذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}**: مريم: ٥٢ و قال: **{وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً}**: الأحزاب: ٦٩ و قال: **{وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}**: النساء: ١٦٤.

و ذكره في جملة من ذكرهم من الأنبياء في سورة الأنعام الآية ٨٤-٨٨ فأخبر أنهم كانوا محسنين صالحين و أنه فضلهم على العالمين و اجتباهم و هداهم إلى صراط مستقيم. و ذكره في جملة الأنبياء في سورة مريم ثم ذكر في الآية ٥٨ منها أنهم الذين أنعم الله عليهم.

فاجتمع بذلك له (عليه السلام) معنى الإخلاص و التقريب و الوجاهة و الإحسان و الصلاح و التفضيل و الاجتباء و الهداية و الإنعام و قد مر البحث عن معاني هذه الصفات في مواضع تناسبها من هذا الكتاب و كذا البحث عن معنى النبوة و الرسالة و التكليم.

و ذكر الكتاب النازل عليه و هو التوراة فوصفها بأنها إمام و رحمة (سورة الأحقاف: ١٢) و بأنها فرقان و ضياء و ذكر: (الأنبياء: ٤٨) و بأن فيها هدى و نور: (المائدة: ٤٤) و قال: **{وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ}**: الأعراف: ١٤٥.

غير أنه تعالى ذكر في مواضع من كلامه أنهم حرفوها و اختلفوا فيها. و قصة بخت نصر و فتحه فلسطين ثانيا و هدمه الهيكل و إحراقه التوراة و حشره اليهود إلى بابل سنة خمسمائة و ثمان و ثمانين قبل المسيح ثم فتح كورش الملك بابل سنة خمسمائة و ثمان و ثلاثين قبل المسيح و إذنه لليهود أن يرجعوا إلى فلسطين ثانيا و كتابة عزراء الكاهن التوراة لهم معروف في التواريخ و قد تقدمت الإشارة إليه في الجزء الثالث من الكتاب في قصص المسيح (عليه السلام).

٢ - قصص موسى (عليه السلام) في القرآن

هو (عليه السلام) أكثر الأنبياء ذكرا في

القرآن الكريم فقد ذكر اسمه على ما عدوه في مائة وستة وستين موضعا من كلامه تعالى، وأشير إلى قصته إجمالا أو تفصيلا في أربع و ثلاثين سورة من سور القرآن، وقد اختص من بين الأنبياء بكثرة المعجزات، وقد ذكر في القرآن شيء كثير من معجزاته الباهرة كصيرورة عصاه ثعبانا، واليد البيضاء، و الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، و فلق البحر، وإنزال المن والسلوى، و انجاس العيون من الحجر بضرب العصا، وإحياء الموتى، و رفع الطور فوق القوم وغير ذلك.

وقد ورد في كلامه تعالى طرف من قصصه (عليه السلام) من دون استيفائها في كل ما دق و جل بل بالاختصار على فصول منها يهتم ذكرها لغرض الهداية والإرشاد على ما هو دأب القرآن الكريم في الإشارة إلى قصص الأنبياء وأهمهم.

وهذه الفصول التي فيها كليات قصصه هي أنه تولد بمصر في بيت إسرائيلي حينما كانوا يذبجون المواليذ الذكور من بني إسرائيل بأمر فرعون و جعلت أمه إياه في تابوت و ألقته في البحر و أخذ فرعون إياه ثم رده إلى أمه للإرضاع و التربية و نشأ في بيت فرعون.

ثم بلغ أشده و قتل القبطي و هرب من مصر إلى مدين خوفا من فرعون و ملئه أن يقتلوه قصاصا.

ثم مكث في مدين عند شعيب النبي (عليه السلام) و تزوج إحدى بنتيه.

ثم لما قضى موسى الأجل و سار بأهله آنس من جانب الطور نارا و قد ضلوا الطريق في ليلة شاتية فأوقفهم مكانهم و ذهب إلى النار ليأتيهم بقبس أو يجد على النار هدى فلما أتاها ناداه الله من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة و كلمه و اجتباه و آتاه معجزة العصا و اليد البيضاء في تسع آيات و اختاره للرسالة إلى فرعون و ملئه و إنجاء بني إسرائيل و أمره بالذهاب إليه.

فأتى فرعون و دعاه إلى كلمة الحق و أن يرسل معه بني إسرائيل و لا يعذبهم و أراه آية العصا و اليد البيضاء فأبى و عارضة بسحر السحرة و قد جاءوا بسحر عظيم من ثعابين و حيات فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى و هارون و أصر فرعون على جحوده و هدد السحرة و لم يؤمن.

فلم يزل موسى (عليه السلام) يدعوهم و ملأه و يريهم الآية بعد الآية كالطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات و هم يصرون على استكبارهم، و كلما وقع عليهم الرجز قالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك و لنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينجثون.

فأمره الله أن يسري بني إسرائيل ليلا فساروا حتى بلغوا ساحل البحر فعقبهم فرعون بجنوده فلما تراءى الفريقان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فأمر بأن يضرب بعصاه البحر فانفلق الماء فجاوزوا البحر و اتبعهم فرعون و جنوده حتى إذا ادركوا فيها جميعا أطبق الله عليهم الماء فأغرقهم عن آخرهم.

و لما أنجاهم الله من فرعون و جنوده و أخرجهم إلى البر و لا ماء فيه و لا كلاء أكرمهم الله فأنزل عليهم المن و السلوى و أمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم فشربوها منها و أكلوا منها و ظللهم الغمام.

ثم واعد الله موسى أربعين ليلة لنزول التوراة بجبل الطور فاختر قومه سبعين رجلا لسمعوا تكليمه تعالى إياه فسمعوا ثم قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة و هم ينظرون ثم أحياهم الله بدعوة موسى، و لما تم الميقات أنزل الله عليه التوراة و أخبره أن السامري قد أضل قومه بعده فعبدوا العجل.

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا فأحرق العجل و نسفه في اليم و طرد السامري و قال له: اذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس و أما القوم فأمرؤا أن يتوبوا و يقتلوا أنفسهم فتيب عليهم بعد ذلك ثم استكبروا عن قبول شريعة التوراة حتى رفع الله الطور فوقهم.

ثم إنهم ملوا المن و السلوى و قالوا لن نصبر على طعام واحد و سألوه أن يدعو ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها و قثائها و فومها و عدسها و بصلها فأمرؤا أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فأبوا فخرمها الله عليهم و ابتلاهم بالتيه يتيهون في الأرض أربعين سنة.

و من قصص موسى (عليه السلام) ما ذكره الله في سورة الكهف من مضيه مع فتاه إلى

مجمع البحرين للقاء العبد الصالح و صحبته حتى فارقه.

٣ - منزلة هارون (عليه السلام) عند الله و موقفه العبودي

أشركه الله تعالى مع موسى (عليه السلام) في سورة الصافات في المن و إيتاء الكتاب و الهداية إلى الصراط المستقيم و في التسليم و أنه من المحسنين و من عباده المؤمنين (الصافات: ١١٤-١٢٢) و عده مرسلا (طه: ٤٧) و نبيا (مريم: ٥٣) و أنه ممن أنعم عليهم (مريم: ٥٨) و أشركه مع من عدهم من الأنبياء في سورة الأنعام في صفاتهم الجميلة من الإحسان و الصلاح و الفضل و الاجتباء و الهداية (الأنعام: ٨٤-٨٨).

و في دعاء موسى ليلة الطور: **﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أُشَدُّ بِهِ أَرْزِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا وَ نَذْكُرَكَ كَثِيْرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا﴾**: طه: ٣٥.

و كان (عليه السلام) ملازما لأخيه في جميع مواقفه يشاركه في عامة أمره و يعينه على جميع مقاصده. و لم يرد في القرآن الكريم مما يختص به من القصص إلا خلافته لأخيه حين غاب عن القوم للبيقات و قال لأخيه هارون اخلفني في قومي و أصلح و لا تتبع سبيل المفسدين و لما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا و قد عبدوا العجل ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القول استضعفوني و كادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء و لا تجعلني مع القوم الظالمين قال رب اغفر لي و لأخي و أدخلنا في رحمتك و أنت أرحم الراحمين.

٤ - قصة موسى (عليه السلام)

في التوراة الحاضرة: قصصه (عليه السلام) موضوعة فيما عدا السفر الأول من أسفار التوراة الخمسة و هي: سفر الخروج و سفر اللاويين و سفر العدد و سفر التثنية تذكر فيها تفاصيل قصصه (عليه السلام) من حين ولادته إلى حين وفاته و ما أوحى إليه من الشرائع و الأحكام.

غير أن فيها اختلافات في سرد القصة مع القرآن في أمور غير يسيرة.

و من أهمها أنها تذكر أن نداء موسى و تكليمه من الشجرة كان في أرض مدين

قبل أن يسير بأهله و ذلك حين كان يرعى غنم يثرون^١ كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البرية و جاء إلى جبل الله حوريب و ظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة فناداه الله و كلمه بما كلمه و أرسله إلى فرعون لإنجاء بني إسرائيل^٢.

و منها ما ذكرت أن فرعون الذي أرسل إليه موسى غير فرعون الذي أخذ موسى و رباه ثم هرب منه موسى لما قتل القبطي خوفا من القصاص^٣.

و منها أنها لم تذكر إيمان السحرة لما ألقوا عصيهم فصارت حيات فتلقفتها عصا موسى بل تذكر أنهم كانوا عند فرعون و عارضوا موسى في آيتي الدم و الضفادع فأتوا بسحرهم مثل ما أتى به موسى (عليه السلام) معجزة^٤.

و منها أنها تذكر أن الذي صنع لهم العجل فعبدوه هو هارون النبي أخو موسى (عليه السلام) و ذلك أنه لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون و قالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير إمامنا لأن هذا (موسى) الرجل الذي أصدعنا من أرض مصر لا نعلم ما ذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الشعب التي في آذان نسائكم و بنيكم و بناتكم و أتوني بها.

فنزح كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم و أتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم و صوره بالإزميل فصبغه عجلا مسبوكا فقالوا أ هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصدعتك من أرض مصر^٥.

و في الآيات القرآنية تعريضات للتوراة في هذه المواضع من قصصه (عليه السلام) غير خفية على المتدبر فيها.

و هناك اختلافات جزئية كثيرة كما وقع في التوراة في قصة قتل القبطي أن

١ تسمي التوراة أبا زوجة موسى يثرون كاهن مديان.

٢ الإصحاح الثالثة من سفر الخروج.

٣ سفر الخروج، الإصحاح الثاني. الآية ٢٣.

٤ الإصحاح السابع و الثامن من سفر الخروج.

٥ الإصحاح الثاني و الثلاثون من سفر الخروج.

المتضارين ثانياً كانا جميعاً إسرائيليين^١.

وأيضاً وقع فيها أن الذي ألقى العصا فتلقفت حيات السحرة هو هارون ألقاها بأمر موسى^٢.

وأيضاً لم تذكر فيها قصة انتخاب السبعين رجلاً للميقات و نزول الصاعقة عليهم وإحياءهم بعده.

وأيضاً فيها أن الألواح التي كانت مع موسى لما نزل من الجبل وألقاها كانت لوحين من حجر وهما

لوحا الشهادة^٣. إلى غير ذلك من الاختلافات.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٤٣ الى ٥٦]

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَ لَكِنَّا
أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ
﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَ لَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

١ الإصحاح الثاني من سفر الخروج.

٢ الإصحاح السابع من سفر الخروج.

٣ الإصحاح الثاني من سفر الخروج.

فَنَتَّبِعْ آيَاتِكَ وَنَكُونْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَ لَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُنَ بِالْحَسَنَةِ الْسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

(بيان)

سياق الآيات يشهد أن المشركين من قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) راجعوا بعض أهل الكتاب واستفتوهم في أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) و عرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه و هو

مصدق للتوراة فأجابوا بتصديقه و الإيمان بما يتضمنه القرآن من المعارف الحقة و أنهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يبعث كما قال تعالى: **{وَإِذَا يُنثَلْ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنََّّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ}**.

فساء المشركين ذلك و شاجروهم و أغلظوا عليهم في القول و قالوا: إن القرآن سحر و التوراة سحر مثله **{سِحْرَانِ تَظَاهَرَا}** و **{إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ}** فأعرض الكايبون عنهم و قالوا: **{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}**.

هذا ما يلوح إليه الآيات الكريمة بسياقها، و هو سبحانه لما ساق قصة موسى (عليه السلام) و أنبأ أنه كيف أظهر قوما مستضعفين معبدين معديين يذبح أبناؤهم و تستحيي نساؤهم على قوم عالين مستكبرين طغاة مفسدين بوليد منهم رباه في حجر عدوه الذي يذبح بأمره الألوف من أبنائهم ثم أخرجهم لما نشأ من بينهم ثم بعثه و رده إليهم و أظهره عليهم حتى أغرقهم أجمعين و أنجى شعب إسرائيل فكانوا هم الوارثين.

عطف القول على الكتاب السماوي الذي هو المتضمن للدعوة و به تتم الحججة و هو الحامل للتذكرة فذكر أنه أنزل التوراة على موسى (عليه السلام) فيه بصائر للناس و هدى و رحمة لعلهم يتذكرون فينتهون عن معصية الله بعد ما أهلك القرون الأولى بمعاصيهم.

و كذا أنزل على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) القرآن و قص عليه قصص موسى (عليه السلام) و لم يكن هو شاهدا لنزول التوراة عليه و لا حاضرا في الطور لما ناداه و كلمه، و قص عليه ما جرى بين موسى و شعيب (عليه السلام) و لم يكن هو ثاويا في مدين يتلو عليهم آياته و لكن أنزله و قص عليه ما قصه رحمة منه لينذر به قوما ما أتاهم من نذير من قبله لأنهم بسبب كفرهم و فسوقهم في معرض نزول العذاب و أصابه المصيبة فلو لم ينزل الكتاب و لم يبلغ الدعوة لقالوا: ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك و كانت الحججة لهم على الله سبحانه.

فلما جاءهم الحق من عنده ببعثة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و نزول القرآن قالوا: **{لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ}** حين راجعوا أهل الكتاب في أمره فصدقه فقال المشركون: **{سِحْرَانِ تَظَاهَرَا}** يعنون التوراة و القرآن، و قالوا **{إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ}**.

ثم لقن سبحانه نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) الحجّة عليهم بقوله: **{قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** أي إن من الواجب في حكمة الله أن يكون هناك كتاب نازل من عند الله يهدي إلى الحق وتم به الحجّة على الناس وهم يعرفون فإن لم تكن التوراة والقرآن كتابي هدى وكافيين لهداية الناس فهناك كتاب هو أهدى منهما وليس كذلك إذ ما في الكتابين من المعارف الحقّة مؤيدة بالإعجاز وبدلالة البراهين العقلية. على أنه ليس هناك كتاب سماوي هو أهدى منهما فالكتابان كتابا هدى والقوم في الإعراض عنهما متبعون للهوى ضالون عن الصراط المستقيم وهو قوله: **{فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ}** إنخ.

ثم مدح سبحانه قوما من أهل الكتاب راجعهم المشركون في أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و القرآن فأظهروا لهم الإيمان والتصديق وأعرضوا عن لغو القول الذي جبهوهم به.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ}** إنخ اللام للقسم أي أقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة بوحيه إليه.

وقوله: **{مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى}** أي الأجيال السابقة على نزول التوراة كقوم نوح ومن بعدهم من الأمم الهالكة ولعل منهم قوم فرعون، وفي هذا التقييد إشارة إلى مسيس الحاجة حينئذ إلى نزول الكتاب لاندراست معالم الدين الإلهي بمضي الماضين وليشار في الكتاب الإلهي إلى قصصهم وحلول العذاب الإلهي بهم بسبب تكذيبهم لآيات الله ليعتبر به المعتبرون ويتذكر به المتذكرون.

وقوله: **{بَصَائِرَ لِلنَّاسِ}** جمع بصيرة بمعنى ما يبصره به وكان المراد بها الحجج البينة التي يبصر بها الحق ويميز بها بينه وبين الباطل، وهي حال من الكتاب وقيل: مفعول له.

وقوله: **{وَهُدًى}** بمعنى الهادي أو ما يهتدى به وكذا قوله: **{وَرَحْمَةً}** بمعنى ما يرحم به وهما حالان من الكتاب كبصائر، وقيل: كل منهما مفعول له.

والمعنى: وأقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة من بعد ما أهلكنا

الأجيال الأولى فاقتضت الحكمة تجديد الدعوة والإنذار حال كون الكتاب حججا بينة يبصر بها الناس المعارف الحقّة وهدى يهتدون به إليها ورحمة يرحمون بسبب العمل بشرائعه وأحكامه لعلهم يتذكرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد والعمل.

قوله تعالى: **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ}** الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والغربي صفة محذوفة الموصوف والمراد جانب الوادي الغربي أو جانب الجبل الغربي.

وقوله: **{إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ}** كان القضاء مضمّن معنى العهد، والمراد بعهد الأمر إليه على ما قيل أحكام أمر نبوته بإنزال التوراة إليه وأما العهد إليه بأصل الرسالة فيدل عليه قوله بعد: **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا}** وقوله: **{وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ}** تأكيد لسابقه.

والمعنى: وما كنت حاضرا وشاهدا حين أنزلنا التوراة على موسى في الجانب الغربي من الوادي أو الجبل.

قوله تعالى: **{وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ}** تطاول العمر تماردي الأمد والجملة استدراك عن النفي في قوله: **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ}**، والمعنى: ما كنت حاضرا هناك شاهدا لما جرى فيه ولما وجدنا أجيالا بعده فتمادى بهم الأمد ثم أنزلنا عليك قصته وخبر نزول الكتاب عليه ففي الكلام إيجاز بالحذف لدلالة المقام عليه.

قوله تعالى: **{وَمَا كُنْتَ قَائِمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}** الثاوي المقيم يقال: ثوى في المكان إذا أقام فيه والضمير في **{عَلَيْهِمْ}** لمشركي مكة الذين كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلو عليهم آيات الله التي تقص ما جرى على موسى (عليه السلام) في مدين زمن كونه فيه.

وقوله: **{وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}** استدراك من النفي في صدر الآية.

والمعنى: وما كنت مقيما في أهل مدين وهم شعيب وقومه مشاهدا لما جرى على موسى هناك نتلو على المشركين آياتنا القاصّة لخبره هناك ولما كنا مرسلين لك إلى قومك موحين بهذه الآيات إليك لتتلوها عليهم.

قوله تعالى: **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِنَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}** إلى آخر الآية، الظاهر من مقابلة الآية لقوله السابق: **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا}** إن المراد بهذا النداء ما كان من الشجرة في الليلة التي آنس فيها من جانب الطور نارا.

وقوله: **{وَلَكِنَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}** إنخ، استدراك عن النفي السابق، و الظاهر أن **{رَحْمَةً}** مفعول له، و الالتفات عن التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله: **{مِنْ رَبِّكَ}** للدلالة على كمال عنايته تعالى به (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقوله: **{لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}** الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوة النبوية أو هم و من يقارنهم من آباءهم فإن العرب خلت فيهم رسل منهم كهود و صالح و شعيب و إسماعيل (عليه السلام).

و المعنى: و ما كنت حاضرا في جانب الطور إذ نادينا موسى و كلمناه و اخترناه للرسالة حتى تخبر عن هذه القصة إخبار الحاضر المشاهد و لكن لرحمة منا أخبرناك بها لتندرقوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلمهم يتذكرون.

قوله تعالى: **{وَلَوْ لَا أَنَّ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا} إنخ، المراد بما قدمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد و العمل بدليل ذيل الآية، و المراد بالمصيبة التي تصيبهم أعم من مصيبة الدنيا و الآخرة فإن الإعراض عن الحق بالكفر و الفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهية في الدنيا كما يستتبعها في الآخرة، و قد تقدم بعض الكلام فيه في ذيل قوله: **{وَلَوْ لَا أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ}**: الأعراف: ٩٦ و غيره.**

وقوله: **{فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ}** متفرع على ما تقدمه على تقديم عدم إرسال الرسول و جواب لو لا محذوف لظهوره و التقدير: لما أرسلنا رسولا.

و محصل المعنى: أنه لو لا أنه تكون لهم الحجة علينا على تقدير عدم إرسال الرسول و أخذهم بالعذاب بما قدمت أيديهم من الكفر و الفسوق لما أرسلنا إليهم رسولا لكنهم يقولون ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك التي يتلوها علينا و نكون من المؤمنين.

قوله تعالى: **{فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى}**

إلخ، أي فأرسلنا إليهم الرسول بالحق و أنزلنا الكتاب فلما جاءهم الحق من عندنا و الظاهر أنه الكتاب النازل على الرسول و هو القرآن النازل على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) .

و المراد بقولهم: **{لَوْ لَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى}** أي لو لا أوتي النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) مثل التوراة التي أوتيتها موسى (عليه السلام)، و كأنهم يريدون به أن ينزل القرآن جملة واحدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً}**: الفرقان: ٣٢.

و قد أجاب الله عن قولهم بقوله: **{أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا}** يعنون القرآن و التوراة **{وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ}**. و الفرق بين القولين أن الأول كفر بالكاتبين و الثاني كفر بأصل النبوة و لعله الوجه لتكرار **{قَالُوا}** في الكلام.

قوله تعالى: **{قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** تفرع على كون القرآن و التوراة سحرين تظاهرا، و لا يصح هذا التفرع إلا إذا كان من الواجب أن يكون بين الناس كتاب من عند الله سبحانه يهديهم و يجب عليهم اتباعه فإذا كانا سحرين باطلين كان الحق غيرهما، و هو كذلك على ما تبين بقوله: **{وَلَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ}** إلخ، إن للناس على الله أن ينزل عليهم الكتاب و يرسل إليهم الرسول، و لذلك أمر تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يطالبهم بكتاب غيرهما هو أهدى منهما ليتبعه.

ثم الكتابان لو كانا سحرين تظاهرا كانا باطلين مضلين لا هدى فيهما حتى يكون غيرهما من الكتاب الذي يأتون به أهدى منهما - لاستلزام صيغة التفضيل اشتراك المفضل و المفضل عليه في أصل الوصف لكن المقام لما كان مقام المحاجة ادعى أن الكتابين هاديان لا مزيد عليهما في الهداية فإن لم يقبل الخصم ذلك فليات بكتاب يزيد عليهما في معنى ما يشتملان عليه من بيان الواقع فيكون أهدى منهما.

و القرآن الكريم و إن كان يصرح بتسرب التحريف و الخلل في التوراة الحاضرة و ذلك لا يلائم عدها كتاب هدى بقول مطلق لكن الكلام في التوراة الواقعية النازلة على موسى (عليه السلام) و هي التي يصدقها القرآن.

على أن موضوع الكلام هما معا و القرآن يقوم التوراة الحاضرة ببيان ما فيها من الخلل فهما معا هدى لا كتاب أهدي منهما.

وقوله: **{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** أي في دعوى أنهما سحران تظاهرا.

قوله تعالى: **{فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ}** إلى آخر الآية، الاستجابة والإجابة بمعنى واحد، قال في الكشف: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام، ويحذف الدعاء إذا عدي إلى الداعي في الغالب فيقال: استجاب الله دعاءه أو استجاب له، ولا يكاد يقال: استجاب له دعاءه. انتهى.

فقوله: **{فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ}** تفريع على قوله: **{قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ}** أي فإن قلت لهم كذا و كفتهم بذلك فلم يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن و التوراة و تعين أن لا هدى أتم و أكل من هداهما و هم مع ذلك يرمونها بالسحر و يعرضون عنهما فاعلم أنهم ليسوا في طلب الحق و لا بصدد اتباع ما هو صريح حجة العقل و إنما يتبعون أهواءهم و يدافعون عن مشتهيات طباعهم بمثل هذه الأباطيل: **{سِحْرَانِ تَظَاهَرَا} {إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ}**.

و يمكن أن يكون المراد بقوله: **{أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ}** إنهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما و هم غير مؤمنين بهما فاعلم أنهم إنما يبنون سنة الحياة على اتباع الأهواء و لا يعتقدون بأصل النبوة و أن الله دينا سماويا نازلا عليهم من طريق الوحي و عليهم أن يتبعوه و يسلكوا مسلك الحياة بهدى ربهم، و ربما أيد هذا المعنى قوله بعد: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ}** إلخ.

و قوله: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ}** استفهام إنكاري و المراد به استنتاج أنهم ضالون، و قوله: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** تعليل لكونهم ضالين باتباع الهوى فإن اتباع الهوى إعراض عن الحق و انحراف عن صراط الرشده و ذلك ظلم و الله لا يهدي القوم الظالمين و غير المهتدي هو الضال. و محصل الحجة أنهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما و ليسوا مؤمنين بهما فهم متبعون للهوى، و متبع الهوى ظالم و الظالم غير مهتد و غير المهتدي ضال فهم ضالون.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}** التوصيل تفعيل من

الوصل يفيد الكثير كالقطع و التقطيع و القتل و التقتيل، و الضمير لمشركي مكة و المعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولا بعضه ببعض: الآية بعد الآية، و السورة إثر السورة من وعد و وعيد و معارف و أحكام و قصص و عبر و حكم و مواظ لعلهم يتذكرون.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ}** الضميران للقرآن و قيل: للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم). و الأول أوفق للسياق، و في الآية و ما بعدها مدح طائفة من مؤمني أهل الكتاب بعد ما تقدم في الآيات السابقة من ذم المشركين من أهل مكة.

و سياق ذيل الآيات يشهد على أن هؤلاء الممدوحين طائفة خاصة من أهل الكتاب آمنوا به فلا يعبا بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم.

قوله تعالى: **{وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا}** إِنْخ، ضمائر الأفراد للقرآن، و اللام في **{الْحَقُّ}** للعهد و المعنى و إذا يقرأ القرآن عليهم قالوا: آمنا به إنه الحق الذي نعهده من ربنا فإنه عرفناه من قبل.

و قوله: **{إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ}** تعليل لكونه حقا معهودا عندهم أي إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذي يدعو إليه و يسميه إسلاما.

و قيل: الضميران للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و ما تقدم أوفق للسياق، و كيف كان فهم يعنون بذلك ما قرءوه في كتبهم من أوصاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و الكتاب النازل عليه كما يشير إليه قوله تعالى: **{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ}**: الأعراف: ١٥٧ و قوله: **{أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ}**: الشعراء: ١٩٧.

قوله تعالى: **{أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ يَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}** إِنْخ في الآية وعد جميل لهم على ما فعلوا و مدح لهم على حسن سلوكهم و مداراتهم مع جهلة المشركين و لذا كان الأقرب إلى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابتهم و أجر الإيمان بالقرآن و صبرهم على الإيمان بعد الإيمان بما فيهما من كلفة مخالفة الهوى.

و قيل: المراد إيتاؤهم الأجر بما صبروا على دينهم و على أذى الكفار و تحمل المشاق و قد عرفت ما يؤيده السياق.

وقوله: **{وَيَذُرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}** إنح الدرء الدفع، والمراد بالحسنة والسيئة قيل: الكلام الحسن و الكلام القبيح، وقيل: العمل الحسن والسيئ وهما المعروف والمنكر، وقيل: الخلق الحسن والسيئ وهما الحلم والجهل، و سياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى إلى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمداراة، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ}** إنح، المراد باللغو لغو الكلام بدليل تعلقه بالسمع، والمراد سقط القول الذي لا ينبغي الاشتغال به من هذر أو سب و كل ما فيه خشونة، ولذا لما سمعوه أعرضوا عنه و لم يقابلوه بمثله و قالوا: **{لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ}** و هو متاركة، وقوله: **{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}** أي أمان منا لكم، و هو أيضا متاركة و توديع تكرما كما قال تعالى: **{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}**.

وقوله: **{لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}** أي لا نطلبهم بمعاشرة و مجالسة، و فيه تأكيد لما تقدمه، و هو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابلة السيئ بالسيئ.

قوله تعالى: **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}** المراد بالهداية الإيصال إلى المطلوب و مرجعه إلى إفاضة الإيمان على القلب و معلوم أنه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد، و ليس المراد بها إراءة الطريق فإنه من وظيفة الرسول لا معنى لنفيه عنه، و المراد بالاهتداء قبول الهداية.

لما بين في الآيات السابقة حرمان المشركين و هم قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من نعمة الهداية و ضلالهم باتباع الهوى و استكبارهم عن الحق النازل عليهم و إيمان أهل الكتاب به و اعترافهم بالحق ختم القول في هذا الفصل من الكلام بأن أمر الهداية إلى الله لا إليك يهدي هؤلاء و هم من غير قومك الذين تدعوهم و لا يهدي هؤلاء و هم قومك الذين تحب اهتداءهم و هو أعلم بالمهتدين.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج البزار و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن أبي

سعيد الخدري قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة. ألم ترى قوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى}**؟

أقول: وفي دلالة الآية على الإهلاك بخصوص العذاب السماوي ثم انقطاعه بنزول التوراة خفاء.

و فيه في قوله تعالى: **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا}** (الآية): أخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: لما قرب الله موسى إلى طور سيناء نجيا قال: أي رب هل أحد أكرم عليك مني؟ قربتني نجيا و كلمتني تكليما. قال: نعم، محمد أكرم علي منك. قال: فإن كان محمد أكرم عليك مني فهل أمة محمد أكرم من بني إسرائيل؟ فقلت لهم البحر وأنجيتهم من فرعون و عمله و أطعمتهم المن و السلوى. قال: نعم، أمة محمد أكرم علي من بني إسرائيل. قال: إلهي أرنهم. قال: إنك لن تراهم و إن شئت أسمعك صوتهم. قال: نعم إلهي.

فنادى ربنا أمة محمد: أجيئوا ربكم، فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم و أرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا: لبيك أنت ربنا حقا و نحن عبيدك حقا. قال: صدقتم و أنا ربك و أنتم عبيدي حقا قد غفرت لكم قبل أن تدعوني و أعطيتكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة.

قال ابن عباس: فلما بعث الله محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد أن يمن عليه بما أعطاه و بما أعطى أمته فقال: يا محمد **{وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا}**.

أقول: و رواه فيه أيضا بطرق أخرى عن غيره و روى هذا المعنى أيضا الصدوق في العيون عن الرضا (عليه السلام) لكن حمل الآية على هذا المعنى يوجب اختلال السياق و فساد ارتباط الجمل المتقدمة و المتأخرة بعضها ببعض.

و في البصائر بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن (عليه السلام): في قول الله عز و جل: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ}** يعني من اتخذ دينه هواه بغير هدى من أئمة الهدى.

أقول: وروي مثله بإسناده عن المعلى عن أبي عبد الله (عليه السلام) وهو من الجري أو من البطن.

وفي الجمع في قوله تعالى: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}** الآيات، نزل قوله: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}** وما بعده في عبد الله بن سلام و تميم الداري و الجارود و العبدى و سلمان الفارسي فإنهم لما أسلموا نزلت فيهم الآيات. عن قتادة.

وقيل: نزلت في أربعين رجلا من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل مبعثه اثنان و ثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه و ثمانية قدموا من الشام منهم بحيراء و أبرهة و الأشرف و أيمن و إدريس و نافع و تميم.

أقول: وروي غير ذلك.

و فيه في معنى قوله تعالى: **{وَيَذُرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}** وقيل: يدفعون بالحلم جهل الجاهل. عن يحيى بن سلام، و معناه يدفعون بالمدارة مع الناس أذاهم عن أنفسهم: وروي مثل ذلك عن أبي عبد الله (عليه السلام).

و في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و مسلم و الترمذي و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: **يا عمماه قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة، فقال: لو لا أن يعبرني قريش - يقولون ما حملة عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عليك فأنزل الله عليه: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}**.

أقول: وروي ما في معناه عن ابن عمر و ابن المسيب و غيرهما، و روايات أئمة أهل البيت (عليه السلام) مستفيضة على إيمانه و المنقول من أشعار مشحون بالإقرار على صدق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و حقية دينه، و هو الذي آوى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صغيرا و حماه بعد البعثة و قبل الهجرة فقد كان أثر مجاهدته وحده في حفظ نفسه الشريفة في العشر سنين قبل الهجرة يعدل أثر مجاهدة المهاجرين و الأنصار بأجمعهم في العشر سنين بعد الهجرة.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥٧ الى ٧٥]

{وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ}

لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾
وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ
كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا
وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَ أَهْلِهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَ مَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ
زِينَتُهَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَ فَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ
مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ
كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُمْ وَ رَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ
أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ
تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
 جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ فَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
 جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ
 فَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٨﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٨٠﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
 هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨١﴾

(بيان)

تذكر الآيات عذرا آخر مما اعتذر به مشركو مكة عن الإيمان بكتاب الله بعد ما ذكرت عذرهم السابق:
 {لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ} و رده و هو قولهم: إن آمانا بما جاء به كتابك من الهدى و هو دين التوحيد
 تخطفنا مشركو العرب من أرضنا بالقتل و السبي و النهب و سلب الأمن و السلام.
 فرده تعالى بأنا جعلنا لهم حرما آمانا يحترمه العرب و يبجي إليه ثمرات كل شيء فلا موجب لخوفهم
 من تخطفهم.

على أن تنعمهم بالأموال و الأولاد و بظر معيشتهم لا يضمن لهم الأمن من الهلاك حتى يرجوه على
 اتباع الهدى فكم من قرية بطرت معيشتها أهلكتها الله و استأصلها و ورثها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم
 إلا قليلا.

على أن الذي يؤثرونه على اتباع الهدى إنما هو متاع الحياة الدنيا العاجلة و لا يختاره عاقل على الحياة الآخرة الخالدة التي عند الله سبحانه.

على أن الخلق و الأمر لله فإذا اختار شيئاً و أمر به فليس لأحد أن يخالفه إلى ما يشتهي لنفسه فيختار ما يميل إليه طبعه ثم استشهد تعالى بقصة قارون و خسفه به و بداره الأرض.

قوله تعالى: **{ وَ قَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا }** إلى آخر الآية. التخطف الاختلاس بسرعة، و قيل الخطف و التخطف الاستلاب من كل وجه، و كان تخطفهم من أرضهم استعارة أريد به القتل و السبي و نهب الأموال كأنهم و ما يتعلق بهم من أهل و مال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم، و المراد بالأرض أرض مكة و الحرم بدليل قوله بعد: **{ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا }** و القائل بعض مشركي مكة.

و الجملة مسوقة للاعتذار عن الإيمان بأنهم إن آمنوا تخطفهم العرب من أرضهم أرض مكة لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم و رفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقية أصل الدعوة و أن الكتاب بما يشتمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله و الإيمان به، و لهذا عبر بقوله: **{ إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ }** و لم يقل: إن نتبع كتابك أو دينك أو ما يقرب من ذلك.

و قوله: **{ أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا }** قيل: التمكين مضمن معنى الجعل و المعنى أ و لم نجعل لهم حرماً آمناً ممكنين إياهم، و قيل: حرماً منصوباً على الظرفية و المعنى: أ و لم نمكن لهم في حرماً، و **{ آمناً }** صفة **{ حَرَمًا }** أي حرماً ذا أمن، و عد الحرم ذا أمن و المتلبس بالأمن أهله من المجاز في النسبة، و الجملة معطوفة على محذوف و التقدير أ و لم نعصمهم و نجعل لهم حرماً آمناً ممكنين إياهم.

و هذا جواب أول منه تعالى لقولهم: **{ إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا }** و محصله: أنا مكناهم في أرض جعلناها حرماً ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم أن يتخطفوا منها أن آمنوا.

و قوله: **{ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ }** الجباية الجمع، و الكل للتكثير لا للعموم لعدم إرادة العموم قطعاً، و المعنى: يجمع إلى الحرم ثمرات كثير من الأشياء، و الجملة

صفة لحرما جيء بها لما عسى أن يتوهم أنهم يتضررون إن آمنوا بانقطاع الميرة.

وقوله: **{رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا}** مفعول مطلق أو حال من ثمرات، وقوله: **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** استدراك عن جميع ما تقدم أي إنا نحن حفظناهم في أمن ورزقناهم من كل الثمرات لكن أكثرهم جاهلون بذلك فيحسبون أن الذي يحفظهم من تخطف العرب هو شركهم وعبادتهم الأصنام.

وقوله تعالى: **{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا}** إلى آخر الآية البطر الطغيان عند النعمة، و**{مَعِيشَتَهَا}** منصوب بنزع الخافض أي وكم أهلكتنا من قرية طغت في معيشتها.

وقوله: **{فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا}** أي إن مساكنهم الخربة الخاوية على عروشها مشهودة لكم نصب أعينكم باقية على خرابها لم تعمر ولم تسكن بعد هلاكهم إلا قليلا منها.

وبذلك يظهر أن الأنسب كون **{إِلَّا قَلِيلًا}** استثناء من **{مَسَاكِينُهُمْ}** لا من قوله: **{مِنْ بَعْدِهِمْ}** بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم في الأسفار.

وقوله: **{وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}** حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم، و في الجملة أعني قوله: **{كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}** عناية لطيفة فإنه تعالى هو المالك لكل شيء ملكا حقيقيا مطلقا فهو المالك لمساكنهم وقد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم بإهلاكهم وبقيت بعدهم لا مالك لها إلا هو فسمى نفسه وارثا لهم بعناية أنه الباقي بعدهم وهو المالك لما كان بأيديهم كان ملكهم الاعتباري انتقل إليه ولا انتقال هناك بالحقيقة وإنما ظهر ملكه الحقيقي بزوال ملكهم الاعتباري.

والآية جواب ثان منه تعالى لقولهم: **{إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا}** ومحصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا يضمن لكم البقاء ولا يحفظ لكم أرضكم والتنعم فيها كما تشاءون فكم من قرية بالغة في التنعم ذات أشر واطر أهلكت أهلها وبقيت مساكنهم خالية غير مسكونة لا وارث لها إلا الله.

قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا}** أم القرى هي أصلها و كبريتها التي ترجع إليها و في الآية بيان السنة الإلهية في عذاب القرى بالاستئصال و هو أن عذاب الاستئصال لا يقع منه تعالى إلا بعد إتمام الحجّة عليهم بإرسال رسول يتلو عليهم آيات الله، و إلا بعد كون المعذنين ظالمين بالكفر بآيات الله و تكذيب رسوله.

و في تعقيب الآية السابقة بهذه الآية الشارحة لسنته تعالى في إهلاك القرى تخويف لأهل مكة المشركين بالإيماء إلى أنهم لو أصروا على كفرهم كانوا في معرض نزول العذاب لأن الله قد بعث في أم قراهم و هي مكة رسولا يتلو عليهم آياته و هم مع ذلك ظالمون بتكذيب رسولهم.

و بذلك يظهر النكتة في الالتفات من التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله: **{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ}** فإن في الإيماء إلى حصول شرائط العذاب فيهم لو كذبوا النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) تقوية لنفسه و تأكيداً لحجته، و أما العدول بعده إلى سياق التكلم بالغير في قوله: **{وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ}** فهو رجوع إلى السياق السابق بعد قضاء الوطر.

قوله تعالى: **{وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** إنح الإيتاء: الإعطاء و **{مِنْ شَيْءٍ}** بيان لما لإفادة العموم أي كل شيء أوتيتموه، و المتاع ما يمتنع به و الزينة ما ينضم إلى الشيء ليفيده جمالا و حسنا، و الحياة الدنيا الحياة المؤجلة المقطوعة التي هي أقرب الحياتين منا و تقابلها الحياة الآخرة التي هي خالدة مؤبدة، و المراد بما عند الله الحياة الآخرة السعيدة التي عند الله و جواره و لذا عد خيرا و أبقى.

و المعنى: أن جميع النعم الدنيوية التي أعطاكم الله إياها متاع و زينة زينت بها هذه الحياة الدنيا التي هي أقرب الحياتين منكم و هي بائدة فانية و ما عند الله من ثوابه في الدار الآخرة المترتب على اتباع الهدى و الإيمان بآيات الله خير و أبقى فينبغي أن تؤثره على متاع الدنيا و زينتها أ فلا تعقلون.

و الآية جواب ثالث عن قولهم: **{إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا}** محصله لنسلم أنكم إن اتبعتم الهدى تخطفكم العرب من أرضكم لكن الذي تفقدونه هو متاع الحياة الدنيا و زينتها الفانية فما بالكم تؤثرونه على ما عند الله من ثواب اتباع

الهدى وسعادة الحياة الآخرة وهي خير وأبقى.

قوله تعالى: **{أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}** (الآية) إلى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآية السابقة وهو أن إيثار اتباع الهدى أولى من تركه والتمتع بمتاع الحياة الدنيا بيان آخر فيه مقايسة حال من اتبع الهدى وما يلقاه من الوعد الحسن الذي وعده الله، من حال من لم يتبعه واقتصر على التمتع من متاع الحياة الدنيا وسيستقبله يوم القيامة الإحضار وتبري أهله منه وعدم استجابته لدعوته ومشاهدة العذاب والسؤال عن إجابته الرسل.

فقوله: **{أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ}** الاستفهام إنكاري، والوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفرة والجنة كما قال تعالى: **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}**: المائدة: ٩، ولا يكذب وعده تعالى قال: **{أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}**: يونس: ٥٥.

وقوله: **{كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** أي وهو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتع بمتاعها، والدليل على هذا التقييد المقابلة بين الوعد والتمتع.

وقوله: **{ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}** أي للعذاب، أو للسؤال والمؤاخظة و**{ثُمَّ}** للترتيب الكلامي وإتيان الجملة اسمية كما فيما يقابلها من قوله: **{فَهُوَ لَاقِيهِ}** للدلالة على التحقق.

قوله تعالى: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}** الشركاء هم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا وكونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون إليهم بعض ما هو من شئونه تعالى كالعبادة والتدبير، وفي قوله: **{يُنَادِيهِمْ}** إشارة إلى بعدهم وخذلانهم يومئذ.

قوله تعالى: **{قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا}** الذين يرونهم شركاء لله سبحانه صنفان صنف منهم عباد الله مكرمون كالملائكة المقربين وعيسى بن مريم (عليه السلام)، وصنف منهم كعتاة الجن ومدعي الألوهية من الإنس كفرعون ونمرود وغيرهما وقد ألحق الله سبحانه بهم كل مطاع في باطل

كإبليس وقرناء الشياطين وأمة الضلال كما قال: **{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ}** إلى أن قال **{وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا}**: يس: ٦٢، و قال: **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}** الجاثية: ٢٣، و قال: **{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}**: التوبة: ٣١.

و الذين يشير إليهم قوله: **{قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ}** هم من الصنف الثاني بدليل ذكرهم إغواءهم و تبريهم من عبادتهم و هؤلاء المشركون و إن كانوا أنفسهم أيضا ممن حق عليهم القول كما يشير إليه قوله: **{حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}**: الم السجدة: ١٣، و لكن المراد بهم في الآية المبحوث عنها المتبعون منهم الذين ينتهي إليهم الشرك و الضلال.

و إيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسئولين أشاروا إليهم لعله للإشارة إلى أنهم ضلوا عنهم في هذا الموقف كما في قوله تعالى: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ}** حم السجدة: ٤٨.

و قوله: **{رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا}** أي هؤلاء يشيرون إلى المشركين هم الذين أغويانهم و الجملة توطئة للجملة التالية.

و قوله: **{أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا}** أي كانت غوايتهم باغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنا غوينا باختيارنا من غير إلقاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير إلقاء، و الدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن إبليس يومئذ إذ قال: **{وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَ لَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ}**: إبراهيم: ٢٢ و قال حاكيا لتساؤل الظالمين و قرنائهم: **{وَ أَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ}**: الصافات: ٣٢ أي ما كان ليصل إليكم منا و نحن غاؤون غير الغواية.

و من هنا يظهر أن لقولهم: **{أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا}** معنى آخر، و هو أنهم اكتسبوا نظير الوصف الذي كان فينا غير أننا نتبرأ منهم حيث لم نلجئهم إلى الغواية ما كانوا يعبدوننا بإلحاء.

وقوله: **{تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ}** تبر منهم مطلقا حيث لم يكن لهم أن يلجئوهم ويسلبوا منهم الاختيار، وقوله **{مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ}** أي بإلجاء منا، أو لتبرينا من أعمالهم فإن من تبرأ من عمل لم ينتسب إليه وإلى هذا المعنى يثول قوله تعالى في مواضع من كلامه في وصف هذا الموقف: **{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}**: الأنعام: ٢٤ **{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ}**: حم السجدة: ٤٨ **{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ}**: يونس: ٢٨ إلى غير ذلك من الآيات فافهم.

وقيل: المعنى تبرأنا إليك من أعمالهم ما كانوا إيانا يعبدون بل كانوا يعبدون أهواءهم أو كانوا يعبدون الشياطين. ولا يخلو من سخافة.

ولكون كل من قوله: **{تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ}** **{مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ}** في معنى قوله: **{أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا}** جيء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: **{وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}** المراد بشركائهم الآلهة التي كانوا شركاء لله بزعمهم ولذا أضافهم إليهم. والمراد بدعوتهم دعوتهم إياهم لينصروهم ويدفعوا عنهم العذاب ولذا قال: **{وَرَأُوا الْعَذَابَ}** بعد قوله: **{فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ}**.

وقوله: **{لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}** قيل: جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه و التقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أي اعتقدوا أن العذاب حق، ويمكن أن يكون لو للتمني أي ليتهم كانوا يهتدون.

قوله تعالى: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}** معطوف على قوله السابق: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ}** إلخ، سئلوا أولا: عن شركائهم وأمروا أن يستنصروهم، وثانيا: عن جوابهم للمرسلين إليهم من عند الله.

والمعنى: ما ذا قلتم في جواب من أرسل إليكم من رسل الله فدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح؟

قوله تعالى: **{فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ}** العمى استعارة عن

جعل الإنسان بحيث لا يهتدي إلى خبر، و كان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى إليهم لا إلى الأنباء لكن عكس الأمر فقيل: **{فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ}** للدلالة على أخذهم من كل جانب و سد جميع الطرق و تقطع الأسباب بهم كما قال: **{وَوَقَّظَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ}**: البقرة: ١٦٦ فسقوط الأسباب عن التأثير يومئذ لا تهتدي إليهم الأخبار و لا يجدون شيئاً يعتذرون به للتخلص من العذاب.

و قوله: **{فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ}** تفريع على عمى الأنباء من قبيل تفرع بعض أفراد العام عليه أي لا يسأل بعضهم بعضاً ليعدوا به عذراً يعتذرون به عن تكذيبهم الرسل و ردهم الدعوة.

و قد فسر صدر الآية و ذيلها بتفاسير كثيرة مختلفة لا جدوى في التعرض لها فرأينا الصصح عنها أولى.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ}** أي هذه حال من كفر و لم يرجع إلى الله سبحانه فأما من رجع و آمن و عمل صالحاً فمن المرجو أن يكون من المفلحين، و عسى - كما قيل - للتحقيق على عادة الكرام أو للترجي من قبل التائب، و المعنى: فليتوقع الفلاح.

قوله تعالى: **{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** الخيرة بمعنى التخير كالطيرة بمعنى التطير.

و الآية جواب رابع عن قولهم: **{إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفْ مِنْ أَرْضِنَا}** و الذي يتضمنه حجة قاطعة.

بيان ذلك: أن الخلق و هو الصنع و الإيجاد ينتهي إليه تعالى كما قال: **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}**: الزمر: ٦٢ فلا مؤثر في الوجود بحقيقة معنى التأثير غيره تعالى فلا شيء هناك يلجئه تعالى على فعل من الأفعال فإن هذا الشيء المفروض إما مخلوق له منته في وجوده إليه فوجوده و آثار وجوده ينتهي إليه تعالى و لا معنى لتأثير الشيء و لا لتأثير أثره في نفسه و إما غير مخلوق له و لا منته في وجوده إليه يؤثر فيه بالإلحاء و القهر و لا مؤثر في الوجود غيره و لا أن هناك شيئاً لا ينتهي في وجوده إليه تعالى فلا يعطيه شيء أثراً و لا يمنعه شيء من أثر كما قال: **{وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَكُمْ لَمْ يَعْزِبْ لِحُكْمِهِ}**: الرعد: ٤١ و قال: **{وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ}**: يوسف: ٢١.

وإذ لا قاهر يقهره على فعل ولا مانع يمنعه عن فعل فهو مختار بحقيقة معنى الاختيار هذا بحسب التكوين والتشريع يتبعه فإن حقيقة التشريع هي أنه فطر الناس على فطرة لا تستقيم إلا بإتيان أمور هي الواجبات وما في حكمها وترك أمور هي المحرمات وما في حكمها فما ينتفع به الإنسان في كماله وسعادته هو الذي أمر به وندب إليه وما يتضرر به هو الذي نهى عنه وحذر منه.

فله تعالى أن يختار في مرحلة التشريع من الأحكام والقوانين ما يشاء كما أن له أن يختار في مرحلة التكوين من الخلق والتدبير ما يشاء، وهذا معنى قوله: **{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}** وقد أطلق إطلاقاً.

والظاهر أن قوله: **{يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}** إشارة إلى اختياره التكويني فإن معنى إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شيء ولا يمنعه شيء عما يشاءه وبعبارة أخرى لا يمتنع عن مشيئته شيء لا بنفسه ولا بمانع يمنع وهذا هو الاختيار بحقيقة معناه، وقوله: **{وَيَخْتَارُ}** إشارة إلى اختياره التشريعي الاعتباري ويكون عطفه على قوله: **{يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}** من عطف المسبب على سببه لكون التشريع والاعتبار متفرعا على التكوين والحقيقة.

ويمكن حمل قوله: **{يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}** على الاختيار التكويني وقوله: **{وَيَخْتَارُ}** على الأعم من الحقيقة والاعتبار لكن الوجه السابق أوجه، ومن الدليل عليه كون المنفي في قوله الآتي: **{مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}** هو الاختيار التشريعي الاعتباري، والاختيار المثبت في قوله **{وَيَخْتَارُ}** يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعي الاعتباري.

ثم لا ريب في أن الإنسان له اختيار تكويني بالنسبة إلى الأفعال الصادرة عنه بالعلم والإرادة وإن لم يكن اختياراً مطلقاً فإن للأسباب والعلل الخارجية دخلاً في أفعاله إذ أكله لقمة من الطعام مثلاً متوقف على تحقق مادة الطعام خارجاً وقابليته وملائمته وقربه منه ومساعدة أدوات الأخذ والقبض والالتقام والمضغ والبلع وغير ذلك مما لا يحصى. فصدور الفعل الاختياري عنه مشروط بموافقة الأسباب الخارجية الداخلية في تحقق فعله، والله سبحانه في رأس تلك الأسباب جميعاً وإليه ينتهي الكل وهو الذي خلق الإنسان منعوتاً بنعت الاختيار وأعطاه خيrote كما أعطاه خلقه.

ثم إن الإنسان يرى بالطبع لنفسه اختيارا تشريعا اعتباريا فيما يشاؤه من فعل أو ترك بحذاء اختياره التكويني فله أن يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء من غير أن يكون لأحد من بني نوعه أن يحمله على شيء أو يمنع عن شيء لكونهم أمثالا له لا يزيدون عليه بشيء في معنى الإنسانية ولا يملكون منه شيئا، وهذا هو المراد بكون الإنسان حرا بالطبع.

فالإنسان مختار في نفسه حر بالطبع إلا أن يملك غيره من نفسه شيئا فيسلب بنفسه عن نفسه الحرية كما أن الإنسان الاجتماعي يسلب عن نفسه الحرية بالنسبة إلى موارد السنن والقوانين الجارية في مجتمعة بدخوله في المجتمع وإمضائه ما يجري فيه من سنن وقوانين سواء كانت دينية أو اجتماعية، وكما أن المتقاتلين يملك كل منهما الآخر من نفسه ما يغلب عليه فللغالب منهما أن يفعل بأسيره ما يشاء، وكما أن الأجير إذا ابتاع عمله واجر نفسه فليس بحر في عمله إذ المملوكية لا تجامع الحرية.

فالإنسان بالنسبة إلى سائر بني نوعه حر في عمله مختار في فعله إلا أن يسلب باختياره منه شيئا من اختياره فيملك غيره، والله سبحانه يملك الإنسان في نفسه وفي فعله الصادر منه ملكا مطلقا بالملك التكويني وبالملك الوضعي الاعتباري فلا خيرة له ولا حرية بالنسبة إلى ما يريده منه تشريعا بأمر أو نهي تشريعيين كما لا خيرة ولا حرية له بالنسبة إلى ما يشاؤه بمشيئته التكوينية.

وهذا هو المراد بقوله: **{مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}** أي لا اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئا من فعل أو ترك حتى يختاروا لأنفسهم ما يشاءون وإن خالف ما اختاره الله والآية قريبة المعنى من قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}**: الأحزاب: ٣٦ وللقوم في تفسير الآية أقاويل مختلفة غير مجدية أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع إلى المطولات.

وقوله: **{سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}** أي عن شركهم باختيارهم أصناما آلهة يعبدونها من دون الله.

وهاهنا معنى آخر أدق أي تنزهه تعالى عن شركهم بادعاء أن لهم خيرة بالنسبة إلى ما يختاره تعالى بقبوله أو رده فإن الخيرة بهذا المعنى لا تتم إلا بدعوى الاستقلال في

الوجود والاستغناء عنه تعالى ولا تتم إلا مع الاشتراك معه تعالى في صفة الألوهية.

وفي قوله: **{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ}** التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة والنكتة فيه تأييد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتقويته وتطييب نفسه بإضافة صفة الرب إليه فإن معناه أن ما أرسله به من الحكم ماض غير مردود فلا خيرة لهم في قبوله ورده، ولأنهم لا يقبلون ربوبيته.

وفي قوله: **{سُبْحَانَ اللَّهِ}** وضع الظاهر موضع المضمرة والنكتة فيه إرجاع الأمر إلى الذات المتعالية التي هي المبدأ للتنزه والتعالي عن كل ما لا يليق بساحة قدسه فإنه تعالى يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقص لأنه هو الله عز اسمه.

قوله تعالى: **{وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ}** الإكثار الإخفاء والإعلان الإظهار، و لكون الصدر يعد مخزناً للأسرار نسب الإكثار إلى الصدور والإعلان إليهم أنفسهم. و لعل تعقيب الآية السابقة بهذه الآية للإشارة إلى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لعله بما في ظاهريهم وباطنيهم من أوساخ الشرك والمعصية فطهرهم بذلك بحكمته.

قوله تعالى: **{وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** ظاهر السياق أن الضمير في صدر الآية راجع إلى **{رَبُّكَ}** في الآية السابقة، والظاهر على هذا أن اللام في اسم الجلالة للتلميح إلى معنى الوصف، وقوله: **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** تأكيد للحصر المستفاد من قوله: **{هُوَ اللَّهُ}** كأنه قيل: وهو الإله المتصف وحده بالألوهية لا إله إلا هو.

و على ذلك فالآية كالمتمم لبيان الآية السابقة كأنه قيل: هو سبحانه مختار له أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده، وهو يعلم ظاهريهم وباطنيهم فله أن يقضي عليهم أن يعبدوه وحده وهو الإله المستحق للعبادة وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده.

و يكون ما في ذيل الآية من قوله: **{لَهُ الْحَمْدُ}** إنح، وجوها ثلاثة توجه كونه تعالى معبودا مستحقا للعبادة وحده.

أما قوله: **{لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ}** فلأن كل كمال موجود في الدنيا والآخرة نعمة نازلة منه تعالى يستحق بها جميل الثناء، وكل جميل من هذه النعم

الموهوبة مترشحة من كمال ذاتي من صفاته الذاتية يستحق بها الثناء فله كل الثناء ولا يستقل شيء غيره بشيء من الثناء يثنى عليه به إلا وينتهي إليه و العبادة ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعبادة وحده. و أما قوله: **{وَلَهُ الْحُكْمُ}** فلأنه سبحانه هو المالك على الإطلاق لا يملك غيره إلا ما ملكه إياه و هو المالك لما ملكه و هو سبحانه مالك في مرحلة التشريع و الاعتبار كما أنه مالك في مرحلة التكوين و الحقيقة، و من آثار ملكه أن يقضي على عبيده و مملوكيه أن لا يعبدوا إلا إياه.

و أما قوله: **{وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ}** فلأن الرجوع للحساب و الجزاء و إذ كان هو المرجع فهو المحاسب المجازي و إذ كان هو المحاسب المجازي وحده فهو الذي يجب أن يعبد وحده و له دين يجب أن يتعبد به وحده.

قوله تعالى: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** إلى آخر الآية، السرمد على فعلل بمعنى الدائم، و قيل: هو من السرد و الميم زائدة و معناه المتتابع المطرد، و تقييده بيوم القيامة إذ لا ليل بعد يوم القيامة.

و قوله: **{مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ}** أي من الإله الذي ينقض حكمه تعالى و يأتيكم بضياء تستضيئون به و تسعون في طلب المعاش، هذا ما يشهد به السياق، و يجري نظيره في قوله الآتي: **{مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ}** إلخ.

و بذلك يندفع ما استشكل على الآيتين من أنه لو فرض تحقق جعل الليل سرمدًا إلى يوم القيامة لم يتصور معه الإتيان بضياء أصلاً لأن الذي يأتي به إما هو الله تعالى و إما هو غيره أما غيره فعجزه عن ذلك ظاهر، و أما الله تعالى فإتيانه به يستلزم اجتماع الليل و النهار و هو محال و المحال لا يتعلق به القدرة و لا الإرادة، و كذا الكلام في جانب النهار.

و ربما أجيب عنه بأن المراد بقوله: **{إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ}** إن أراد الله أن يجعل عليكم. و هو كما ترى.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال: من إله غير الله يأتيكم بنهار، على ما يقتضيه سياق المقابلة بين الليل و النهار في الكلام لكن العدول إلى ذكر الضياء بدل النهار من قبيل

الإلزام في الحجّة بأهون ما يفرض و أسره ليظهر بطلان مدعى الخصم أتم الظهور كأنه قيل: لو كان غيره تعالى إله يدبر أمر العالم فإن جعل الله الليل سرمداً فليقدر أن يأتي بالنهار، تنزلنا عن ذلك فليقدر أن يأتي بضياء ما تستضيئون به لكن لا قدرة لشيء على ذلك إن القدرة كلها لله سبحانه.

و لا يجري نظير هذا الوجه في الآية التالية في الليل حتى يصح أن يقال مثلاً: من إله غير الله يأتيكم بظلمة لأن المأتي به إن كان ظلمة ما لم تكف للسكن وإن كان ظلمة ممتدة كانت هي الليل.

و تنكير **{بِضْيَاءٍ}** يؤيد ما ذكر من الوجه، و قد أوردوا وجوها أخرى في ذلك لا تخلو من تعسف.

و قوله: **{أَفَلَا تَسْمَعُونَ}** أي سمع تفهم و تفكر حتى تتفكروا ففهموا أن لا إله غيره تعالى.

قوله تعالى: **{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ}** أي تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعي للعاش.

و قوله: **{أَفَلَا تُبْصِرُونَ}** أي إِبصار تفهم و تذكر و إذ لم يبصروا و لم يسمعوا فهم عمي صم، و من اللطيف تذييل الآيتين بقوله: **{أَفَلَا تَسْمَعُونَ}** **{أَفَلَا تُبْصِرُونَ}** و لعل آية النهار خص بالإبصار لمناسبة ضوء النهار الإبصار و بقي السمع لآية الليل و هو لا يخلو من مناسبة معه.

قوله تعالى: **{وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** (الآية) بمنزلة نتيجة الحجّة المذكورة في الآيتين السابقتين سيقت بعد إبطال دعوى الخصم في صورة الإخبار الابتدائي لثبوته من غير معارض.

و قوله: **{لِتَسْكُنُوا فِيهِ}** اللام للتعليل و الضمير لليل، أي جعل لكم الليل لتستريحوا فيه و قوله: **{لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ}** أي و جعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذي هو عطيته فرجوع **{لِتَسْكُنُوا}** و **{لِتَبْتَغُوا}** إلى الليل و النهار بطريق اللف و النشر المرتب، و قوله: **{وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** راجع إليهما جميعاً.

وقوله: **{وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ}** في معنى قولنا: جعل لكم و ذلك رحمة منه و فيه إشارة إلى أن التكوين كالسكون و الابتغاء و التشريع و هو هدايتهم إلى الشكر من آثار صفة رحمته تعالى فافهم ذلك.

قوله تعالى: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}** تقدم تفسيره و قد كررت الآية لحاجة مضمون الآية التالية إليها.

قوله تعالى: **{وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}** إلى آخر الآية، إشارة إلى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة، و المراد بالشهيد شهيد الأعمال كما تقدمت الإشارة إليه مرارا و لا ظهور للآية في كونه هو النبي المبعوث إلى الأمة نظرا إلى أفراد الشهيد و ذكر الأمة إذ الأمة هي الجماعة من الناس و لا ظهور و لا نصوصية له في الجماعة الذين أرسل إليهم نبي و إن كانت من مصاديقها.

وقوله: **{فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}** أي طالبناهم بالحجة القاطعة على ما زعموا أن الله شركاء.

وقوله: **{فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}** أي غاب عنهم زعمهم الباطل أن الله سبحانه شركاء فعلوا عند ذلك أن الحق في الألوهية لله وحده فالمراد بالضلال الغيبة على طريق الاستعارة. كذا فسروه، ففي الكلام تقديم وتأخير و الأصل فضل عنهم ما كانوا يفترون فعلوا أن الحق لله.

و على هذا فقوله: **{أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ}** نظير ما يقال في القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا في حق يدعيه كل لنفسه: أن الحق لفلان لا لفلان كأنه تعالى يخاصم المشركين حيث يدعون أن الألوهية بمعنى العبودية حق لشركائهم فيدعي تعالى أنه حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيفضل عنهم البرهان فيعملون عندئذ أن هذا الحق لله فالألوهية حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقا لغيره تعالى فهو حق له.

و هذا وجه بظاهره ووجه لا بأس به لكن الحقيقة التي يعطيها كلامه تعالى أن من خاصة يوم القيامة أن الحق يتمحض فيه للظهور ظهورا مشهودا لا ستر عليه فليرتفع به كل باطل يلتبس به الأمر و يتشبه بالحق، و لازمه أن يظهر أمر الألوهية ظهورا لا ستر عليه فيرتفع به اقتراء الشركاء ارتفاعا مترتبا عليه لا أن يفتقد الدليل على الشركاء

فيستنتج منه توحيده تعالى بالألوهية على سبيل الاحتجاجات الفكرية فافهم ذلك.

و بذلك يندفع أولا ما يرد على الوجه السابق أن المستفاد من كلامه تعالى أنهم لا حجة عقلية لهم على مدعاهم ولا موجب على هذا لتأخر علمهم أن الحق لله إلى يوم القيامة، ويرتفع ثانيا حديث التقديم والتأخير المذكور الذي لا نكتة له ظاهرا إلا رعاية السجع.

و من الممكن أن يكون **{الْحَقُّ}** في قوله: **{فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ}** مصدرا فيرجع معنى الجملة إلى معنى قوله: **{وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}**: النور: ٢٥ فكون الحق لله هو كونه تعالى حقا إن أريد به الحق في ذاته أو كونه منتها إليه قائما به إن أريد به غيره، كما قال تعالى: **{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}**: آل عمران: ٦٠ ولم يقل: الحق مع ربك.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَقَالُوا إِن نَّبِّيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْتَخِطُ مِنْ أَرْضِنَا}** (الآية)، قال: نزلت في قريش حين دعاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الإسلام والهجرة وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا فقال الله عز وجل: **{أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}**.

أقول: وروي هذا المعنى في كشف المحجة، وروضة الواعظين، للمفيد ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

وفي الدر المنثور أخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عباس: أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال: **{إِن نَّبِّيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْتَخِطُ مِنْ أَرْضِنَا}**.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}** (الآية)، قال: يختار الله عز وجل الإمام وليس لهم أن يختاروا.

أقول: وهو من الجري مبني على وجوب نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالى كالنبي، وقد مر تفصيل الكلام فيه.

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام): في قوله تعالى: { وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا }
يقول: من هذه الأمة إمامها.

أقول: وهو من الجري.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧٦ الى ٨٤]

{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ
بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَى فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ
الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي
الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ
﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ
لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً وَ
لا يُلْقَاهَا إِلا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّه
لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

(بيان)

قصة قارون من بني إسرائيل ذكرها الله سبحانه بعد ما حكى قول المشركين: **{إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ
نُتَخِطَفُ مِنْ أَرْضِنَا}** وأجاب عنه بما مر من الأجوبة ليعتبروا بها فقد كانت حاله تمثل حالهم ثم أداه الكفر
بالله إلى ما أدى من سوء العاقبة فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابه، فقد آتاه الله من الكنوز ما إن
مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة فظن أنه هو الذي جمعه بعلمه و جودة فكره و حسن تدبيره فأمن العذاب
الإلهي و أثر الحياة الدنيا على الآخرة و بغى الفساد في الأرض فحسف الله به و بداره الأرض فلما كان له
من فئة ينصرونه من دون الله و ما كان من المنتصرين.

قوله تعالى: **{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ
أُولَى الْقُوَّةِ}** قال في المجمع: البغي طلب العتو بغير حق. قال: و المفاتيح جمع مفتاح و المفاتيح جمع مفتاح و
معناها واحد و هو عبارة عما يفتح به الأغلاق. قال: و ناء بحمله ينوء نوءا إذا نهض به مع ثقله عليه. انتهى.
و قال غيره: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله و هو الأوفق للآية.
و قال في المجمع أيضا: العصبة الجماعة الملتف بعضها ببعض. و قال: و اختلف في معنى العصبة فقيل:
ما بين عشرة إلى خمسة عشر عن مجاهد، و قيل: ما بين عشرة

إلى أربعين عن قتادة، وقيل أربعون رجلا عن أبي صالح، وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة عن ابن عباس، وقيل: إنهم الجماعة يتعصب بعضهم لبعض. انتهى. ويزيف غير القولين الأخيرين قول إخوة يوسف: **{وَنَحْنُ عُصْبَةٌ}**: يوسف: ٨ وهم تسعة نفر.

والمعنى: أن قارون كان من بني إسرائيل فطلب العتو عليهم بغير حق وأعطيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتثقل الجماعة ذوي القوة، وذكر جمع من المفسرين أن المراد بالمفتاح الخزان، وليس بذلك.

قوله تعالى: **{إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}** فسر الفرح بالبطر وهو لازم الفرح و السرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلو من تعلق شديد بالدنيا ينسي الآخرة ويورث البطر والأشر، ولذا قال تعالى: **{وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}**: الحديد: ٢٣.

ولذا أيضا علل النهي بقوله: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}**.

قوله تعالى: **{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ}** إلى آخر الآية أي واطلب فيما أعطاك الله من مال الدنيا تعمير الدار الآخرة بإنفاقه في سبيل الله ووضعه فيما فيه مرضاته تعالى.

وقوله: **{وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}** أي لا تترك ما قسم الله لك ورزقك من الدنيا ترك المنسي و اعمل فيه لآخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الذي يبقى له.

وقيل: معناه لا تنس أن نصيبك من الدنيا وقد أقبلت عليك شيء قليل مما أوتيت وهو ما تأكله و تشربه و تلبسه مثلا و الباقي فضل ستتركه لغيرك فخذ منها ما يكفيك و أحسن بالفضل و هذا وجه جيد. و هناك وجه آخر غير ملائمة للسياق.

وقوله: **{وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}** أي أنفقه لغيرك إحسانا كما آتاك الله إحسانا من غير أن تستحقه و تستوجه، و هذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله: **{وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}** على أول الوجهين السابقين و متممة له على الوجه الثاني.

و قوله: **{وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}** أي لا تطلب الفساد في الأرض بالاستعانة بما آتاك الله من مال و ما اكتسبت به من جاه و حشمة إن الله لا يحب المفسدين لبناء الحلقة على الصلاح و الإصلاح.

قوله تعالى: **{قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي}** جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه و نصحوه به و كان كلامهم مبنيًا على أن ما له من الثروة إنما آتاه الله إحسانًا إليه و فضلًا منه من غير استيجاب و استحقاق فيجب عليه أن يبتغي فيه الدار الآخرة و يحسن به إلى الناس و لا يفسد في الأرض بالاستعلاء و الاستكبار و البطر.

فأجاب بنفي كونه إنما أوتيته إحسانًا من غير استحقاق و دعوى أنه إنما أوتيته على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال و تدييره و ليس عند غيره ذلك، و إذا كان ذلك باستحقاق فقد استقل بملكه و له أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء و يستدره في أنواع التمتع و بسط السلطة و العلو و البلوغ إلى الآمال و الأمان.

و هذه المزعمة التي ابتلي بها قارون فأهلكته أعني زعمه أن الذي حصل له الكنوز و ساق إليه القوة و الجمع هو نبوغه العلمي في اكتساب العزة و قدرته النفسانية لا غير مزعومة عامة بين أبناء الدنيا لا يرى الواحد منهم فيما ساقه إليه التقدير و وافقته الأسباب الظاهرة من عزة عاجلة و قوة مستعارة إلا أن نفسه هي الفاعلة له و علمه هو السائق له إليه و خبرته هي الماسكة له لأجله.

و إلى عموم هذه المزعمة و ركون الإنسان إليها بالطبع يشير قوله تعالى: **{فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَاَنَا ثُمَّ إِذَا خَوْلَانَاهُ نِعْمَةً مِّثَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** الزمر: ٥٢، و قال: **{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ أَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا**

بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ}: المؤمن: ٨٣ و عرض الآيات على قصة قارون لا يبقى شكاً في أن المراد بالعلم في كلام ما قدمناه.

و في قوله: {إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} من غير إسناد الإيتاء إلى الله سبحانه كما في قول الناصحين له: {فِيْمَا آتَاكَ اللَّهُ} نوع إعراض عن ذكره تعالى وإزراء بساحة كبريائه.

و قوله: {أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا} استفهام تويخي و جواب عن قوله: {إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} بأيسر ما يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذي اقتنى به المال و هو يبقيه له و يمتعه منه هو علمه الذي عنده و هو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوة و أكثر جمعا، و كان ما له من القوة و الجمع عن علم عنده على زعمه، و قد أهلكه الله بجرمه، فلو كان العلم الذي يغتر و يتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتع منه و لم يكن بإيتاء الله فضلا و إحسانا لنجاهم من الهلاك و متعمهم من أموالهم و دافعوا بقوتهم و انتصروا بجمعهم.

و قوله: {وَ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} ظاهر السياق أن المراد به بيان السنة الإلهية في تعذيب المجرمين و إهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إهمالهم و الإصغاء إلى ما لفقوه من المعاذير أو هيئوه من التذلل و الإنابة ليرجو بذلك النجاة كما أن أولي الطول و القوة من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثم العذاب، و ربما صرف المجرم بما لفقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكن الله سبحانه لعلمه بحقيقة الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم و إنما يقضي عليهم قضاء فيأتهم عذاب غير مردود.

و الظاهر على هذا أن تكون الجملة من تمة التويخ السابق و يكون جوابا عن إسناده ثروته إلى علمه، و محصله أن المؤاخذة الإلهية ليست كمؤاخذة الناس حتى إذا لاموه أو نصحوه صرف عن نفسه ذلك بما لفقه من الجواب حتى ينتفع في ذلك بعلمه، بل هو سبحانه عليم شهيد لا يسأل المجرم عن ذنبه و إنما يؤاخذه بذنبه، و أيضا يؤاخذه بغتة و هو لا يشعر.

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية و لهم فيها أقاويل أخرى:

فقيل: المراد بالعلم في قوله: **{إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي}** علم التوراة فإنه كان أعلم بني إسرائيل بها.
وقيل: المراد علم الكيمياء و كان قد تعلمه من موسى و يوشع بن نون و كالب بن يوقنا و المراد بكون العلم عنده اختصاصه به دون سائر الناس و قد صنع به مقدارا كثيرا من الذهب.

وقيل: المراد بالعلم علم استخراج الكنوز و الدفائن و قد استخراج به كنوزا و دفائن كثيرة.
وقيل: المراد بالعلم علم الله تعالى و المعنى: أوتيته على علم من الله و تخصيص منه قصدي به، و معنى قوله: **{عِنْدِي}** هو كذلك في ظني و رأيي.

وقيل: العلم علم الله لكنه بمعنى المعلوم، و المعنى أوتيته على خير علمه الله تعالى عندي، و **{عَلَىٰ}** على جميع هذه الأقوال للاستعلاء و جوز أن تكون للتعليل.

وقيل: المراد بالسؤال في قوله: **{وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}** سؤال يوم القيامة و المنفي سؤال الاستعلام لأن الله أعلم بذنوبهم لا حاجة له إلى السؤال و الملائكة يعلمونها من صحائف أعمالهم و يعرفونهم بسيماهم و أما قوله تعالى: **{وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}**: الصفات: ٢٤ فهو سؤال تقرير و توييح لا سؤال استعلام، و يمكن أن يكون السؤال في الآيتين بمعنى واحد و النفي و الإثبات باعتبار اختلاف المواقف يوم القيامة فيسألون في موقف و لا يسألون في آخر فلا تناقض بين الآيتين.

وقيل: الضمير في قوله: **{عَن ذُنُوبِهِمْ}** لمن هو أشد و المراد بالمجرمين غيرهم و المعنى: لا يسأل عن ذنوب من أهل القرون السابقة غيرهم من المجرمين.
و هذه كلها وجوه من التفسير لا يلائمها السياق.

قوله تعالى: **{فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}** الحظ هو النصيب من السعادة و البخت.

وقوله: **{يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** أي يجعلونها الغاية المطلوبة في مساعيهم ليس لهم وراءها غاية فهم على جهل من الآخرة و ما أعد الله لعباده فيها من الثواب قال تعالى: **{فَأَعْرَضَ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ}**:

النجم: ٣٠ و لذلك عدوا ما أوتيهم قارون من المال سعادة عظيمة له من دون قيد و شرط.

قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}** إنخ، الويل الهلاك ويستعمل للدعاء بالهلاك و زجرا عما لا يرتضي، و هو في المقام زجرا عن التمني.

و القائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجهلة الذين تمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتي قارون و عدوه سعادة عظيمة على الإطلاق، و مرادهم أن ثواب الله خير لمن آمن و عمل صالحا مما أوتي قارون فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنوه.

و قوله: **{وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ}** التلقية التفهيم و التلقي التفهم و الأخذ، و الضمير على ما قالوا للكلمة المفهومة من السياق، و المعنى: و ما يفهم هذه الكلمة و هي قولهم: **{ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}** إلا الصابرون.

و قيل: الضمير للسيرة أو الطريقة و معنى تلقيها فهمها أو التوفيق للعمل بها.

و الصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد و على الطاعات و عن المعاصي، و وجه كونهم هم المتلقين لهذه الكلمة أو السيرة أو الطريقة أن التصديق بكون ثواب الآخرة خيرا من الحظ الدنيوي و هو لا ينفك عن الإيمان و العمل الصالح الملازمين لترك كثير من الأهواء و الحرمان عن كثير من المشتيات لا يتحقق إلا لمن له صفة الصبر على مرارة مخالفة الطبع و عصيان النفس الأمارة.

قوله تعالى: **{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ}** إلى آخر الآية، الضميران لقارون و الجملة متفرعة على بغيه.

و قوله: **{فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}** الفئة الجماعة يميل بعضهم إلى بعض، و في النصر و الانتصار معنى المنع و الامتناع، و محصل المعنى: فما كان له جماعة يمنعونه العذاب و ما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظن أن الذي يجلب إليه الخير و يدفع عنه الشر هو قوته و جمعه اللذان اكتسبهما بعلمه فلم يقه جمعه و لم تفده قوته من دون الله و بان أن الله سبحانه هو الذي آتاه ما آتاه.

فالفاء في قوله: **{فَمَا كَانَ}** لتفريع الجملة على قوله: **{فَخَسَفْنَا بِهِ}** إنخ، أي فظهر بخسفنا به و بداره الأرض بطلان ما كان يدعيه لنفسه من الاستحقاق و الاستغناء

عن الله سبحانه وأن الذي يجلب إليه الخير ويدفع عنه الشر هو قوته وجمعه وقد اكتسبهما بنبوغه العلمي.

قوله تعالى: **{وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانَنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ}** إِنْخ، ذكروا أن «وي» كلمة تندم وربما تستعمل للتعجب و كلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد وإن كان التندم أسبق إلى الذهن.

وقوله: **{وَيُكَانَنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ}** اعتراف منهم ببطلان ما كان يزعمه قارون وهم يصدقونه أن القوة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان في علمه وجودة تديره لا بفضل من الله سبحانه بل سعة الرزق وضيقة بمشية من الله.

والمقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشك والتردد لكنهم إنما استعملوا في كلامهم **{وَيُكَانَنَّ}** للدلالة على ابتداء ترددهم في قول قارون وقد قبلوه وصدقوه من قبل وهذه صنعة شائعة في الاستعمال.

والدليل على ذلك قولهم بعده: **{لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا}** على طريق الجزم والتحقيق.

وقوله: **{وَيُكَانَنَّ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}** تندم منهم ثانياً وانتزاع مما كان لازم تمنيتهم مكان قارون.

قوله تعالى: **{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}** (الآية) وما بعدها بمنزلة النتيجة المستخرجة من القصة.

وقوله: **{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ}** الإشارة إليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها وبهائها وعلو مكانتها وهو الشاهد على أن المراد بها الدار الآخرة السعيدة ولذا فسروها بالجنة.

وقوله: **{نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا}** أي نختصها بهم وإرادة العلو هو الاستعلاء والاستتبار على عباد الله وإرادة الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى فإن الله بنى شرائعه التي هي تكاليف للإنسان على مقتضيات فطرته وخلقته ولا تقتضي فطرته إلا ما يوافق النظام الأحسن الجاري في الحياة الإنسانية الأرضية فكل معصية تقضي إلى فساد في الأرض بلا واسطة أو بواسطة، قال تعالى: **{ظَهَرَ}**

الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ: الروم: ٤١.

و من هنا ظهر أن إرادة العلو من مصاديق إرادة الفساد وإنما أفردت و خصت بالذكر اعتناء بامرها، و محصل المعنى: تلك الدار الآخرة السعيدة تخصها بالذين لا يريدون فسادا في الأرض بالعلو على عباد الله و لا بأي معصية أخرى.

و الآية عامة يخصها قوله تعالى: **{إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}**: النساء: ٣١.

و قوله: **{وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}** أي العاقبة المحمودة الجميلة و هي الدار الآخرة السعيدة أو العاقبة السعيدة في الدنيا و الآخرة لكن سياق الآيتين يؤيد الأول.

قوله تعالى: **{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا}** أي لأنها تتضاعف له بفضل من الله، قال تعالى: **{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}**: الأنعام: ١٦٠.

قوله تعالى: **{وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** أي لا يزيدون على ما عملوا شيئا و فيه كمال العدل، كما أن في جزاء الحسنة بخير منها كمال الفضل.

و كان مقتضى الظاهر في قوله: **{فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا}** إلخ، الإضمار و لعل في وضع الموصول موضع الضمير إشارة إلى أن هذا الجزاء إنما هو لمن أكثر من اقتراف المعصية و أحاطت به الخطيئة كما يفيد جمع السيئات، و قوله: **{كَانُوا يَعْمَلُونَ}** الدال على الإصرار و الاستمرار، و أما من جاء بالسيئة و الحسنة فن المرجو أن يغفر الله له كما قال: **{وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**: التوبة: ١٠٢.

و ليعلم أن الملاك في الحسنة و السيئة على الأثر الحاصل منها عند الإنسان و بها تسمى الأعمال حسنة أو سيئة و عليها - لا على متن العمل الخارجي الذي هو نوع من الحركة - يثاب الإنسان أو يعاقب، قال تعالى: **{وَ إِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ}**: البقرة: ٢٨٤.

و به يظهر الجواب عما استشكل على إطلاق الآية بأن التوحيد حسنة و لا يعقل خير منه و أفضل، فالآية إما خاصة بغير الاعتقادات الحققة أو مخصصة بالتوحيد.

و ذلك أن الأثر الحاصل من التوحيد يمكن أن يفرض ما هو خير منه و إن لم يقبله التوحيد بحسب الاعتبار.

على أن التوحيد أيا ما فرض يقبل الشدة و الضعف و الزيادة و النقيصة و إذا ضعف عند الجزاء كما تقدم كان مضاعفه خيرا من غيره.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنف و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن ابن عباس: أن قارون كان من قوم موسى، قال: كان ابن عمه و كان يبتغي العلم حتى جمع علما فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى و حسده.

فقال له موسى (عليه السلام): إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبي فقال: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة و جاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل فترسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك. قالت نعم .

فجاء قارون إلى موسى (عليه السلام) قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا و أن تصلوا الرحم و كذا و كذا و قد أمرني في الزاني إذا زنى و قد أحصن أن يرجم. قالوا: و إن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنك قد زנית، قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى (عليه السلام): أنشدتك بالله إلا ما صدقت. قالت: أما إذا نشدتي فإنهم دعوني و جعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي و أنا أشهد أنك بريء و أنك رسول الله.

نفر موسى (عليه السلام) ساجدا يبكي فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض ففرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذهم فأخذتهم إلى أعناقهم - فجعلوا يقولون: يا

موسى يا موسى فقال: خذهم فغيبتهم فأوحى الله: يا موسى سألك عبادي و تضرعوا إليك فلم تجبهم فوعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم.

قال ابن عباس: و ذلك قوله تعالى: **{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ}** خسف به إلى الأرض السفلى.

أقول: و روي فيه أيضا عن عبد الرزاق و ابن أبي حاتم عن ابن نوفل الهاشمي القصة : لكن فيها أن المرأة أحضرت إلى مجلس قارون لتشهد عند الملائ من بني إسرائيل على موسى (عليه السلام) بالفجور و تشكوه إلى قارون فجاءت إليه و اعترفت عند الملائ بالحق فبلغ ذلك موسى (عليه السلام) فشكاه إلى ربه فسلطه الله عليه.

و روى القمي في تفسيره: في القصة أن موسى (عليه السلام) جاء إلى قارون و بلغه حكم الزكاة فاستهزأ به و أخرجه من داره فشكاه إلى ربه فسلطه الله عليه فحسب به و بداره الأرض، و الرواية موقوفة مشتملة على أمور منكرة و لذلك تركنا نقلها كما أن روايتي ابن عباس و ابن نوفل أيضا موقوفتان.

على أن رواية ابن عباس تقصص بغيه على موسى (عليه السلام) و الذي تقصه الآيات بغيه على بني إسرائيل، و تشير إلى أن العلم الذي عنده هو ما حصله بالتعلم و ظاهر الآية كما مر أنه العلم بطرق تحصيل الثروة و نحوها.

و قد سقت القصة في التوراة الحاضرة على نحو آخر ففي الإصحاح السادس عشر من سفر العدد: و أخذ قورح بن بصهار بن نهات بن لاوي و داثان و أيرام ابنا ألياب و أون بن فالت بنو رأوبين يقاومون موسى مع أناس من بني إسرائيل مائتين و خمسين رؤساء الجماعة مدعويين للاجتماع ذوي اسم. فاجتمعوا على موسى و هارون و قالوا لهما كفاكما. إن كل الجماعة بأسرها مقدسة و في وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب؟

فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلم قورح و جميع قومه قائلا: غدا يعلن الرب من هو له؟ و من المقدس؟ حتى يقربه إليه فالذي يختاره يقربه إليه. افعلوا هذا: خذوا لكم محابر قورح و كل جماعته و اجعلوا فيها نارا و ضعوا عليها بخورا أمام الرب غدا فالرجل الذي يختاره الرب هو المقدس. كفاكم يا بني لاوي.

ثم سيقت القصة و ذكر فيها حضورهم غدا و مجيئهم بالمحار و فيها النار و البخور و اجتماعهم على باب خيمة الاجتماع ثم قيل: انشقت الأرض التي تحتم و فتحت الأرض فاها و ابتلتهم و بيوتهم و كل من كان لقورح مع كل الأموال فنزلوا هم و كل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية فانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة، و كل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم، لأنهم قالوا: لعل الأرض تبتلعنا، و خرجت نار من عند الرب و أكلت المائتين و الخمسين رجلا الذين قربوا البخور. انتهى موضع الحاجة.

و في الجمع في قوله تعالى: **{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى}**: و هو ابن خالته: عن عطاء عن ابن عباس و هو المروي عن أبي عبد الله (عليه السلام).

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ}** (الآية)، قال: كان يحمل مفاتيح خزائنه العصابة أولوا القوة.

و في المعاني بإسناده عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر (عليه السلام) عن أبيه عن جده عن آبائه عن علي (عليه السلام): في قول الله عز و جل: **{وَلَا تَنَسَّ نِصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}** قال: **لا تنس صحتك و قوتك و فراغك و شبابك و نشاطك أن تطلب بها الآخرة.**

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ}** قال: في الثياب المصبغات يجرها بالأرض.

و في الجمع و روى زاذان عن أمير المؤمنين (عليه السلام): **أنه كان يمشي في الأسواق و هو وال يرشد الضال و يعين الضعيف و يمر بالبيع و البقال فيفتح عليه القرآن و يقرأ: {تِلْكَ الدَّارُ الَّتِي آخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} و يقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل و التواضع من الولاة و أهل القدرة من سائر الناس.**

و فيه روى سلام الأعرج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: **الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية {تِلْكَ الدَّارُ الَّتِي آخِرَةُ}** (الآية).

أقول: و عن السيد ابن طاووس في سعد السعود، أنه رواه عن الطبرسي هكذا: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحته.

و في الدر المنثور أخرج المحاملي و الديلمي عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): في الآية قال: **التجبر في الأرض و الأخذ بغير الحق.**

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٨٥ الى ٨٨]

{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَ مَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ أَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَ لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾}

(بيان)

الآيات خاتمة السورة و فيها وعد جميل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن الله سبحانه سيمن عليه برفع قدره و نفوذ كلمته و تقدم دينه و انبساط الأمن و السلام عليه و على المؤمنين به كما فعل ذلك بموسى و بني إسرائيل، و قد كانت قصة موسى و بني إسرائيل مسوقة في السورة لبيان ذلك.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} إلى آخر الآية الفرض على ما ذكره بمعنى الإيجاب فعنى {فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ} أي أوجب عليك العمل به أي بما فيه من الأحكام ففيه مجاز في النسبة. و أحسن منه قول بعضهم: إن المعنى أوجب عليك تلاوته و تبليغه و العمل به و ذلك لكونه أوفق لقوله: {لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} بما سيجيء من معناه.

و قوله: {لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} المعاد اسم مكان أو زمان من العود و قد اختلفت كلماتهم في تفسير هذا المعاد فقيل: هو مكة فالآية وعد له أن الله سيرده بعد هجرته

إلى مكة ثانياً، وقيل: هو الموت، وقيل: هو القيامة، وقيل: هو المحشر، وقيل هو المقام المحمود وهو موقف الشفاعة الكبرى، وقيل: هو الجنة، وقيل: هو بيت المقدس، وهو في الحقيقة وعد بمعراج ثان يعود فيه إلى بيت المقدس بعد ما كان دخله في المعراج الأول: وقيل: هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جل الأقوال السابقة أو كلها.

و الذي يعطيه التدبر في سياق آيات السورة هو أن تكون الآية تصريحاً بما كانت القصة المسرودة في أول السورة تلوح إليه ثم الآيات التالية لها تؤيده.

فإنه تعالى أورد قصة بني إسرائيل و موسى (عليه السلام) في أول السورة ففصل القول في أنه كيف من عليهم بالأمن والسلام والعزة والتمكن بعد ما كانوا أذلاء مستضعفين بأيدي آل فرعون يذبجون أبناءهم يستحيون نساءهم، وقد كانت القصة تدل بالالتزام و مطلع السورة يؤيده على وعد جميل للمؤمنين أن الله سبحانه سينجيهم مما هم عليه من الفتنة والشدة والعسرة و يظهر دينهم على الدين كله و يمكنهم في الأرض بعد ما كانوا لا سماء تظلمهم ولا أرض تقلمهم.

ثم ذكر بعد الفراغ من القصة أن من الواجب في الحكمة أن ينزل كتاباً يهدي الناس إلى الحق تذكراً و إتماماً للحجة ليتقوا بذلك من عذاب الله كما نزل على موسى بعد ما أهلك القرون الأولى و كما نزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و إن كذبوا به عنادا للحق و إثارة للدنيا على الآخرة.

و هذا السياق يرجي السامع أنه تعالى سيتعرض صريحاً لما أشار إليه في سرد القصة تلويحاً فإذا سمع قوله: **{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}** لم يلبث دون أن يفهم أنه هو الوعد الجميل الذي كان يترقبه و خاصة مع الابتداء بقوله: **{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ}** و قد قدم تنظير التوراة بالقرآن و قد كان ما قصه في إنجاء بني إسرائيل مقدمة لنزول التوراة حتى يكونوا بالأخذ بها و العمل بها أئمة و يكونوا هم الوارثين.

فمعنى الآية: إن الذي فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس و تبلغه و تعملوا به سيردك و يصيرك إلى محل تكون هذه الصيرورة منك إليه عوداً و يكون هو معاداً لك

كما فرض التوراة على موسى و رفع به قدره و قدر قومه، و من المعلوم أنه (صلى الله عليه وآله و سلم) كان بمكة على ما فيها من الشدة و الفتنة ثم هاجر منها ثم عاد إليها فاتحا مظفرا و ثبتت قواعد دينه و استحكمت أركان ملته و كسرت الأصنام و انهدم بنيان الشرك و المؤمنون هم الوارثون للأرض بعد ما كانوا أذلاء معذبين.

و في تنكير قوله: **{مَعَادٍ}** إشارة إلى عظمة قدر هذا العود و أنه لا يقاس إلى ما قبله من القطن بها و التاريخ يصدقه.

و قوله: **{قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}** يؤيد ما قدمنا من المعنى فإنه يحاذي قول موسى (عليه السلام) - لما كذبه و رموا آياته البينات بأنها سحر مفترى : **{رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ}** فأمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يقول للفراعنة من مشركي قومه لما كذبه و رموه بالسحر ما قال موسى لآل فرعون لما كذبه و رموه بالسحر للتشابه التام بين مبعثيهما و سير دعوتيهما كما يظهر من القصة و يظهر ذلك تمام الظهور بالتأمل في قوله تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا}**: المزمّل: ١٥.

و لعل الاكتفاء بالشرط الأول من قول موسى (عليه السلام) و السكوت عن الشرط الثاني أعني قوله: **{وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ}** لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدى حد الإشارة و الإيماء كما يستثم من سياق قوله: **{لَرَأَيْتَكَ إِلَىٰ مَعَادٍ}** أيضا حيث خص الخطاب بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و نكر معادا.

و كيف كان فالمراد بقوله: **{مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ}** النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) نفسه و بقوله: **{وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}** المشركون من قومه، و اختلاف سياق الجملتين حيث قيل في جانبه (صلى الله عليه وآله و سلم): **{مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ}** و في جانبهم: **{مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}** فقول بين ضلالهم و بين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم و اهتدائه لكون تكذيبهم متوجها بالطبع إلى ما جاء به لا إلى نفسه.

و قد ذكروا في قوله: **{أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ}** أن **{مَنْ}** منصوب بفعل مقدر يدل عليه **{أَعْلَمُ}** و التقدير يعلم من جاء به بناء على ما هو المشهور أن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به، و ذكر بعضهم أنه منصوب بأعلم و هو بمعنى عالم و لا دليل عليه،

و ما أذكر قائلًا بأنه منصوب بنزع الخافض وإن لم يظهر فيه النصب لبنائه و التقدير ربي أعلم بمن جاء بالهدى، و لا دليل على منعه.

قوله تعالى: **{وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ}** صدر الآية تقرير للوعد الذي في قوله: **{إِنَّ الْأَذَىٰ قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ}** أي أنه سيردك إلى معاد و ما كنت ترجوه كما ألقى إليك الكتاب و ما كنت ترجوه .

و قيل: تذكرة استينافية لنعمته تعالى عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) و هذا وجه وجيه و تقريره أنه تعالى لما وعده بالرد إلى معاد و فيه ارتفاع ذكره و تقدم دعوته و انبساط دينه خط له السبيل التي يجب عليه سلوكها بجهد و مراقبة فبين له أن إلقاء الكتاب إليه لم يكن على نهج الحوادث العادية التي من شأنها أن ترتجى و تترقب بل كانت رحمة خاصة من ربه و قد وعده في فرضه عليه ما وعده فمن الواجب عليه قبال هذه النعمة و في تقدم دعوته و بلوغها الغاية التي وعداها أن لا ينصر الكافرين و لا يطيعهم و يدعو إلى ربه و لا يكون من المشركين و لا يدعو معه إليها آخر.

و قوله: **{إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}** استثناء منقطع أي لكنه ألقى إليك رحمة من ربك و ليس بإلقاء عادي يرجى مثله.

و قوله: **{فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ}** تفریع على قوله: **{إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}** أي فإذا كان إلقاءه إليك رحمة من ربك خصك بها و هو فوق رجائك فتبرء من الكافرين و لا تكن معينا و ناصرًا لهم.

و من المحتمل قريبًا أن يكون في الجملة نوع محاذاة لقول موسى (عليه السلام) لما قتل القبطي: **{رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}** و على هذا يكون في النهي عن إعانتهم إشارة إلى أن إلقاء الكتاب إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) نعمة أنعمها الله عليه يهدي به إلى الحق و يدعو إلى التوحيد فعليه أن لا يعين الكافرين على كفرهم و لا يميل إلى صدهم إياه عن آيات الله بعد نزولها عليه كما عاهد موسى (عليه السلام) ربه بما أنعم عليه من الحكم و العلم أن لا يكون ظهيرا للمجرمين أبدا، و سيأتي أن قوله: **{وَلَا يَصُدُّنَّكَ}** إنلح، بمنزلة الشارح لهذه الجملة.

قوله تعالى: **{وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ}** إلى آخر الآية، نهي له (صلى الله عليه وآله وسلم) على الانصراف عن آيات الله بلسان نهي الكفار عن الصد و الصرف و وجهه كون انصرافه مسببا لصدهم و هو كقوله لآدم و زوجته: **{فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ}** أي لا تخرجا منها بإخراجه لكما بالوسوسة.

و الظاهر أن الآية و ما بعدها في مقام الشرح لقوله: **{فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ}** و فائدته تأكيد النهي بعد موارد و واحدا بعد واحد فنهاه أولا عن الانصراف عن القرآن النازل عليه برميهم كتاب الله بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين اكتبها، و أمره ثانيا أن يدعو إلى ربه، و نهاه ثالثا أن يكون من المشركين و فسره بأن يدعو مع الله إلها آخر.

و قد كرر صفة الرب مضافا إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) للدلالة على اختصاصه بالرحمة و النعمة و أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) متفرد في عبادته لا يشاركه المشركون فيها.

قوله تعالى: **{وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}** قد تقدم أنه كالتفسير لقوله: **{وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**.

قوله تعالى: **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** كلمة الإخلاص في مقام التعليل لقوله قبله: **{وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}** أي لأنه لا إله غيره و ما بعدها في مقام التعليل بالنسبة إليها كما سيوضح.

و قوله: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}** الشيء مساو للموجود و يطلق على كل أمر موجود حتى عليه تعالى كما يدل عليه قوله: **{قُلْ أُمِّي شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ}**: الأنعام: ١٩، و الهلاك البطلان و الانعدام.

و الوجه و الجهة واحد كالوعد و العدة، و وجه الشيء في العرف العام ما يستقبل به غيره و يرتبط به إليه كما أن وجه الجسم السطح الظاهر منه و وجه الإنسان النصف المقدم من رأسه و وجهه تعالى ما يستقبل به غيره من خلقه و يتوجه إليه خلقه به و هو صفاته الكريمة من حياة و علم و قدرة و سمع و بصر و ما ينتهي إليها من صفات الفعل كالخلق و الرزق و الإحياء و الإماتة و المغفرة و الرحمة و كذا آياته الدالة عليه بما هي آياته.

فكل شيء هالك في نفسه باطل في ذاته لا حقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه

الله عليه و أما ما لا ينسب إليه تعالى فليس إلا ما اختلقه وهم المتوهم أو سرابا صوره الخيال و ذلك كالأصنام ليس لها من الحقيقة إلا أنها حجارة أو خشبة أو شيء من الفلزات و أما أنها أرباب أو آلهة أو نافعة أو ضارة أو غير ذلك فليست إلا أسماء سماها عبدتهم و كالإنسان ليس له من الحقيقة إلا ما أودعه فيه الخلق من الروح و الجسم و ما اكتسبه من صفات الكمال و الجميع منسوبة إلى الله سبحانه و أما ما يضيفه إليه العقل الاجتماعي من قوة و سلطة و رئاسة و وجاهة و ثروة و عزة و أولاد و أعضاء فليس إلا سرابا هالكا و أمنية كاذبة و على هذا السبيل سائر الموجودات.

فليس عندها من الحقيقة إلا ما أفاض الله عليها بفضلها و هي آياته الدالة على صفاته الكريمة من رحمة و رزق و فضل و إحسان و غير ذلك.

فالحقيقة الثابتة في الواقع التي ليست هالكة باطلة من الأشياء هي صفاته الكريمة و آياته الدالة عليها و الجميع ثابتة بثبوت الذات المقدسة.

هذا على تقدير كون المراد بالهالك في الآية الهالك بالفعل و على هذا يكون محصل تعليل كلمة الإخلاص بقوله: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}** أن الإله و هو المعبود بالحق إنما يكون إلها معبودا إذا كان أمرا ذا حقيقة واقعية غير هالك و لا باطل له تدبير في العالم بهذا النعت و كل شيء غيره تعالى هالك باطل في نفسه إلا ما كان وجهها له منتسبا إليه فليس في الوجود إله غيره سبحانه.

و الوثنيون و إن كانوا يرون وجود آلهتهم منسوبا إليه تعالى و من جهته إلا أنهم يجعلونها مستقلة في التدبير مقطوعة النسبة في ذلك عنه من دون أن يكون حكمها حكمه، و لذلك يعبدونها من دون الله، و لا استقلال لشيء في شيء عنه تعالى فلا يستحق العبادة إلا هو.

و هاهنا وجه آخر أدق منه بناء على أن المراد بالوجه ذات الشيء فقد ذكر بعضهم ذلك من معاني الوجه كما يقال: وجه النهار و وجه الطريق لنفسهما و إن أمكنت المناقشة فيه و ذكر بعض آخر: أن المراد به الذات الشريفة كما يقال: وجوه الناس أي أشرافهم و هو من المجاز المرسل أو الاستعارة و على كلا التقديرين فالمراد أن غيره تعالى من الموجودات ممكنة و الممكن و إن كان موجودا بإيجاده تعالى فهو معدوم بالنظر

إلى حد ذاته هالك في نفسه و الذي لا سبيل للبطلان و الهلاك إليه هو ذاته الواجبة بذاتها.

و محصل التعليل على هذا المعنى: أن الإله المعبود بالحق يجب أن يكون ذاتا بيده شيء من تدبير العالم، و التدبير الكوني لا ينفك عن الخلق و الإيجاد فلا معنى لأن يوجد الحوادث شيء و يدبر أمرها شيء آخر - و قد أوضحناه مرارا في هذا الكتاب - و لا يكون الخالق الموجد إلا واجب الوجود و لا واجب إلا هو تعالى فلا إله إلا هو.

و قولهم: إنه تعالى أجل من أن يحيط به عقل أو وهم فلا يمكن التوجه العبادي إليه فلا بد أن يتوجه بالعبادة إلى بعض مقربي حضرته من الملائكة الكرام و غيرهم ليكونوا شفعاء عنده.

مدفوع بمنع توقف التوجه بالعبادة على العلم الإحاطي بل يكفي فيه المعرفة بوجه و هو حاصل بالضرورة.

و أما على تقدير كون المراد بالهالك ما يستقبله الهلاك و الفناء بناء على ما قيل: إن اسم الفاعل ظاهر في الاستقبال فظاهر الآية أن كل شيء سيستقبله الهلاك بعد وجوده إلا وجهه. نعم استقبال الهلاك يختلف باختلاف الأشياء فاستقباله في الزمانيات انتهاء أمد وجودها و بطلانها بعده و في غيرها كون وجودها محاطا بالفناء من كل جانب.

و هلاك الأشياء على هذا بطلان وجودها الابتدائي و خلو النشأة الأولى عنها بانتقالها إلى النشأة الأخرى و رجوعها إلى الله و استقرارها عنده، و أما البطلان المطلق بعد الوجود فصريح كتاب الله ينفيه فالآيات متتابعة في أن كل شيء مرجعه إلى الله و أنه المنتهى و إليه الرجعى و هو الذي يبدئ الخلق ثم يعيده.

فمحصل معنى الآية - لو أريد بالوجه صفاته الكريمة - أن كل شيء سيخلي مكانه و يرجع إليه إلا صفاته الكريمة التي هي مبادئ فيضه فهي تفيض ثم تفيض إلى ما لا نهاية له و الإله يجب أن يكون كذلك لا بطلان لذاته و لا انقطاع لصفاته الفيضة و ليس شيء غيره تعالى بهذه الصفة فلا إله إلا هو.

و لو أريد بوجهه الذات المقدسة فالمحصل أن كل شيء سيستقبله الهلاك و الفناء بالرجوع إلى الله سبحانه إلا ذاته الحقة الثابتة التي لا سبيل للبطلان إليها - و الصفات على هذا محسوبة من صقع الذات - و الإله يجب أن يكون بحيث لا يتطرق الفناء إليه

و ليس شيء غيره بهذه الصفة فلا إله إلا هو.

و بما تقدم من التقرير يندفع الاعتراض على عموم الآية بمثل الجنة و النار و العرش فإن الجنة و النار لا تتعدمان بعد الوجود و تبقيان إلى غير النهاية، و العرش أيضا كذلك بناء على ما ورد في بعض الروايات أن سقف الجنة هو العرش.

وجه الاندفاع أن المراد بالهلاك هو تبدل نشأة الوجود و الرجوع إلى الله المعبر عنه بالانتقال من الدنيا إلى الآخرة و التلبس بالعود بعد البدء، و هذا إنما يكون فيما هو موجود بوجود بدئي دنيوي، و أما الدار الآخرة و ما هو موجود بوجود أخروي كالجنة و النار فلا يتصف شيء من هذا القبيل بالهلاك بهذا المعنى.

قال تعالى: **{مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ}**: النحل: ٩٦، و قال: **{وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ}**: آل عمران: ١٩٨ و قال: **{سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ}**: الأنعام: ١٢٤ و نظيرتهما خزائن الرحمة كما قال: **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ}**: الحجر: ٢١ و كذا اللوح المحفوظ كما قال: **{وَ عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}**: ق: ٤.

و أما ما ذكره من العرش فقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ}** (الآية): الأعراف: ٥٤.

و يمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى التي تنسب إليه و هي الناحية التي يقصد منها و يتوجه إليه بها، و تؤيده كثرة استعمال الوجه في كلامه تعالى بهذا المعنى كقوله: **{يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}**: الأنعام: ٥٢ و قوله: **{إِلَّا إِبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}**: الليل: ٢٠ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا.

و عليه فتكون عبارة عن كل ما ينسب إليه وحده فإن كان الكلام على ظاهر عمومه انطبق على الوجه الأول الذي أوردناه و يكون من مصاديقه أسماءه و صفاته و أنبيائه و خلفائه و دينه الذي يؤتى منه.

و إن خص الوجه بالدين فحسب كما وقع في بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق كان المراد بالهلاك الفساد و عدم الأثر، و كانت الجملة تعليلا لقوله: **{وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}** و كان ما قبلها قرينة على أن المراد بالشيء الدين و الأعمال المتعلقة

به و كان محصل المعنى: و لا نثنين بغير دين التوحيد لأن كل دين باطل لا أثر له إلا دينه.

و الأنسب على هذا أن يكون الحكم في ذيل الآية بمعنى الحكم التشريعي أو الأعم منه و من التكويني و المعنى: كل دين هالك إلا دينه لأن تشريع الدين إليه و إليه ترجعون لا إلى مشرعي الأديان الأخر.

هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة و للمفسرين فيها أقوال أخر مختلفة.

فقيل: المراد بالوجه ذاته تعالى المقدسة و بالهلاك الانعدام، و المعنى: كل شيء في نفسه عرضة للعدم لكون وجوده عن غيره إلا ذاته الواجبة الوجود، و الكلام على هذا مبني على التشبيه أي كل شيء غيره كالهالك لاستناد وجوده إلى غيره.

و قيل: الوجه بمعنى الذات و المراد به ذات الشيء و الضمير لله باعتبار أن وجه الشيء مملوك له، و المعنى: كل شيء هالك إلا وجه الله الذي هو ذات ذلك الشيء و وجوده.

و قيل: المراد بالوجه الجهة المقصودة و الضمير لله، و المعنى: كل شيء هالك بجميع ما يتعلق به إلا الجهة المنسوبة إليه تعالى و هو الوجود الذي أفاضه الله تعالى عليه.

و قيل: الوجهة هو الجهة المقصودة و المراد به الله سبحانه الذي يتوجه إليه كل شيء و الضمير للشيء، و المعنى: كل شيء هالك إلا الله الذي هو الجهة المطلوبة له.

و قيل: المراد بالهلاك هلاك الموت و العموم مخصوص بذوي الحياة و المعنى: كل ذي حياة فإنه سيموت إلا وجهه.

و قيل: المراد بالوجه العمل الصالح و المعنى أن العمل كان في حيز العدم، فلما فعله العبد ممثلاً لأمره تعالى أبقاه الله من غير إحباط حتى يثيبه أو أنه بالقبول صار غير قابل للهلاك لأن الجزاء قائم مقامه و هو باق.

و قيل: المراد بالوجه جاهه تعالى الذي أثبته في الناس.

و قيل: الهلاك عام لجميع ما سواه تعالى دائماً لكون الوجود المفاض عليها متجدداً في كل آن فهي متغيرة هالكة دائماً في الدنيا و الآخرة و المعنى كل شيء متغير الذات دائماً إلا وجهه.

و هذه الوجوه بين ما لا ينطبق على سياق الآية و بين ما لا ينجح به حجتها و بين ما هو بعيد عن الفهم، و بالتأمل فيما قدمناه يظهر ما في كل منها فلا نطيل.

وقوله: **{لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** الحكم هو قضاؤه النافذ في الأشياء و عليه يدور التدبير في نظام الكون، وأما كونه بمعنى فصل القضاء يوم القيامة فيعده تقديم الحكم في الذكر على الرجوع إليه الذي هو يوم القيامة فإن فصل القضاء متفرع عليه.

و كلتا الجملتين مسوقتان للتعليل و كل واحدة منهما وحدها حجة تامة على توحده. تعالى بالألوهية صالحة للتعليل كلمة الإخلاص، و قد تقدم إمكان أخذ الحكم على بعض الوجوه بمعنى الحكم التشريعي.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و البخاري و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس في قوله تعالى: **{لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ}** قال: إلى مكة. زاد ابن مردويه كما أخرجك منها.

أقول: و روي عنه و عن أبي سعيد الخدري: أن المراد به الموت، و أيضا عن علي عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): **أن المراد به الجنة و انطباقهما على الآية لا يخلو من خفاء.**

و روى القمي في تفسيره عن حريز عن أبي جعفر (عليه السلام) و عن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين (عليه السلام): **أن المراد به الرجعة و لعله من البطن دون التفسير.**

و في الإحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث طويل: **و أما قوله {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}** فالمراد كل شيء هالك إلا دينه، لأن من المحال أن يهلك منه كل شيء و يبقى الوجه. هو أجل و أعظم من ذلك و إنما يهلك من ليس منه أ لا ترى أنه قال: **{كُلُّ مَنْ عَلَيَّهَا فَإِنَّ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ}** ففصل بين خلقه و وجهه؟

و في الكافي بإسناده عن سيف عمن ذكره عن الحارث بن المغيرة النصري قال: سئل أبو عبد الله (عليه السلام) عن قول الله تبارك و تعالى: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}** فقال: **ما يقولون فيه؟ قلت: يقولون: يهلك كل شيء إلا وجه الله فقال: سبحان الله لقد قالوا عظيما إنما عنى به وجه الله الذي يؤتى منه.**

أقول: و روى مثله في التوحيد بإسناده عن الحارث بن المغيرة النصري عنه

(عليه السلام) و لفظه: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز و جل: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا**
وَجْهَهُ} قال: كل شيء هالك إلا من أخذ طريق الحق.

و في محاسن البرقي: مثله إلا أن آخره «من أخذ الطريق الذي أتم عليه». و التشويش الذي يترأى في الروايات تطرق إليها من جهة النقل بالمعنى، فإن كان المراد بالوجه الذي يؤتى منه مطلق ما ينسب إليه و كان من صقعته تعالى و من جانبه كان منطبقاً على المعنى الأول الذي قدمناه في معنى الآية.

و إن كان الوجه بمعنى الدين الذي يتوجه إليه تعالى بقصده كان المراد بالهلاك البطلان و عدم التأثير و كان المعنى: لا إله إلا هو كل دين باطل إلا دينه الحق الذي يؤتى منه فإنه سينفع و يثاب عليه، و قد تقدمت الإشارة إلى الوجهين في تفسير الآية.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ}** قال: المخاطبة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و المعنى للناس، و قوله: **{وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ}** المخاطبة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و المعنى للناس، و هو قول الصادق (عليه السلام) إن الله بعث نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم): بياك أعني، و اسمعي يا جارة.

(٢٩) (سورة العنكبوت مكية، وهي تسع وستون آية) (٦٩)

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١ الى ١٣]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَ إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ

وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ
لَنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلْيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا
مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

(بيان)

يلوح من سياق آيات السورة و خاصة ما في صدرها من الآيات أن بعضا من آمن بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة قبل الهجرة رجع عنه خوفا من فتنة كانت تهدده من قبل المشركين فإن المشركين كانوا يدعونهم إلى العود إلى ملتهم و يضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم فإن أبوا فتنوهم و عذبوهم ليعيدوهم إلى ملتهم.

يشير إلى ذلك قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ}** (الآية)،
وقوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}** (الآية).

و كان في هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهدة من والديه على أن يرجع وإلحاح منهما عليه في الارتداد كبعض أبناء المشركين على ما يستشم من قوله تعالى: **{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا}** (الآية)، و قد نزلت السورة في شأن هؤلاء.

فغرض السورة على ما استفاد من بدئها و ختامها و السياق الجاري فيها أن الذي يريده الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم: **{آمَنَّا بِاللَّهِ}** بل هو حقيقة الإيمان التي لا تحركها عواصف الفتن و لا تغيرها غير الزمن و هي إنما تثبت و تستقر بتوارد الفتن و تراكم المحن، فالناس غير متروكين بمجرد أن يقولوا: **{آمَنَّا بِاللَّهِ}** دون أن يفتنوا و يمتحنوا فيظهر ما في نفوسهم من حقيقة الإيمان أو وصمة الكفر فليعلمن الله الذين صدقوا و يعلم الكاذبين.

فالفتنة والمحنة سنة إلهية لا معدل عنها تجري في الناس الحاضرين كما جرت في الأمم الماضية كقوم نوح وعاد ثمود وقوم إبراهيم ولوط وشعيب وموسى فاستقام منهم من استقام وهلك منهم من هلك وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فعلى من يقول: آمنت بالله أن يصبر على إيمانه ويعبد الله وحده فإن تعذر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر إلى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض الله واسعة ولا يخف عسر المعاش فإن الرزق على الله وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياها.

وأما المشركون الذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلا أن يقولوا ربنا الله فلا يحسبوا أنهم يعجزون الله ويسبقونه فأما فتنهم للمؤمنين وإيذاؤهم وتعذيبهم فإنما هي فتنة لهم وللمؤمنين غير خارجة عن علم الله وتقديره، فهي فتنة وهي محفوظة عليهم إن شاء أخذهم بوبالها في الدنيا وإن شاء أخرهم إلى يوم يرجعون فيه إليه وما لهم من محيص.

وأما ما لفقوه من الحجية وركنوا إليه من باطل القول فهو داحض مردود إليهم والحجة قائمة تامة عليهم. فهذا محصل غرض السورة ومقتضى ذلك كون السورة كلها مكية، وقول القائل: إنها مدنية كلها أو معظمها أو بعضها - وسيجيء في البحث الروائي التالي غير سديد، فضمامين آيات السورة لا تلائم إلا زمن العسرة والشدة قبل الهجرة.

قوله تعالى: **{الم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}** الحسبان هو الظن، وجملة **{أَنْ يُتْرَكُوا}** قائمة مقام مفعوليه، وقوله: **{أَنْ يَقُولُوا}** بتقدير باء السببية، والفتنة الامتحان وربما تطلق على المصيبة والعذاب، والأوفق للسياق هو المعنى الأول، والاستفهام للإنكار.

والمعنى: أظن الناس أن يتركوا فلا يتعرض لحالهم ولا يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم في دعوى الإيمان بمجرد قولهم: آمنا؟

وقيل: المعنى: أظن الناس أن يتركوا فلا يبتلوا ببليّة ولا تصيبهم مصيبة لقولهم: آمنا بأن تكون لهم على الله كرامة بسبب الإيمان يسلموا بها من كل مكروه يصيب الإنسان مدى حياته؟ ولا يخلو من بعد بالنظر إلى سياق الآيات.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}** اللامان للقسم، وقوله: **{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}** حال من الناس في قوله: **{أَحْسِبَ النَّاسُ}** أو من ضمير الجمع في قوله **{لَا يُفْتَنُونَ}** و على الأول فالإنكار والتوبيخ متوجه إلى ظنهم أنهم لا يفتنون مع جريان السنة الإلهية على الفتنة والامتحان و على الثاني إلى ظنهم الاختلاف في فعله تعالى حيث يفتن قوما و لا يفتن آخرين، و لعل الوجه الأول أوفق للسياق.

فالظاهر أن المراد بقوله: **{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}** أن الفتنة والامتحان سنة جارية لنا و قد جرت في الذين من قبلهم و هي جارية فيهم و لن تجد لسنة الله تبديلا.

و قوله: **{فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا}** إنح تعليل لما قبله، و المراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا بالكاذبين ظهور آثار صدقهم و كذبهم في مقام العمل بسبب الفتنة و الامتحان الملازم لثبوت الإيمان في قلوبهم حقيقة و عدم ثبوته فيها حقيقة فإن السعادة التي تترتب على الإيمان المدعو إليه و كذا الثواب إنما تترتب على حقيقة الإيمان الذي له آثار ظاهرة من الصبر عند المكاره و الصبر على طاعة الله و الصبر عن معصية الله لا على دعوى الإيمان المجردة.

و يمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعلي الذي هو نفس الأمر الخارجي فإن الأمور الخارجية بنفسها من مراتب علمه تعالى، و أما علمه تعالى الذاتي فلا يتوقف على الامتحان البتة.

و المعنى: أ حسبوا أن يتركوا و لا يفتنوا بمجرد دعوى الإيمان و إظهاره و الحال أن الفتنة سنتنا و قد جرت في الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء و آثار كذب أولئك الملازم لاستقرار الإيمان في قلوب هؤلاء و زوال صورته الكاذبة عن قلوب أولئك.

و الالتفات في قوله: **{فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ}** إلى اسم الجلالة قيل: للتهويل و تربية المهابة و الظاهر أنه في أمثال المقام لإفادة نوع من التعليل و ذلك أن الدعوة إلى الإيمان و الهداية إليه و الثواب عليه لما كانت راجعة إلى المسمى بالله الذي منه يبدأ كل شيء و به يقوم كل شيء و إليه ينتهي كل شيء بحقيقته فمن الواجب أن يتميز عنده حقيقة الإيمان من

دعواه الخالية و يخرج عن حال الإبهام إلى حال الصراحة و لذلك عدل عن مثل قولنا: فلنعلن إلى قوله: **{فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ}**.

قوله تعالى: **{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}** أم منقطعة، و المراد بقوله: **{الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ}** المشركون الذين كانوا يفتنون المؤمنين و يصدونهم عن سبيل الله كما أن المراد بالناس في قوله: **{أَمْ حَسِبَ النَّاسُ}** هم الذين قالوا: آما و هم في معرض الرجوع عن الإيمان خوفا من الفتنة و التعذيب.

و المراد بقوله: **{أَنْ يَسْبِقُونَا}** الغلبة و التعجيز بسبب فتنة المؤمنين و صداهم عن سبيل الله - على ما يعطيه السياق.

و قوله: **{سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}** تخطئة لظنهم أنهم يسبقون الله بما يمكرون من فتنة و صد فإن ذلك بعينه فتنة من الله لهم أنفسهم و صد لهم عن سبيل السعادة و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

و قيل: مفاد الآية توبيخ العصاة من المؤمنين و هم المراد بقوله: **{الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ}** و المراد بالسيئات المعاصي التي يقترفونها غير الشرك، و أنت خبير بأن السياق لا يساعد عليه.

و قيل: المراد بعمل السيئات أعم من الشرك و اقتراف سائر المعاصي فالآية عامة لا موجب لتخصيصها بخصوص الشرك أو بخصوص سائر المعاصي دون الشرك.

و فيه أن اعتبار الآية من حيث وقوعها في سياق خاص من السياقات أمر و اعتبارها مستقلة في نفسها أمر آخر و الذي يقتضيه الاعتبار الأول و هو العمدة بالنظر إلى غرض السورة هو ما قدمناه من المعنى، و أما الاعتبار الثاني: فمقتضاه العموم و لا ضير فيه على ذلك التقدير.

قوله تعالى: **{مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** إلى تمام ثلاث آيات. لما و بخر سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الإيمان و رجوعهم عنه بأي فتنة و إيذاء من المشركين و و بخر المشركين على فتنهم و إيذائهم المؤمنين و صداهم عن سبيل الله إرادة لإطفاء نور الله و تعجيزا له فيما شاء و خطأ الفريقين فيما ظنوا.

رجع إلى بيان الحق الذي لا معدل عنه و الواجب الذي لا مخلص منه، فبين في

هذه الآيات الثلاث أن من يؤمن بالله لتوقع الرجوع إليه و لقاءه فليعلم أنه آت لا محالة و أن الله سميع لأقواله عليم بأحواله و أعماله فليأخذ حذره و ليؤمن حق الإيمان الذي لا يصرفه عنه فتنة و لا إيذاء و ليجاهد في الله حق جهاده، و ليعلم أن الذي ينتفع بجهاده هو نفسه و لا حاجة لله سبحانه إلى إيمانه و لا إلى غيره من العالمين و ليعلم أنه إن آمن و عمل صالحا فإن الله سيكفر عنه سيئاته و يجزيه بأحسن أعماله، و العلمان الأخيران يؤكدان العلم الأول و يستوجبان لزومه الإيمان و صبره على الفتن و المحن في جنب الله.

فقوله: **{مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ}** رجوع إلى بيان حال من يقول: آمنت فإنه إنما يؤمن لو صدق بعض الصدق لتوقعه الرجوع إلى الله سبحانه يوم القيامة إذ لو لا المعاد لغا الدين من أصله، فالمراد بقوله: **{مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ}** من كان يؤمن بالله أو من كان يقول: آمنت بالله، فالجملة من قبيل وضع السبب موضع المسبب.

و المراد بلقاء الله و قوف العبد موقفا لا حجاب بينه و بين ربه كما هو الشأن يوم القيامة الذي هو ظرف ظهور الحقائق، قال تعالى: **{وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}**.

و قيل: المراد بلقاء الله هو البعث، و قيل: الوصول إلى العاقبة من لقاء ملك الموت و الحساب و الجزاء، و قيل: المراد ملاقاته جزاء الله من ثواب أو عقاب و قيل: ملاقاته حكمه يوم القيامة، و الرجاء على بعض هذه الوجوه بمعنى الخوف.

و هذه وجوه مجازية بعيدة لا موجب لها إلا أن يكون من التفسير بلازم المعنى.

و قوله: **{فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ}** الأجل هو الغاية التي ينتهي إليها زمان الدين و نحوه و قد يطلق على مجموع ذلك الزمان و الغالب في استعماله هو المعنى الأول.

و **{أَجَلَ اللَّهِ}** هو الغاية التي عينها الله تعالى للقاءه، و هو آت لا ريب فيه و قد أكد القول تأكيدا بالغا، و لازم تحتم إتيان هذا الأجل و هو يوم القيامة أن لا يسامح في أمره و لا يستهان بأمر الإيمان بالله حق الإيمان و الصبر عليه عند الفتن و المحن من غير رجوع و ارتداد، و قد زاد في تأكيد القول بتذييله بقوله: **{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** إذ هو تعالى لما كان سميعا لأقوالهم عليما بأحوالهم فلا ينبغي أن يقول القائل: آمنت بالله إلا عن ظهر القلب و مع الصبر على كل فتنة و محنة.

و من هنا يظهر أن ذيل الآية: **{فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ}** إنخ، من قبيل وضع

السبب موضع المسبب كما كان صدرها: **{مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ}** أيضا كذلك، و الأصل من قال: آمنت بالله. فليقله مستقيما صابرا عليه مجاهدا في ربه.

وقوله: **{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** المجاهدة و الجهاد مبالغة من الجهد بمعنى بذل الطاقة، و فيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم في الله يلزوم الإيمان و الصبر على المكاره دونه ليست مما يعود نفعه إلى الله سبحانه حتى لا يهتمهم و يلغو بالنسبة إليهم أنفسهم بل إنما يعود نفعه إليهم أنفسهم لغناه تعالى عن العالمين فعليهم أن يلزموا الإيمان و يصبروا على المكاره دونه.

فقوله: **{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ}** تأكيد لحجة الآية السابقة، و قوله: **{إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** تعليل لما قبله.

و الالتفات من سياق التكلم بالغير إلى اسم الجلالة في الآيتين نظير ما مر من الالتفات في قوله: **{فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا}** (الآية).

وقوله: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}** بيان لعاقبة إيمانهم حق الإيمان المقارن للجهاد و يتبين به أن نفع إيمانهم يعود إليهم لا إلى الله سبحانه و أنه عطية من الله و فضل.

و على هذا فالآية لا تخلو من دلالة ما على أن الجهاد في الله هو الإيمان و العمل الصالح فإنها في معنى تبديل قوله في الآية السابقة: **{وَمَنْ جَاهَدَ}** من قوله في هذه الآية: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}**.

و تكفير السيئات هو العفو عنها و الأصل في معنى الكفر هو الستر، و قيل: تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيمانا و معاصيهم السابقة طاعات، و ليس بذلك.

و جزاؤهم بأحسن الذي كانوا يعملون هو رفع درجاتهم إلى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشة في أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءة و خسة فيعاملون في كل واحد من أعمالهم معاملة من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحسب صلاتهم أحسن الصلاة و إن اشتملت على بعض جهات الرداءة و هكذا.

قوله تعالى: **{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا}** إنلخ، التوصية العهد و هو هاهنا الأمر، و قوله: **{حُسْنًا}**

مصدر في معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف و التقدير: و وصينا الإنسان بوالديه توصية حسنة أو ذات حسن أي أمرناه أن يحسن إليهما و هذا مثل قوله: **{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}** أي قولا حسنا أو ذا حسن، و يمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة نحو زيد عدل، و ربما وجه بتوجيهات آخر.

و قوله: **{وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي}** إلخ، تتميم للتوصية بخطاب شفاهي للإنسان بنبيه عن إطاعة والديه إن دعواه إلى الشرك و الوجه في ذلك أن التوصية في معنى الأمر فكأنه قيل: و قلنا للإنسان أحسن إلى والديك و إن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما.

و لم يقل: و أن لا يطيعهما إن جاهداه على أن يشرك إلخ، لما في الخطاب من الصراحة و ارتفاع الإبهام و لذلك قال أيضا: **{لِتُشْرِكَ بِي}** بضمير المتكلم وحده فافهمه و يتول معنى الجملة إلى أنا نهيناه عن الشرك طاعة لهما و رفعنا عنه كل إبهام.

و في قوله: **{مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}** إشارة إلى علة النهي عن الطاعة فإن دعوتهما إلى الشرك بعبادة إله من دون الله دعوة إلى الجهل و عبادة ما ليس له به علم اقتراء على الله و قد نهى الله عن اتباع غير العلم قال: **{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}**: إسرء: ٣٨ و بهذه المناسبة ذيلها بقوله: **{إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** أي سأعلمكم ما معنى أعمالكم و منها عبادتكم الأصنام و شرككم بالله سبحانه.

و معنى الآية: و عهدنا إلى الإنسان في والديه عهدا حسنا و أمرناه أن أحسن إلى والديك و إن بذلا جهدهما أن تشرك بي فلا تطعهما لأنه اتباع ما ليس لك به علم.

و في الآية كما تقدمت الإشارة إليه - تويخ تعريضي لبعض من كان قد آمن ثم رجع عن إيمانه بمجاهدة من والديه.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}** معنى الآية ظاهر، و في وقوعها بعد الآية السابقة و في سياقها، دلالة على وعد جميل منه تعالى و تطيب نفس لمن ابتلي من المؤمنين بوالدين مشركين يجاهدانه على الشرك فعصاهما و فارقهما، يقول سبحانه: إن جاهداه على الشرك فعصاهما و هجرهما ففاتاه لم يكن بذلك بأس فإننا سنرزقه خيرا منهما و ندخله بإيمانه و عمله الصالح في الصالحين و هم العباد

المنعمون في الجنة، قال تعالى: **{ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي }**: الفجر: ٣٠.

و أما إرادة المجتمع الصالح في الدنيا فبعيد من السياق.

قوله تعالى: **{ وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ }** إلى آخر الآية، لما كان إيمان هؤلاء مقيدا بالعافية و السلامة مغني بالإيذاء و الابتلاء لم يعده إيمانا بقول مطلق و لم يقل: و من الناس من يؤمن بالله بل قال: **{ وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ }** فالآية بوجه نظيرة قوله: **{ وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ }**: الحج: ١١.

و قوله: **{ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ }** أي أُوذِيَ لأجل الإيمان بالله بناء على أن في للسببية كما قيل و فيه عناية كلامية لطيفة بجعله تعالى أي جعل الإيمان بالله ظرفا للإيذاء و لمن يقع عليه الإيذاء ليفيد أن الإيذاء منتسب إليه تعالى انتساب المظروف إلى ظرفه و ينطبق على معنى السببية و الغرضية و نظيره قوله: **{ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتِ فِي جَنبِ اللَّهِ }**: الزمر: ٥٦ و قوله: **{ وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا }**: العنكبوت: ٦٩.

و قيل: معنى الإيذاء في الله هو الإيذاء في سبيل الله و كأنه مبني على تقدير مضاف محذوف.

و فيه أن العناية الكلامية مختلفة فالإيذاء في الله ما كان السبب فيه محض الإيمان بالله و هو قولهم: ربنا الله، و الإيذاء في سبيل الله ما كان سببه سلوك السبيل التي هي الدين قال تعالى: **{ قَالِ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أُودُوا فِي سَبِيلِي }**: آل عمران: ١٩٥ و من الشاهد على تغاير الاعتبارين قوله في آخر السورة: **{ وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا }** حيث جعل الجهاد في الله طريقا إلى الاهتداء إلى سببه و لو كانا بمعنى واحد لم يصح ذلك.

و قوله: **{ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ }** أي نزل العذاب و الإيذاء الذي يصيبه من الناس في وجوب التحرز منه منزلة عذاب الله الذي يجب أن يتحرز منه فرجع عن الإيمان إلى الشرك خوفا و جزعا من فتنهم مع أن عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاة أو موت و لا يقاس ذلك بعذاب الله العظيم المؤبد الذي يستتبع الهلاك الدائم.

وقوله: **{وَلَيْنُ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}** أي لئن أتاكم من قبله تعالى ما فيه فرج و يسر لكم من بعد ما أتم فيه من الشدة و العسرة من قبل أعداء الله ليقولن هؤلاء إنا كنا معكم فلنا منه نصيب. و **{لَيَقُولُنَّ}** بضم اللام صيغة جمع، و الضمير راجع إلى **{مِنْ}** باعتبار المعنى كما أن ضمائر الأفراد الأخر راجعة إليها باعتبار اللفظ.

وقوله: **{أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ}** استفهام إنكاري فيه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن الله أعلم بما في الصدور و لا تنطوي قلوب هؤلاء على إيمان.

و المراد بالعالمين الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفة من أولي العقل إنسانا كان أو غيره كالجن و الملك، و لو كان المراد به جميع المخلوقات من ذوي الشعور و غيرهم كان المراد بالصدور البواطن و هو بعيد.

قوله تعالى: **{وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}** من تمة الكلام في الآية السابقة و المحصل أن الله مع ذلك يميز بين المؤمنين و المنافقين بالفتنة و الامتحان.

و في الآية إشارة إلى كون هؤلاء منافقين و ذلك لكون إيمانهم مقيدا بعدم الفتنة و هم يظهرونه مطلقا غير مقيد و الفتنة سنة إلهية جارية لا معدل عنها.

و قد استدل بالآيتين على أن السورة أو خصوص هذه الآيات مدنية و ذلك أن الآية تحدث عن النفاق و النفاق إنما ظهر بالمدينة بعد الهجرة و أما مكة قبل الهجرة فلم يكن للإسلام فيها شوكة و لا للمسلمين فيها إلا الذلة و الإهانة و الشدة و الفتنة و لا للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) في المجتمع العربي يومئذ و خاصة عند قريش عزة و لا منزلة فلم يكن لأحد منهم داع يدعو إلى أن يتظاهر بالإيمان و هو ينوي الكفر. على أن قوله في الآية: **{وَلَيْنُ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}** يخبر عن النصر و هو الفتح و الغنيمة و قد كان ذلك بالمدينة دون مكة.

و نظير الآيتين قوله السابق: **{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ}** ضرورة إن الجهاد و القتال إنما كان بالمدينة بعد الهجرة.

و هو سخيف: أما حديث النفاق فالذي جعل في الآية ملاكا للنفاق و هو قولهم: **{آمَنَّا بِاللَّهِ}** حتى إذا أودوا في الله راجعوا عن قولهم كان جائز التحقق في مكة كما في

غيرها و هو ظاهر بل الذي ذكر من الإيذاء و الفتنة إنما كان بمكة فلم تكن في المدينة بعد الهجرة فتنة. و أما حديث النصر فالنصر غير منحصر في الفتح و الغنيمة فله مصاديق أخر يفرج الله بها عن عباده. على أن الآية لا تخبر عنه بما يدل على التحقق فقوله: **{فَإِذَا أُودِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}** يدل على تحقق الإيذاء و الفتنة حيث عبر بإذا الدالة على تحقق الوقوع بخلاف مجيء النصر حيث عبر عنه بأن الشرطية الدالة على إمكان الوقوع دون تحققه.

و أما قوله تعالى: **{وَمَنْ جَاهَدَ}** إلخ فقد اتضح مما تقدم أن المراد به جهاد النفس دون مقاتلة الكفار فالحق أن لا دلالة في شيء من الآيات على كون السورة أو بعضها مدنية.

قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}** المراد بالذين كفروا مشركو مكة الذين أبدوا الكفر أول مرة بالدعوة الحقة، و بالذين آمنوا المؤمنون بها أول مرة و قولهم لهم: **{اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ}** نوع استمالة لهم و تطيب لنفوسهم أن لو رجعوا إلى الشرك و اتبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعة على أي حال: إذ لو لم تكن في ذلك خطيئة فهو، و إن كانت فهم حاملون لها عنهم، و لذلك لم يقولوا: و لنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد.

فكأنهم قالوا: لنفرض أن اتباعكم لسبيلنا خطيئة فإننا نحملها عنكم و نحمل كل ما يتفرع عليه من الخطايا أو أننا نحمل عنكم خطاياكم عامة و من جملتها هذه الخطيئة.

و قوله: **{وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ}** رد لقولهم: **{وَلَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ}** و هو رد محفوف بحجة إذ لو كان اتباعهم لسبيلهم و رجوعهم عن الإيمان بالله خطيئة كان خطيئة عند الله لاحقة بالراجعين و انتقلها عن عهدتهم إلى غيرهم يحتاج إلى إذن من الله و رضى فهو الذي يؤاخذهم به و يجازيهم و هو سبحانه يصرح و يقول: **{مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ}** و قد عمم النفي لكل شيء من خطاياهم.

و قوله: **{إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}** تكذيب لهم لما أن قولهم: **{وَلَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ}** يشتمل على دعوى ضمني أن خطاياهم تنتقل إليهم لو احتملوها و أن الله يجيز لهم ذلك.

قوله تعالى: **{وَلِيَحْمِلْنَ أُنْقَالَهُمْ وَأُنْقَالًا مَعَ أُنْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}** من تمام القول السابق في ردهم وهو في محل الاستدراك أي إنهم لا يحملون خطاياهم بعينها فهي لازمة لفاعلها لكنهم حاملون أُنْقَالًا و أحمالا من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافا إلى أُنْقَال أنفسهم و أحمالها لما أنهم ضالون مضلون.

فالآية في معنى قوله تعالى: **{لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}**:
النحل: ٢٥.

و قوله: **{وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}** فشركهم اقتراء على الله سبحانه و كذا دعواهم القدرة على إنجاز ما وعدوه و أن الله يميز لهم ذلك.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس و أيضا ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قالوا: نزلت سورة العنكبوت بمكة.

أقول: و قد نقل في روح المعاني عن البحر عن ابن عباس أن السورة مدنية.

و في المجمع: قيل نزلت الآية يعني قوله تعالى: **{أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا}** في عمار بن ياسر و كان يعذب في الله. عن ابن جرير.

و في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله: **{الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا}** (الآية)، قال: أنزلت في أناس بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من المدينة لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار و لا إسلام حتى تهاجروا. قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا إليهم أنه نزل فيكم آية كذا و كذا فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فأتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل و منهم من نجا فأنزل الله فيهم: **{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}**

و فيه أخرج ابن جرير عن قتادة: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ}** إلى قوله **{وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}** قال هذه الآيات نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة، وهذه الآيات العشر مدنية.

و فيه أخرج ابن جرير عن الضحاك: في قوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ}** قال: ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فإذا أوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر والشرك مخافة من يؤذيهم و جعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله.

و فيه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال: قالت أمي: لا آكل طعاما ولا أشرب شرابا حتى تكفر بحمد فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يسجرون فاهما بالعصا فنزلت هذه الآية **{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا}** (الآية).

و في المجمع قال الكلبي: نزل قوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ}** (الآية) في عياش بن أبي ربيعة المخزومي و ذلك أنه أسلم فخاف أهل بيته فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فخلفت أمه أسماء بنت مخزومة بن أبي جندل التيمي أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل كفا حتى يرجع إليها فلما رأى ابناها أبو جهل والحارث ابنا هشام وهما أخوا عياش لأمه جزعها رجا في طلبه حتى أتيا المدينة فلقياه و ذكرا له القصة فلم يزالا به حتى أخذ عليهما المواثيق أن لا يصرفاه عن دينه و تبعهما و قد كانت أمه صبرت ثلاثة أيام ثم أكلت و شربت .

فلما خرجوا من المدينة أخذاه و أوثقاه ككافا و جلده كل واحد منهما مائة جلدة حتى برىء من دين محمد جزعا من الضرب و قال ما لا ينبغي فنزلت الآية و كان الحارث أشدهما عليه فخلف عياش لئن قدر عليه خارجا من الحرم ليضربن عنقه .

فلما رجعوا إلى مكة مكثوا حينما ثم هاجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و المؤمنون إلى المدينة و هاجر عياش و حسن إسلامه و أسلم الحارث بن هشام و هاجر إلى المدينة و بايع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الإسلام و لم يحضر عياش فلقية عياش يوما بظهر قبا و لم يشعر بإسلامه فضرب عنقه فقتل له: إن الرجل قد أسلم فاسترجع عياش و بكى ثم أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخبره بذلك فنزل: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً}** (الآية).

أقول: وأنت ترى اختلاف الروايات في سبب نزول الآيات و قد تقدم أن الذي يعطيه سياق آيات السورة أنها مكية محضة.

و في الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال: سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول: **{الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}**. ثم قال لي: ما الفتنة؟ قلت: جعلت فداك الفتنة في الدين فقال: «يفتنون كما يفتن الذهب. ثم قال: يخلصون كما يخلص الذهب».

و في الجمع قيل: إن معنى يفتنون يبتلون في أنفسهم و أموالهم: و هو المروي عن أبي عبد الله (عليه السلام).

و فيه في قوله تعالى: **{أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا}**: و في تفسير الكلبي: أنه لما نزلت هذه الآية قام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فتوضأ و أسبغ وضوءه ثم قام و صلى فأحسن صلاته ثم سأل الله سبحانه أن لا يبعث عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيئا و لا يذيق بعضهم بأس بعض.

فنزل جبرئيل و لم يجرحهم من الخصلتين الأخيرتين فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): يا جبرئيل ما بقاء أمتي مع قتل بعضهم بعضا؟ فقام و عاد إلى الدعاء فنزل: **{الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا}** الآيات فقال: لا بد من فتنة يبتلى بها الأمة بعد نبيا ليتعين الصادق من الكاذب لأن الوحي انقطع و بقي السيف و افتراق الكلمة إلى يوم القيامة.

و في نهج البلاغة: و قام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة و هل سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عنها؟ فقال (عليه السلام): لما أنزل الله سبحانه قوله: **{الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}** علمت أن الفتنة لا تنزل بنا و رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بين أظهرنا فقلت: يا رسول الله ما هذه الفتنة التي أخبرك الله بها؟ فقال: يا علي إن أمتي سيفتنون من بعدي.

و في التوحيد عن علي (عليه السلام) في حديث طويل: و قد سأله رجل عن آيات من القرآن و قوله: **{مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ}** يعني بقوله: من كان يؤمن بأنه مبعوث فإن وعد الله لآت من الثواب و العقاب فاللقاء هاهنا ليس بالرؤية و اللقاء هو البعث فافهم جميع ما في كتاب الله من لقائه فإنه يعني بذلك البعث.

أقول: مراده (عليه السلام) نفي الرؤية الحسية و التفسير بلازم المعنى.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ} (الآية)** قال: من أحب لقاء الله جاءه الأجل **{وَمَنْ جَاهَدَ}** نفسه عن اللذات و الشهوات و المعاصي **{فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}**.
{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} قال: هما اللذان ولداه.

و فيه في قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلِنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ}** قال: كان الكفار يقولون للمؤمنين: كونوا معنا فإن الذي تخافون أنتم ليس بشيء فإن كان حقا نتحمل عنكم ذنوبكم، فيعذبهم الله عز و جل مرتين: مرة بذنوبهم و مرة بذنوب غيرهم.

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنف و ابن المنذر عن ابن الحنفية قال: كان أبو جهل و صناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) يسلمون يقولون: **إنه يحرم الخمر و يحرم الزنا و يحرم ما كانت تصنع العرب فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية: {وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ}**.

و فيه أخرج أحمد عن حذيفة قال: سألت رجل على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فأمسك القوم ثم إن رجلا أعطاه فأعطى القوم فقال النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): **من سن خيرا فاستن به كان له أجره و من أجره من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئا، و من سن شرا فاستن به كان عليه وزره و من أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئا.**

أقول: و في هذا المعنى روايات أخر و في بعضها تفسير قوله: **{وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ}** بذلك.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١٤ الى ٤٠]

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ} ١٤
فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} ١٥ **وَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أُعْبُدُوا اللَّهَ**

وَ اتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ اِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ اَوْثَانًا وَ تَخْلُقُونَ
اِفْكَاءً اِنَّ الَّذِيْنَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّٰهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ
وَ اشْكُرُوا لَهُ اِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَ اِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ اُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَا عَلَي الرَّسُولِ اِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ اَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللّٰهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ اِنَّ ذَلِكَ عَلَي اللّٰهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ
سِيرُوا فِي الْاَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللّٰهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْاٰخِرَةَ اِنَّ اللّٰهَ عَلَي كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَ اِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَ مَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ فِي الْاَرْضِ وَ
لَا فِي السَّمَاءِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَ لَا نَصِيْرٍ ﴿٢٢﴾ وَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ وَ
لِقَايَةِ اَوْلِيْكَ يَبْسُوْنَ مِنْ رَحْمَتِيْ وَ اَوْلِيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ اِلَّا اَنْ قَالُوْا
اَقْتُلُوْهُ اَوْ حَرِّقُوْهُ فَاَنْجَاهُ اللّٰهُ مِنَ النَّارِ اِنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ ﴿٢٤﴾ وَ قَالَ اِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ
دُونِ اللّٰهِ اَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ
بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَ مَأْوَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نٰصِرِيْنَ ﴿٢٥﴾ فَ اَمَنْ لَهُ لُوْطٌ وَ قَالَ اِنِّيْ مُهٰجِرٌ
اِلَى رَبِّيْ اِنَّهٗ هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴿٢٦﴾ وَ وَهَبْنَا لَهُ اِسْحٰقَ وَ يَعْقُوْبَ

وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ التُّبُوءَ وَ الْكِتَابَ وَ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي آلِ آخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

﴿٢٧﴾ وَ لُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أ

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا

أَنْ قَالُوا إِثْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ

﴿٣١﴾ قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا إِمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾

وَ لَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قَالُوا لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَ

أَهْلَكَ إِلَّا إِمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا

كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ أَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ

الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَ عَاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ
وَ هَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ
فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ
مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

(بيان)

لما ذكر سبحانه في صدر السورة أن الفتنة سنة إلهية لا معدل عنها وقد جرت في الأمم السابقة عقب ذلك بالإشارة إلى قصص سبعة من الأنبياء الماضين وأممهم وهم: نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود و صالح وموسى (عليه السلام) فتنهم الله و امتحنهم فنجا منهم من نجا و هلك، منهم من هلك و قد ذكر سبحانه في الثلاثة الأول النجاة و الهلاك معا و في الأربعة الأخيرة الهلاك فحسب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، في المجمع: الطوفان الماء الكثير الغامر لأنه يطوف بكثرته في نواحي الأرض، انتهى. وقيل: هو كل ما يطوف بالشيء على كثرة و شدة من السيل و الريح و الظلام و الغالب استعماله في طوفان الماء. و التعبير بألف سنة إلا خمسين عاما دون أن يقال: تسعمائة و خمسين سنة للتكثير و الآية ظاهرة في أن الألف إلا خمسين مدة دعوة نوح (عليه السلام) ما بين بعثته إلى أخذ الطوفان فيغيّر ما في التوراة الحاضرة أنها مدة عمره (عليه السلام) و قد تقدمت الإشارة إلى ذلك في قصصه (عليه السلام) في تفسير سورة هود، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي فأنجينا

نوحا وأصحاب السفينة الراكبين معه فيها وهم أهلها و عدة قليلة من المؤمنين به و لم يكونوا ظالمين.
و قوله: **{ وَ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ }** الظاهر أن الضمير للواقعة أو للنجاة و أما رجوعه إلى السفينة فلا يخلو من بعد، و العالمين الجماعات الكثيرة المختلفة من الأجيال اللاحقة بهم.

قوله تعالى: **{ وَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }** معطوف على قوله: **{ نُوحًا }** أي و أرسلنا إبراهيم إلى قومه.

و قوله لقومه: **{ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ }** دعوة إلى التوحيد و إنذار بقرينة الآيات التالية فتفيد الجملة فائدة الحصر.

على أن الوثنية لا يعبدون الله سبحانه و إنما يعبدون غيره زعما منهم أنه تعالى لا يمكن أن يعبد إلا من طريق الأسباب الفعالة في العالم المقربة عنده كالملائكة و الجن و لو عبد لكان معبودا وحده من غير شريك فدعوتهم إلى عبادة الله بقوله: **{ أَعْبُدُوا اللَّهَ }** تفيد الدعوة إليه وحده و إن لم تقيد بأداة الحصر.

قوله تعالى: **{ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفكًا }** إلى آخر الآية، الأوثان جمع وثن بفتحتين و هو الصنم، و الإفك الأمر المصروف عن وجهه قولاً أو فعلاً.

و قوله: **{ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا }** بيان لبطلان عبادة الأوثان و يظهر به كون عبادة الله هي العبادة الحقة و بالجملة انحصار العبادة الحقة فيه تعالى **{ أَوْثَانًا }** منكر للدلالة على وهن أمرها و كون ألوهيتها دعوى مجردة لا حقيقة وراءها، أي لا تعبدون من دون الله إلا أوثانا من أمرها كذا و كذا.

و لذا عقب الجملة بقوله: **{ وَ تَخْلُقُونَ إِفكًا }** أي و تفتعلون كذبا بتسميتها آلهة و عبادتها بعد ذلك فهناك إله تجب عبادته لكنه هو الله الواحد دون الأوثان.

و قوله: **{ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا }** تعليل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسمية الأوثان آلهة و عبادتها و محصله أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله و هم الأوثان بما هم تماثيل المقربين من الملائكة و الجن إنما تعبدونهم لطلب النفع و هو أن يرضوا عنكم فيرزقوكم و يدروا عليكم الرزق لكنهم ليسوا يملكون لكم رزقا

فإن الله هو الذي يملك رزقكم الذي هو السبب الممد لبقائكم لأنه الذي خلقكم وخلق رزقكم فجعله ممد لبقائكم و الملك تابع للخلق و الإيجاد.

و لذلك عقبه بقوله: **{فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}** أي فاطلبوا الرزق من عند الله لأنه هو الذي يملكه فلا تعبدوهم بل اعبدوا الله و اشكروا له على ما رزقكم و أنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم.

و قوله: **{إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** في مقام التعليل لقوله: **{وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}** و لذا جيء بالفصل من غير عطف، و في هذا التعليل صرفهم عن عبادة الإله ابتغاء للرزق إلى عبادته للرجوع و الحساب إذ لو لا المعاد لم يكن لعبادة الإله سبب محصل لأن الرزق و ما يجري مجراه له أسباب خاصة كونية غير العبادات و القربات و لا يزيد و لا ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادة يوم الحساب تختلف بالإيمان و الكفر و العبادات و الشكر و خلافهما فليكن الرجوع إلى الله هو الباعث إلى العبادات و الشكر دون ابتغاء الرزق.

قوله تعالى: **{وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}** الظاهر أنه من تمام كلام إبراهيم (عليه السلام)، و ذكر بعضهم أنه خطاب منه تعالى لمشركي قريش و لا يخلو من بعد. و معنى الشرط و الجزاء في صدر الآية أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنه كالسنة الجارية في الأمم المشركة و قد كذب من قبلكم و أنتم منهم و في آخرهم و ليس علي بما أنا رسول إلا البلاغ المبين.

و يمكن أن يكون المراد أن حالكم في تكذيبكم كحال الأمم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيئاً حل بهم عذاب الله و لم يكونوا بمعجزين في الأرض و لا في السماء و لم يكن لهم من دون الله من ولي و لا نصير، فكذلك أنتم، و قوله: **{وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ}** يناسب الوجهين جميعاً.

قوله تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}** هذه الآية إلى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعة في خلال القصة تقيم الحجّة على المعاد و ترفع استبعادهم له متعلقه بما تقدم من حيث إن العمدة في تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير إليه قول إبراهيم: **{إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ}**.

فقوله: **{أَوْ لَمْ يَرَوْا}** إتح الضمير فيه للمكذبين من جميع الأمم من سابق و لاحق و المراد بالرؤية النظر العلمي دون الرؤية البصرية، و قوله: **{كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}** في موضع المفعول لقوله: **{يَرَوْا}** بعطف **{يُعِيدُهُ}** على موضع **{يُبْدِئُ}** خلافا لمن يرى عطفه على **{أَوْ لَمْ يَرَوْا}** و الاستفهام للتوبيخ.

و المعنى: أ و لم يعلموا كيفية الإبداء ثم الإعادة أي إنهما من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن، و قوله: **{إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}** الإشارة فيه إلى الإعادة بعد الإبداء و فيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد إنشاء و إذ كانت القدرة المطلقة تتعلق بالإيجاد فهي جائزة التعلق بالإنشاء بعد الإنشاء و هي في الحقيقة نقل للخلق من دار إلى دار و إنزال للسائرين إليه في دار القرار.

و قول بعضهم: إن المراد بالإبداء ثم الإعادة إنشاء الخلق ثم إعادة أمثالهم بعد إفنائهم غير سديد لعدم ملائمة الاحتجاج على المعاد الذي هو إعادة عين ما فنى دون مثله.

قوله تعالى: **{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** (الآية) إلى تمام ثلاث آيات أمر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يخاطبهم بما يتم به الحجّة عليهم فيرشدهم إلى السير في الأرض لينظروا إلى كيفية بدء الخلق و إنشائهم على اختلاف طبائعهم و تفاوت ألوانهم و أشكالهم من غير مثال سابق و حصر أو تحديد في عدتهم و عدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد في القدرة الإلهية فهو ينشئ النشأة الآخرة كما أنشأ النشأة الأولى فالآية في معنى قوله: **{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ}**: الواقعة: ٠٦٢.

قوله تعالى: **{يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ}** من مقول القول، و الظاهر أنه بيان لقوله: **{يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}** و قلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه و جعل باطنه ظاهره و هذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى: **{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}**: الطارق: ٠٩.

و فسروا القلب بالرد قال في المجمع: و القلب هو الرجوع و الرد فعناه أنكم تردون إلى حال الحياة في الآخرة حيث لا يملك فيه النفع و الضر إلا الله. انتهى و هذا

معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع إلى الله و الرد إليه و هو وقوفهم موقفاً تنقطع فيه عنهم الأسباب و لا يحكم فيه إلا الله سبحانه فالآية في معنى قوله: **{وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}**:
يونس: ٣٠.

و محصل المعنى: أن النشأة الآخرة هي نشأة يعذب الله فيها من يشاء و هم المجرمون و يرحم من يشاء و هم غيرهم و إليه تردون فلا يحكم فيكم غيره.

قوله تعالى: **{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}**
من مقول القول و توصيف لشأنهم يوم القيامة كما أن الآية السابقة توصيف لشأنه تعالى يومئذ.

فقوله: **{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}** أي أنكم لا تقدر أن تعجزوه تعالى يومئذ بالقوت منه و الخروج من حكمه و سلطانه بالفرار و الخروج من ملكه و النفوذ من أقطار الأرض و السماء، فالآية تجري مجرى قوله: **{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا}**:
الرحمن: ٣٣.

و قيل: الكلام في معنى «من في السماء» فحذف من لدلالة الكلام عليه و التقدير و ما أنتم بمعجزين في الأرض و لا من في السماء بمعجزين في السماء.

و هو بعيد و دلالة الكلام عليه غير مسلمة و لو بني عليه لكفى فيه أن الخطاب للأعم من البشر بتغليب جانب البشر المخاطبين على غيرهم من الجن و الملك و المعنى: و ما أنتم معاشر الخلق بمعجزين في الأرض و لا في السماء.

و قوله: **{وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}** أي ليس لكم اليوم ولي من دون الله يتولى أمركم فيغنيكم من الله و لا نصير ينصركم فيقوي جانبكم و يتم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه.

فالآية - كما ترى - تنفي ظهورهم على الله و تعجزهم له بالخروج و الامتناع عن حكمه بأقسامه فلا هم يستقلون بذلك و هو قوله: **{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ}** إلخ و لا غيرهم يستقل بذلك و هو قوله: **{وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ}** و لا الجموع منهم و من غيرهم يعجزه تعالى و هو قوله: **{وَلَا نَصِيرٍ}**.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ لِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسُؤُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ}**

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ خطاب مصروف إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خارج من مقول القول السابق **{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ}** إنح والمطلوب فيه أن ينبئه (صلى الله عليه وآله وسلم) صريح الحق فيمن يشقى و يهلك يوم القيامة فإنه أبهم ذلك في قوله أولاً: **{يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ}**.

و من الدليل عليه الخطاب في **{أُولَئِكَ}** مرتين ولو كان من كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لقليل: أولئككم».

و يؤيد ذلك أيضا قوله: **{مِنْ رَحْمَتِي}** فإن الانتقال من مثل قولنا: أولئك يؤسوا من رحمة الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام إلى قوله: **{أُولَئِكَ يَسُؤُوا مِنْ رَحْمَتِي}** يفيد التصديق والاعتراف مضافا إلى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب، و يؤيد ذلك أيضا تكرار الإشارة و ما في السياق من التأكيد.

و كان في تخصيص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا الإخبار تقوية لنفسه الشريفة و عزلا لهم عن صلاحية السمع لمثله و هم لا يؤمنون.

و المراد بآيات الله على ما يفيد إطلاق اللفظ جميع الأدلة الدالة على الوحدانية و النبوة و المعاد من الآيات الكونية و المعجزات النبوية و منها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء و هو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام و الوجه فيه الإشارة إلى أهمية الإيمان بالمعاد إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله و هو ظاهر.

و المراد بالرحمة ما يقابل العذاب و يلزم الجنة و قد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الرحمة عليها بالملازمة كقوله: **{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ}**: الجاثية: ٣٠ و قوله: **{يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}**: الإنسان: ٣١.

و المراد بإسناد اليأس إليهم إما تلبسهم به حقيقة فإنهم لمجدهم الحياة الآخرة آيسون من السعادة المؤبدة و الجنة الخالدة و إما أنه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أن الجنة لا يدخلها كافر.

و المعنى: و الذين مجدوا آيات الله الدالة على الدين الحق و خاصة المعاد أولئك يؤسوا من الرحمة و الجنة و أولئك لهم عذاب أليم.

قوله تعالى: **{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أُفْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ}** إلخ، تفريع على قوله في صدر القصة: **{وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَانْتَقُوا}**.

و ظاهر قوله: **{قَالُوا أُفْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ}** أن كلا من طرفي التردد قول طائفة منهم و المراد بالقتل القتل بالسيف و نحوه فهو قولهم أول ما ائتمروا ليجازوه و إن اتفقوا بعد ذلك على إحراقه كما قال **{قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ}**: الأنبياء: ٦٨ و يمكن أن يكون التردد من الجميع لترددهم في أمره أولا ثم اتفاقهم على إحراقه.

و قوله: **{فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ}** فيه حذف و إيجاز و تقديره ثم اتفقوا على إحراقه فأضرموا نارا فألقوه فيها فأنجاه الله منها، و قد فصلت القصة في مواضع من كلامه تعالى.

قوله تعالى: **{وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** إلى آخر الآية إذ كان لا حجة عقلية لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم مما يستنون به إلا الاستئناس بسنة من يعظمونه و يحترمون جانبه كالآباء للأبناء و الرؤساء المعظمين لأتباعهم و الأصدقاء لأصدقائهم و بالأخرة الأمة لأفرادها فهذا السبب الرابط هو عمدة ما يحفظ السنن القومية معمولا بها قائمة على ساقها.

فالاستئناس بسنة الوثنية بالحقيقة من آثار الموت الاجتماعية يرى العامة ذلك بعضهم من بعض فتبعته المودة القومية على تقليده و الاستئناس به مثله ثم هذا الاستئناس نفسه يحفظ المودة القومية و يقيم الاتحاد و الاتفاق على ساقه.

هذه حال العامة منهم و أما الخاصة فربما ركنوا في ذلك إلى ما يحسبونه حجة و ما هو بحجة كقولهم إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا يتعلق به توجهنا العبادي فن الواجب أن نتقرب إلى بعض من له به عناية كالملائكة و الجن ليقربونا إليه زلفى و يشفعوا لنا عنده.

فقوله: **{إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** خطاب منه (عليه السلام) لعامة قومه في أمر اتخاذهم الأوثان للمودة القومية ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعية، و قد أجابوه بذلك حيث سألهم عن شأنهم **{إِذْ قَالَ لِأَيُّهِمْ وَ قَوْمِهِ}**

مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ: {الأنبياء: ٥٣} قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ
إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ: {الشعراء: ٧٤}.

و من هنا يظهر أن قوله: {مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ} صالح لأن يكون منصوبا بنزع الخافض بتقدير لام التعليل و
المودة على هذا سبب مؤد إلى اتخاذ الأوثان، وأن يكون مفعولا له، و المودة غاية مقصودة من اتخاذ الأوثان،
لكن ذيل الآية إنما تلائم الوجه الثاني على ما سيظهر.

ثم عقب (عليه السلام) بقوله: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ} إلخ، بقوله: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ
يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} بين لهم عاقبة اتخاذهم الأوثان للمودة و هو باطن هذه المودة المقصودة الذي سيظهر
يوم تلى السرائر فإنهم توسلوا إلى هذا المتاع القليل بالشرك الذي هو أعظم الظلم و أكبر الكبائر الموبقة و
اجتمعوا عليه و توافقوا لكنهم سيبدو لهم حقيقة عملهم و يلحق بهم و باله فيتبرأ بعضهم من بعض و ينكره
بعضهم على بعض.

و المراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم و تبريهم منهم، كما قال تعالى: {سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَ
يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}: مريم: ٨٢ و قال: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكَكُمْ}: فاطر: ١٤ و في معناه: تبري
المتبوعين من تابعيهم، كما قال تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ}:
البقرة: ١٦٦ و المراد بلعن بعضهم بعضا لعن كل بعض صاحبه، قال تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا}:
الأعراف: ٣٨.

ثم عقب ذلك بقوله: {وَمَا أَوَّاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ} إشارة إلى لحوق الوبال و وقوع الجزاء
و هو النار التي فيها الهلاك المؤبد و لا ناصر ينصرهم و يدفع عنهم العذاب فهم إنما توسلوا إلى المودة ليتناصروا
و يتعاونوا و يتعاضدوا في الحياة لكنها عادت يوم القيامة معادة و مضادة و أورثت تبريا و خذلانا.

قوله تعالى: {فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أي آمن به لوط و الإيمان
يتعدى باللام كما يتعدى بالباء و المعنى واحد.

وقوله: **{وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي}** قيل الضمير راجع إلى لوط، وقيل: راجع إلى إبراهيم ويؤيده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم **{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ}**: الصفات: ٩٩.

و كأن المراد بالمهاجرة إلى الله هجره وطنه و خروجه من بين قومه المشركين إلى أرض لا يعترضه فيها المشركون و لا يمنعونه من عبادة ربه فعد المهاجرة مهاجرة إلى الله من المجاز العقلي.

وقوله: **{إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** أي عزيز لا يذل من نصره حكيم لا يضيع من حفظه.

قوله تعالى: **{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ}** معناه ظاهر.

قوله تعالى: **{وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي آخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}** الأجر هو الجزاء الذي يقابل العمل و يعود إلى عامله و الفرق بينه و بين الأجرة أن الأجرة تختص بالجزاء الدنيوي و الأجر يعم الدنيا و الآخرة، و الفرق بينه و بين الجزاء أن الأجر لا يقال إلا في الخير و النافع، و الجزاء يعم الخير و الشر و النافع و الضار.

و الغالب في كلامه تعالى استعمال لفظ الأجر في جزاء العمل العبودي الذي أعده الله سبحانه لعباده المؤمنين في الآخرة من مقامات القرب و درجات الولاية و منها الجنة، نعم وقع في قوله تعالى حكاية عن يوسف (عليه السلام): **{إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}**: يوسف: ٩٠ و قوله: **{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}**: يوسف: ٥٦ إطلاق الأجر على الجزاء الدنيوي الحسن.

فقوله: **{وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا}** يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجر الدنيوي الحسن و الأنسب على هذا أن يكون **{فِي الدُّنْيَا}** متعلقا بالأجر لا بالإيتاء و ربما تأيد هذا المعنى بقوله تعالى فيه (عليه السلام) في موضع آخر: **{وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي آخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}**: النحل: ١٢٢ فإن الظاهر أن المراد بالحسنة الحياة الحسنة أو العيشة الحسنة و إيتاؤها فعلية إعطائها دون تقديرها و كتابتها. و يمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعد لعامة المؤمنين في الآخرة من مقامات

القرب في حقه (عليه السلام) وإيتاؤه ذلك في الدنيا وقد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم من مقاماته (عليه السلام) في قصصه من تفسير سورة الأنعام.

وقوله: **{وَأِنَّهُ فِي آلِ آخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}** تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: **{وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي آلِ آخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}**: البقرة: ١٣٠ في الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: **{وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ}** أي و أرسلنا لوطاً أو و اذكر لوطاً إذ قال لقومه، وقوله: **{إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ}** إخبار بداعي الاستعجاب و الإنكار، و المراد بالفاحشة إتيان الذكران.

وقوله: **{مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ}** استئناف يوضح معنى الفاحشة ويؤكد، و كأن المراد أن هذا العمل لم يشع في قوم قبلهم هذا الشيوع أو الجملة حال من فاعل **{لَأْتَأْتُونَ}**.

قوله تعالى: **{أَإِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}** إلى آخر الآية، استفهام من أمر من الحري أن لا يصدقه سامع و لا يقبله ذولب و لذا أكد بالنون و اللام، و هذا السياق يشهد أن المراد بإتيان الرجل اللواط و بقطع السبيل إهمال طريق التناسل و إلغاؤها و هي إتيان النساء، فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء و ترك نكاحهن، و بإتيانهم المنكر في ناديهم و النادي هو المجلس الذي يجتمعون فيه و لا يسمى نادية إلا إذا كان فيه أهله الإتيان بالفحشاء أو بمقدماتها الشنيعة بمرأى من الجماعة.

وقيل: المراد بقطع السبيل قطع سبيل المارة بديارهم فإنهم كانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم و كانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالخذف فأبهم أصابه كان أولى به فيأخذون ماله و ينكحونه و يغرمونه ثلاثة دراهم و كان لهم قاض يقضي بذلك و قيل: بل كانوا يقطعون الطرق، و قد عرفت أن السياق يقضي بخلاف ذلك.

وقيل: المراد بإتيان المنكر في النادي أن مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المنكرات و القبائح مثل الشتم و السخف و القمار و خذف الأجار على من مر بهم و ضرب المعازف و المزامير و كشف العورات و اللواط و نحو ذلك و قد عرفت ما يقتضيه السياق.

و قوله: **{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}** استهزاء و سخرية منهم، و يظهر من جوابهم أنه كان ينذرهم بعذاب الله و قد قال الله في قصته في موضع آخر: **{وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالتُّذُرِ}**: القمر: ٣٦.

قوله تعالى: **{قَالَ رَبِّ ائْضُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ}** سؤال للفتح و دعاء منه عليهم، و قد عدّهم مفسدين لعملهم الذي يفسد الأرض و يقطع النسل و يهدد الإنسانية بالفناء.

قوله تعالى: **{وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ}** إجمال قصة هلاك قوم لوط، و قد كان ذلك يرسل من الملائكة أرسلهم الله أولا إلى إبراهيم (عليه السلام) فبشروه و بشروا امرأته بإسحاق و يعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط، و القصة مفصلة في سورة هود و غيرها.

و قوله: **{قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ}** أي قالوا لإبراهيم، و في الإتيان بلفظ الإشارة القرية هذه القرية دلالة على قربها من الأرض التي كان إبراهيم (عليه السلام) نازلا بها، و هي الأرض المقدسة.

و قوله: **{إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ}** تعليل لإهلاكهم بأنهم ظالمون قد استقرت فيهم رذيلة الظلم، و قد كان مقتضى الظاهر أن يقال: إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمرة للإشارة إلى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاك و ليس من مطلق الظلم الذي كان الناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل: إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون.

قوله تعالى: **{قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}** ظاهر السياق أنه (عليه السلام) كان يريد بقوله: **{إِنَّ فِيهَا لُوطًا}** أن يصرف العذاب بأن فيها لوطا و إهلاك أهلها يشمله فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشمله العذاب و هم أهله إلا امرأته.

لكنه (عليه السلام) لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطا و هو نبي مرسل، و إن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته و لا أنه يخوفه و يزعره و يفزعه بقهره عليهم بل كان (عليه السلام) يريد بقوله: **{إِنَّ فِيهَا لُوطًا}** أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط، فأجيب بأنهم مأمورون بإنجائه و إخراجه من بين أهل القرية و معه أهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

و الدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصة: **{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}**: هود: ٧٦ فالآيات أظهر ما يكون في أن إبراهيم (عليه السلام) كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه.

فظاهر كلامه (عليه السلام) في الآية التي نحن فيها الدفاع عن لوط و على ذلك جراه الرسل فأبقوا كلامه على ظاهره و أجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم بمن فيها و عالمون بأن فيها لوطا و معه أهله ممن لا ينبغي أن يعذب لكنهم سينجونه و أهله إلا امرأته، لكن الذي أراد إبراهيم (عليه السلام) بكلامه دفع العذاب عن أهل القرية فأجيب بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير إليه آيات سورة هود.

و للقوم في قوله: **{إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ}**، و قوله: **{قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا}** مشاجرات طويلة أعرضنا عن التعرض لها لعدم الجدوى، من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: **{وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ دَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ}** إلى آخر الآية، ضميرا الجمع في **{سِيءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ}** للرسول و الباء للسببية أي أخذته المساءة و هي سوء الحال بسببهم و ضاقت طاقته بسببهم لكونهم في صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إياهم بالسوء و ضعف لوط من أن يدفعهم عنهم و هم ضيف له نازلون بداره.

و قوله: **{وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ}** أي لا خطر محتملا يهددك و لا مقطوعا يقع عليك فإن الخوف إنما هو في المكروه الممكن و الحزن في المكروه الواقع.

و قوله: **{إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}** أي الباقين في العذاب تعليل لنفي الخوف و الحزن.

قوله تعالى: **{إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}** بيان لما يشير إليه قوله: **{إِنَّا مُنْجُوكَ وَ أَهْلَكَ}** من العذاب، و الرجز العذاب.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** ضمير التأنيث للقرية

و الترك الإبقاء أي أبقينا من القرية علامة واضحة لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتقوا الله و هي الآثار
الباقية منها بعد خرابها بنزول العذاب.

و هي اليوم مجهولة المحل لا أثر منها و ربما يقال: إن الماء غمرها بعد و هي بحر لوط، لكن الآية ظاهرة
- كما ترى - أنها كانت ظاهرة معروفة في زمن نزول القرآن و أوضح منها قوله تعالى: **{وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ}**:
الحجر: ٧٦ و قوله: **{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ}**: الصافات: ١٣٨.

قوله تعالى: **{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ أَلْ آخِرَ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ}** يدعوهم إلى عبادة الله و هو التوحيد و إلى رجاء اليوم الآخر و هو الاعتقاد بالمعاد و أن لا يفسدوا
في الأرض و كانت عمدة إفسادهم فيها على ما ذكر في قصتهم في مواضع أخر نقص الميزان و المكيال.

قوله تعالى: **{فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ}** الرجفة الاضطراب الشديد على ما
ذكره الراغب، و الجثم و الجثوم في المكان القعود فيه أو البروك على الأرض و هو كناية عن الموت و المعنى:
فكذبوا شعيبا فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم ميتين لا حراك بهم.

و قال في قصتهم في موضع آخر: **{وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ}**: هود:
٩٤ و يستظهر من ذلك أنهم أهلكوا بالصيحة و الرجفة.

قوله تعالى: **{وَ عَادًا وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ}** إلى آخر الآية غير السياق تفننا فبدأ بذكر عاد
و ثمود و كذا في الآية التالية بدأ بذكر قارون و فرعون و هامان بخلاف قصص الأمم المذكورين سابقا حيث
بدأ بذكر أنبيائهم كنوح و إبراهيم و لوط و شعيب. و قوله: **{وَ عَادًا وَ ثَمُودَ}** منصوبان بفعل مقدر تقديره و
اذكر عادا و ثمود.

و قوله: **{وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}** تزيين الشيطان لهم
أعمالهم كناية استعارية عن تحييب أعمالهم السيئة إليهم و تأكيد تعلقهم بها و صده إياهم عن السبيل صرفهم
عن سبيل الله التي هي سبيل الفطرة، و لذا قال بعضهم: إن المراد بكونهم مستبصرين أنهم كانوا قبل ذلك
على الفطرة الساذجة.

لكن الظاهر كما تقدم في تفسير قوله: **{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ}**: البقرة: ٢١٣ أن عهد الفطرة الساذجة كان قبل بعثة نوح (عليه السلام) و عاد و ثمود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل هو كونهم يعيشون على عبادة الله و دين التوحيد و هو دين الفطرة.

قوله تعالى: **{وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ}** السبق استعارة كناية من الغلبة، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ}** إلى آخر الآية أي كل واحدة من الأمم المذكورين أخذناها بذنبها ثم أخذ في التفصيل فقال: **{فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا}** و الحاصب الحجارة و قيل: الريح التي ترمي بالحصى و على الأول فهم قوم لوط، و على الثاني قوم عاد **{وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ}** و هم قوم ثمود و قوم شعيب **{وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ}** و هو قارون **{وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا}** و هم قوم نوح و فرعون و هامان و قومهما. ثم عاد سبحانه إلى كافة القصص المذكورة و ما انتهى إليه أمر تلك الأمم من الأخذ و العذاب فبين بيان عام أن الذي أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال: **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** أي فيجازيهم الله على ظلمهم لأن الدار دار الفتنة و الامتحان و هي السنة الإلهية التي لا معدل عنها فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه و من ضل فعليها.

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (عليه السلام): في حديث يذكر فيه معاني الكفر قال: **و الوجه الخامس من الكفر كفر البراءة قال تعالى: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} يعني يتبرأ بعضكم من بعض الحديث.**

أقول: و روي هذا المعنى في التوحيد عن علي (عليه السلام) في حديث طويل يجب فيه عما سئل عنه من تهافت الآيات و فيه: و الكفر في هذه الآية البراءة يقول: **يتبرأ**

بعضهم من بعض، ونظيرها في سورة إبراهيم قول الشيطان: **{إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ قَبْلُ}** و قول إبراهيم خليل الرحمن: **{كَفَرْنَا بِكُمْ} أي تبرأنا**».

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نهى عن الخذف^١ وهو قول الله: **{وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ}**.

أقول: و روي هذا المعنى أيضا عن عدة من أصحاب الجوامع عن أم هاني بنت أبي طالب و لفظ الحديث: قالت: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قول الله: **{وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ}** قال: كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون ابن السبيل ويسخرون منهم.

وفي الكافي بإسناده عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله (عليه السلام): في حديث نزول الملائكة على إبراهيم بالبشرى قال: فقال لهم إبراهيم: لما ذا جئتم؟ قالوا: في إهلاك قوم لوط. فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم؟ فقال جبرئيل: لا.

قال: فإن كان فيها خمسون؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها ثلاثون؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها عشرون؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها عشرة؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها خمسة؟ قال: لا. قال: فإن كان فيها واحد؟ قال: لا. قال: فإن فيها لوطا؟ قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. قال الحسن بن علي (عليه السلام): لا أعلم هذا القول إلا وهو يستقيم وهو قول الله عز وجل: **{يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}**.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤١ الى ٥٥]

{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} ٤١ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ٤٢

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ
تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ
الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ
وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ
تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي
صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ
رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا آل آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

بِالْعَذَابِ وَ لَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

(بيان)

تتضمن الآيات تذييلاً لقصص أولئك الأمم الماضية الهالكة بمثل ضربه الله سبحانه لاتخاذهم أولياء من دون الله فبين فيه أن بناءهم ذلك أوهن البناء ينادي ببطلانه و فساده خلق السماوات و الأرض و أنهم ليس لهم من دونه من ولي كما يذكره هذا الكتاب.

و من هنا ينتقل إلى أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بتلاوة هذا الكتاب الذي أوحى إليه و إقامة الصلاة و دعوة أهل الكتاب بقول لين و مجادلة حسناء و يجيب عن اقتراح المشركين على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يأتيهم بآيات غير القرآن و أن يجعلهم بالعذاب الذي ينذرهم به.

قوله تعالى: **{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}** إلى آخر الآية، العنكبوت معروف و يطلق على الواحد و الجمع و يذكر و يؤنث.

العناية في قوله: **{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا}** إلخ، باتخاذ الأولياء من دون الله و لذا جيء بالموصول و الصلة كما أن العناية في قوله: **{كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}** إلى اتخاذها البيت فيؤول المعنى إلى أن صفة المشركين في اتخاذهم من دون الله أولياء كصفة العنكبوت في اتخاذها بيتاً له نبأ، و هو الوصف الذي يدل عليه تنكير **{بَيْتًا}**.

و يكون قوله: **{إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ}** بيانا لصفة البيت الذي أخذته العنكبوت و لم يقل: إن أوهن البيوت لبيتها كما هو مقتضى الظاهر أخذاً للجملة بمنزلة المثل السائر الذي لا يتغير.

و المعنى: أن اتخاذهم من دون الله أولياء و هم آلهتهم الذين يتولونهم و يركنون

إليهم كاتخاذ العنكبوت بيتا هو أو هن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلا اسمه لا يدفع حرا ولا بردا ولا يكن شخصا ولا يقي من مكروه كذلك ليس لولاية أوليائهم إلا الاسم فقط لا ينفعون ولا يضررون ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا.

و مورد المثل هو اتخاذ المشركين آلهة من دون الله، فتبديل الآلهة من الأولياء لكون السبب الداعي لهم إلى اتخاذ الآلهة زعمهم أن لهم ولاية لأمرهم وتدييرا لشأنهم من جلب الخير إليهم و دفع الشر عنهم و الشفاعة في حقهم.

و الآية - مضافا إلى إيفاء هذه النكتة - تشمل بإطلاقها كل من اتخذ في أمر من الأمور و شأن من الشؤون وليا من دون الله يركن إليه و يراه مستقلا في أثره الذي يرجوه منه و إن لم يعد من الأصنام إلا أن يرجع ولايته إلى ولاية الله كولاية الرسول و الأئمة و المؤمنين كما قال تعالى: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾**: يوسف: ١٠٦.

و قوله: **﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** أي لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت ما اتخذوهم أولياء. كذا قيل.

قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** يمكن أن يكون **﴿مَا﴾** في **﴿مَا يَدْعُونَ﴾** موصولة أو نافية أو استفهامية أو مصدرية و **﴿مِنْ﴾** في **﴿مِنْ شَيْءٍ﴾** على الاحتمال الثاني زائدة للتأكيد و على الباقي للتبيين و أرحح الاحتمالات الأولان و أرححهما أولهما.

و المعنى: على الثاني أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئا أي إن الذي يعبدونه من الآلهة لا حقيقة له فيكون كما قال صاحب الكشاف توكيدا للمثل و زيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئا.

و المعنى: على الأول أن الله يعلم الشيء الذي يدعون من دونه و لا يجهل ذلك فيكون كناية عن أن المثل الذي ضربه في محله، و ليس لأوليائهم من الولاية إلا اسمها.

و يؤكد هذا المعنى الاسمان الكريمان: العزيز الحكيم في آخر الآية فهو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء فلا يشاركه في تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه في الخلق و الإيجاد أحد، الحكيم الذي يأتي بالمتقن من الفعل و التدبير فلا يفوض تدبير خلقه إلى أحد، و هذا كالتمهيد لما سيبين في قوله: **﴿حَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾**.

قوله تعالى: **{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ}** يشير إلى أن الأمثال المضروبة في القرآن على أنها عامة تفرع أسمع عامة الناس، لكن الإشراف على حقيقة معانيها و لب مقاصدها خاصة لأهل العلم ممن يعقل حقائق الأمور و لا يجمد على ظواهرها.

و الدليل على هذا المعنى قوله: **{وَمَا يَعْقِلُهَا}** دون أن يقول: و ما يؤمن بها أو ما في معناه.

فالأمثال المضروبة في كلامه تعالى يختلف الناس في تلقيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظ له منها إلا تلقي ألفاظها و تصور مفاهيمها الساذجة من غير تعمق فيها و سبر لأغوارها، و من سامع يتلقى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يغور في مقاصدها العميقة و يعقل حقائقها الأنيقة.

و فيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون الله باتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت ليس مجرد تمثيل شعري و دعوى خالية من البينة بل متك على حجة برهانية و حقيقة حقة ثابتة و هي التي تشير إليه الآية التالية.

قوله تعالى: **{خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ}** المراد بكون خلق السماوات و الأرض بالحق نفي اللعب في خلقها، كما قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}**: الدخان: ٣٩.

نخلق السماوات و الأرض على نظام ثابت لا يتغير و سنة إلهية جارية لا تختلف و لا تتخلف، و الخلق و التدبير لا يختلفان حقيقة و لا ينفك أحدهما عن الآخر، و إذ كان الخلق و الصنع ينتهي إليه تعالى انتهاء ضروريا و لا محيص فالتدبير أيضا له و لا محيص و ما من شيء غيره تعالى إلا و هو مخلوقة القائم به المملوك له لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا، و من المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنيا

١ و ذلك أن موطن التدبير الحوادث الجارية في الكون و معناه تعقيب حادث بحادث آخر على نظم و ترتيب يؤدي إلى غايات حقة و حقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق و الإيجاد باعتبار قياس الشيء إلى آخر مثله و انضمامه إليه فليس وراء الخلق و الإيجاد شيء منه.

في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لا لعب فيه والجد الذي لا هزل فيه.

فلما تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولاية حق لكونه لا يملك شيئاً بحقيقة معنى الملك بل كان ذلك منه جارياً على اللعب وتفويضه تعالى أمر التدبير إليه لعباً منه تعالى وتقدس إذ ليس إلا فرضاً لا حقيقة له وهما لا واقع له وهو معنى اللعب.

ومن يظهر أن ولاية من يدعون ولايته ليس لها إلا اسم الولاية من غير مسمى كما أن بيت العنكبوت كذلك.

وقوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ}** تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية لهم ولغيرهم لكون المنتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم.

قوله تعالى: **{أُنزِلَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}** إنخ، لما ذكر إجمال قصص الأمم وما انتهى إليه شركهم وارتكابهم الفحشاء والمنكر من الشقاء اللازم والخسران الدائم انتقل من ذلك مستأنفاً للكلام إلى أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) بتلاوة ما أوحى إليه من الكتاب لكونه خير رادع عن الشرك وارتكاب الفحشاء والمنكر بما فيه من الآيات البينات التي تتضمن حججاً نيرة على الحق وتشتمل على القصص والعبر والمواعظ والتبشير والإنذار والوعد والوعيد يرتدع بتلاوة آياته تاليه ومن سمعه.

وشفعه بالأمر بإقامة الصلاة التي هي خير العمل وعلل ذلك بقوله: **{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}** والسياق يشهد أن المراد بهذا النهي ردع طبيعة العمل عن الفحشاء والمنكر بنحو الاقتضاء دون العلية التامة.

فلطبيعة هذا التوجه العبادي إذ أتى به العبد وهو يكرهه كل يوم خمس مرات ويداوم عليه وخاصة إذا زاول عليه في مجتمع صالح يؤتى فيه بمثل ما أتى به ويهتم فيه بما اهتم به أن يردعه عن كل معصية كبيرة يستشعنه الذوق الديني كقتل النفس عدواناً وأكل مال اليتيم ظلماً والزنا واللواط، وعن كل ما يتكره الطبع السليم والفطرة المستقيمة ردعاً جامعاً بين التلقين والعمل.

وذلك أنه يلقنه أولاً بما فيه من الذكر الإيمان بوحدايته تعالى والرسالة وجزاء يوم الجزاء وأن يخاطب ربه بإخلاص العباداة والاستعانة به وسؤال الهداية إلى صراطه

المستقيم متعوذا من غضبه و من الضلال، و يحمله ثانيا على أن يتوجه بروحه و بدنه إلى ساحة العظمة و الكبرياء و يذكر ربه بحمده و الثناء عليه و تسبيحه و تكبيره ثم السلام على نفسه و أتراه و جميع الصالحين من عباد الله.

مضافا إلى حمله إياه على التطهر من الحدث و الخبث في بدنه و الطهارة في لباسه و التحرز عن الغصب في لباسه و مكانه و استقبال بيت ربه فالإنسان لو داوم على صلاته مدة يسيرة و استعمل في إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك في نفسه ملكة الارتداع عن الفحشاء و المنكر البتة، و لو أنك و كلت على نفسك من يربها تربية صالحة تصلح بها لهذا الشأن و تتحلى بأدب العبودية لم يأمرك بأزيد مما تأمرك به الصلاة و لا روضك بأزيد مما تروضك به.

و قد استشكل على الآية بأنا كثيرا ما نجد من المصلين من لا يبالي ارتكاب الكبائر و لا يرتدع عن المنكرات فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء و المنكر.

و لذلك ذكر بعضهم أن الصلاة في الآية بمعنى الدعاء و المراد الدعوة إلى أمر الله و المعنى: أقم الدعوة إلى أمر الله فإن ذلك يردع الناس عن الفحشاء و المنكر. و فيه أنه صرف الكلام عن ظاهره.

و ذكر آخرون أن الصلاة في الآية في معنى النكرة و المعنى أن بعض أنواع الصلاة أو أفرادها يوجب الانتهاء عن الفحشاء و المنكر و هو كذلك و ليس المراد الاستغراق حتى يرد الإشكال.

و ذكر قوم أن المراد نهيا عن الفحشاء و المنكر ما دامت قائمة و المصلي في صلاته كأنه قيل: إن المصلي ما دام مصليا في شغل من معصية الله بإتيان الفحشاء و المنكر.

و قال بعضهم: إن الآية على ظاهرها و الصلاة بمنزلة من ينهى و يقول: لا تفعل كذا و لا تقترف كذا لكن النهي لا يستوجب الانتهاء فليس نهى الصلاة بأعظم من نهيه تعالى كما في قوله: **{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ يَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ}**: النحل: ٩٠ و نهيه تعالى لا يستوجب الانتهاء و ليس الإشكال إلا مبني على توهم استلزام النهي للانتهاء و هو توهم باطل.

و عن بعضهم في دفع الإشكال أن الصلاة تقام لذكر الله كما قال تعالى: **{أَقِم}**

الصَّلَاةُ لِذِكْرِي و من كان ذاكرا لله تعالى منعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه و كل من تراه يصلي و يأتي بالفحشاء و المنكر فهو بحيث لو لم يصل لكان أشد إتيانا فقد أثرت الصلاة في تقليل فحشائه و منكره.

و أنت خير بأن شيئا من هذه الأجوبة لا يلائم سياق الحكم و التعليل في الآية فإن الذي يعطيه السياق أن الأمر بإقامة الصلاة إنما علل بقوله: **{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ}** ليفيد أن الصلاة عمل عبادي يورث إقامته صفة روحية في الإنسان تكون رادعة له عن الفحشاء و المنكر فتتنزه النفس عن الفحشاء و المنكر و تطهر عن قذارة الذنوب و الآثام.

فالمراد به التوسل إلى ملكة الارتداع التي هي من آثار طبيعة الصلاة بنحو الاقتضاء لا أنها أثر بعض أفراد طبيعة الصلاة كما في الجواب الثاني، و لا أنها أثر الاشتغال بالصلاة ما دام مشتغلا بها كما في الجواب الثالث، و لا أن المراد هو التوسل إلى تلقي نهي الصلاة فحسب من غير نظر إلى الانتهاء عن نهيا كأنه قيل أقم الصلاة لتسمع نهيا كما في الجواب الرابع، و لا أن المراد أقم الصلاة لينهاك الذكر الذي تشتمل عليه عن الفحشاء و المنكر كما في الجواب الخامس.

فالحق في الجواب أن الردع أثر طبيعة الصلاة التي هي توجه خاص عبادي إلى الله سبحانه و هو بنحو الاقتضاء دون الاستيجاب و العلية التامة فربما تخلف عن أثرها لمقارنة بعض الموانع التي تضعف الذكر و تقربه من الغفلة و الانصراف عن حاق الذكر فكهما قوي الذكر و كل الحضور و الخشوع و تحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء و المنكر و كلما ضعف ضعف الأثر.

و أنت إذا تأملت حال بعض من تسمى بالإسلام من الناس و هو تارك الصلاة وجدته يضيع بإضاعة الصلاة فريضة الصوم و الحج و الزكاة و الخمس و عامة الواجبات الدينية و لا يفرق بين طاهر و نجس و حلال و حرام فيذهب لوجهه لا يلوي على شيء ثم إذا قست إليه حال من يأتي بأدنى مراتب الصلاة مما يسقط به التكليف، وجدته مرتدعا عن كثير مما يقترفه تارك الصلاة غير مكترث به ثم إذا قست إليه من هو فوقه في الاهتمام بأمر الصلاة وجدته أكثر ارتداعا منه و على هذا القياس.

وقوله: **{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}** قال الراغب في المفردات: الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه والذكر يقال اعتبارا باستحضاره. وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ولذلك قيل: الذكر ذكران ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ، و كل قول يقال له ذكر. انتهى.

و الظاهر أن الأصل في معناه هو المعنى الأول و تسمية اللفظ ذكرا إنما هو لاشتماله على المعنى القلبي و الذكر القلبي بالنسبة إلى اللفظي كالأثر المترتب على سببه و الغاية المقصودة من الفعل.

و الصلاة تسمى ذكرا لاشتمالها على الأذكار القولية من تهليل و تحميد و تنزيه و هي باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنها مجموعها ممثل لعبودية العبد لله سبحانه كما قال: **{إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}**: الجمعة: ٩ و هي باعتبار آخر أمر يترتب عليه الذكر ترتب الغاية على ذي الغاية يشير إليه قوله تعالى: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}**: طه: ١٤.

و الذكر الذي هو غاية مترتبة على الصلاة أعني الذكر القلبي بمعنى استحضار المذكور في ظرف الإدراك بعد غيبته نسيانا أو إدامة استحضاره، أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان و أعلاه كعبا و أعظمه قدرا و أثرا فإنه السعادة الأخيرة التي هيئت للإنسان و مفتاح كل خير.

ثم إن الظاهر من سياق قوله: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}** إن قوله: **{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}** متصل به مبين لأثر آخر للصلاة و هو أكبر مما بين قبله، فيقع قوله: **{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}** موقع الإضراب و الترقى و يكون المراد الذكر القلبي الذي يترتب على الصلاة ترتب الغاية على ذي الغاية فكأنه قيل: أقم الصلاة لتردعك عن الفحشاء و المنكر بل الذي تفيده من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك أي من النهي عن الفحشاء و المنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير و هو مفتاح كل خير و النهي عن الفحشاء و المنكر بعض الخير.

و من المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاة من الذكر أو نفس الصلاة.

و الجملة أيضا واقعة موقع الإضراب، و المعنى: بل الذي تشتمل عليه الصلاة من ذكر الله أو نفس الصلاة التي هي ذكر الله أكبر من هذا الأثر الذي هو النهي عن الفحشاء و المنكر لأن النهي أثر من آثارها الحسنة و **{لَذِكْرُ اللَّهِ}** على الاحتمالين جميعا من المصدر المضاف إلى مفعوله و المفضل عليه لقوله: **{أَكْبَرُ}** هو النهي عن الفحشاء و المنكر.

و لهم في معنى الذكر و كون المضاف إليه فاعلا أو مفعولا للمصدر و كون المفضل عليه خاصا أو عاما أقوال أخر.

فقيل: معنى الآية: ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله تعالى و ذلك أن الله تعالى يذكر من ذكره لقوله: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}**: البقرة: ١٥٢ و قيل: المعنى: ذكر الله تعالى العبد أكبر من الصلاة، و قيل: المعنى: لذكر الله العبد أكبر من كل شيء.

و قيل: المعنى: لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة، و قيل: المعنى: لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من ذكره خارج الصلاة، و قيل: المعنى: لذكر العبد لله أكبر من سائر أعماله، و قيل: المعنى: للصلاة أكبر من سائر الطاعات و قيل: المعنى: لذكر العبد لله عند الفحشاء و المنكر و ذكر نبيه عنهما أكبر من زجر الصلاة و ردعها، و قيل: إن قوله: **{أَكْبَرُ}** معرى من معنى التفضيل لا يحتاج إلى مفضل عليه كقوله: **{مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو}**.

فهذه أقوال لهم متفرقة أغمضنا عن البحث عما فيها إثارا للاختصار، و التدبر في الآية يكفي مئونة البحث على أن التحكم في بعضها ظاهر لا يخفى.

و قوله: **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}** أي ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه و لا تغفلوا عنه ففيه حث و تحريض على المراقبة و خاصة على القول الأول.

قوله تعالى: **{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}** لما أمر في قوله: **{أَنْتَلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ}** إِنْخ، بالتبليغ و الدعوة من طريق تلاوة الكتاب عقبه ببيان كيفية الدعوة فنهى عن مجادلة أهل الكتاب و هم على ما يقتضيه الإطلاق اليهود و النصارى و يلحق بهم المجوس و الصابئون إلا بالمجادلة التي هي أحسن المجادلة.

و المجادلة إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظا و طعنا و إهانة، فمن حسنها أن تقارن

رفقا و لينا في القول لا يتأذى به الخصم و أن يقترب المجادل من خصمه و يدنو منه حتى يتفقا و يتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج و عناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام و الاقتراب بوجه زادت حسنا على حسن فكانت أحسن.

ولهذا لما نهى عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم، فإن المراد بالظلم بقرينة السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق و اللين و الاقتراب في المطلوب بل يتلقى حسن الجدل نوع مذلة و هوان للمجادل و يعتبره تمويها و احتيالا لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجح معهم المجادلة بالأحسن. و لهذا أيضا عقب الكلام ببيان كيفية الاقتراب معهم و بناء المجادلة على كلمة يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه و يتعاضدان على ظهور الحق فقال: **{وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلَهُنَا وَ إِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}** و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ أُنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ}** أي على تلك الصفة و هي الإسلام لله و تصديق كتبه و رسله أنزلنا إليك القرآن.

و قيل: المعنى: مثل ما أنزلنا إلى موسى و عيسى الكتاب أنزلنا إليك الكتاب و هو القرآن.

فقوله: **{فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}** إلخ، تفرع على نحو نزول الكتاب أي لما كان القرآن نازلا في الإسلام لله و تصديق كتبه و رسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله و تصديق كتبه و رسله، و من هؤلاء و هم المشركون من عبدة الأوثان من يؤمن به و ما يجحد بآياتنا و لا ينكرها من أهل الكتاب و هؤلاء المشركين إلا الكافرون و هم الساترون للحق بالباطل.

و قد احتمل أن يكون المراد بالذين آتيناهم الكتاب المسلمين و المشار إليه هؤلاء أهل الكتاب و هو بعيد، و مثله في البعد إرجاع الضمير في «يؤمن به» إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

و في قوله: **{وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ}** نوع استقلال لمن آمن به من المشركين.

قوله تعالى: **{وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَحْطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأْرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}** التلاوة هي القراءة سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط و المراد به

في الآية الثاني بقريئة المقام، و الخط الكتابة، و المبطلون جمع مبطل وهو الذي يأتي بالباطل من القول، و يقال أيضا للذي يبطل الحق أي يدعي بطلانه، و الأنسب في الآية المعنى الثاني و إن جاز أن يراد المعنى الأول.

و ظاهر التعبير في قوله: **{وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا}** إنخ، نفي العادة أي لم يكن من عادتك أن تتلوا و تخط كما يدل عليه قوله في موضع آخر: **{فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ}**: يونس: ١٦.

و قيل المراد به نفي القدرة أي ما كنت تقدر أن تتلوا و تخط من قبله و الوجه الأول أنسب بالنسبة إلى سياق الحجّة و قد أقامها لتثبيت حقية القرآن و نزوله من عنده.

و تقييد قوله: **{وَلَا تَخْطُهُ}** بقوله: **{بِيَمِينِكَ}** نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل: رأيته بعيني و سمعته بأذني.

و المعنى: و ما كان من عادتك قبل نزول القرآن أن تقرأ كتابا و لا كان من عادتك أن تخط كتابا و تكتبه - أي ما كنت تحسن القراءة و الكتابة لكونك أميا و لو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يبطلون الحق بدعوى أنه باطل لكن لما لم تحسن القراءة و الكتابة و استمرت على ذلك و عرفوك على هذه الحال لمخالطتك لهم و معاشرتكم معهم لم يبق محل ريب لهم في أمر القرآن النازل إليك أنه كلام الله تعالى و ليس تلفيقا لفقته من كتب السابقين و نقلته من أقاصيصهم و غيرهم حتى يرتاب المبطلون و يعتذروا به.

قوله تعالى: **{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ}** إضراب عن مقدر يستفاد من الآية السابقة كأنه لما نفى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) التلاوة و الخط معا تحصل من ذلك أن القرآن ليس بكتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدر بقوله: **{بَلْ هُوَ} أي القرآن {آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}**.

و قوله: **{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ}** المراد بالظلم بقريئة المقام الظلم لآيات الله بتكذيبها و الاستكبار عن قبولها عنادا و تعنتا.

قوله تعالى: **{وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا أَلْ آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}** لما ذكر الكتاب و أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتلوه و يدعوهم إليه به و أن منهم

من يؤمن به و منهم من لا يؤمن به و هم الكافرون الظالمون أشار في هذه الآية و الآيتين بعدها إلى عدم اعتنائهم بالقرآن الذي هو آية النبوة و اقتراحهم على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يأتيهم بآيات غيره و الجواب عنه.

فقوله: **{وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ}** اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضا منهم أنه ليس بآية و زعما منهم أن النبي يجب أن يكون ذا قوة إلهية غيبية يقوى على كل ما يريد، و في قولهم: لو لا أنزل عليه، دون أن يقولوا: لو لا يأتينا بآيات نوع سخرية كقولهم: **{يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَايِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}**: الحجر: ٥٧.

وقوله: **{قُلْ إِنَّمَا أَلْ آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ}** جواب عن زعمهم أن من يدعي الرسالة يدعي قوة غيبية يقدر بها على كل ما أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد و كيفما شاء لا يشاركه في القدرة عليها غيره فليس إلى النبي شيء إلا أن يشاء الله ثم زاده بيانا بقصر شأن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) في الإنذار فحسب بقوله: **{إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}**.

قوله تعالى: **{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ}** إلى آخر الآية توطئة و تمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنه ليس بآية، و الاستفهام للإنكار و الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أي يكفيهم آية هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك و هو يتلى عليهم فيسمعونه و يعرفون مكاتته من الإعجاز و هو مملو رحمة و تذكرة للمؤمنين.

قوله تعالى: **{قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا}** إلقاء جواب إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ليجيبهم به و هو أن الله سبحانه شهيد بيني و بينكم فيما نتخاصم فيه و هو أمر الرسالة فإنه سبحانه يشهد في كلامه الذي أنزله علي برسالي و هو تعالى يعلم ما في السماوات و الأرض من غير أن يجهل شيئا و كفى بشهادته لي دليلا على دعواي.

و ليس لهم أن يقولوا إنه ليس بكلام الله لمكان تحديه مرة بعد مرة في خلال الآيات و منه يعلم أن قوله: **{قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا}** ليس دعوى مجردة أو كلاما خطايا بل هو بيان استدلالي و حجة قاطعة على ما عرفت.

وقوله: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الذي فيه شهادته على الرسالة و هم بكفرهم بالله

الحق يؤمنون بالباطل و لذلك خسروا في إيمانهم.

قوله تعالى: **{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَأَجَلَ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ}** إشارة إلى قولهم كقول متقدميهم: اتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، و قد حكى الله عنهم استعجالهم في قوله: **{وَلَيْنُ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ}**: هود: ٠٨.

و المراد بالأجل المسمى هو الذي قضاه لبي آدم حين أهبط آدم إلى الأرض فقال: **{وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}**: البقرة: ٣٦ و قال: **{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ}**: الأعراف: ٣٤.

و هذا العذاب الذي يحول بينه و بينهم الأجل المسمى هو الذي يستحقونه لمطلق أعمالهم السيئة كما قال عز من قائل: **{وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا}**: الكهف: ٥٨ و لا ينافي ذلك تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحة على الرسول من غير إهمال و إنظار، قال تعالى: **{وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ}**: إسرء: ٥٩.

قوله تعالى: **{يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ}** إلى آخر الآية، تكرار **{يَسْتَعْجِلُونَكَ}** للدلالة على كمال جهلهم و فساد فهمهم و أن استعجالهم استعجال لأمر مؤجل لا معجل أولا و استعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم لأنهم مجزيون بأعمالهم التي لا تفارقهم ثانيا.

و الغشاوة و الغشاية التغطية بنحو الإحاطة، و قوله: **{يَوْمَ يَغْشَاهُمْ}** ظرف لقوله: **{لَمُحِيطَةٌ}** و الباقي ظاهر.

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى: **{وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}**: روى الواحدى بالإسناد عن جابر قال: تلا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية و قال: **العالم الذي يعقل عن الله فعلم بطاعته و اجتنب سخطه.**

و فيه في قوله تعالى: **{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}**: روى أنس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **من لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا.**

أقول: ورواه في الدر المنثور عن عمران بن الحصين و ابن مسعود و ابن عباس و ابن عمر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ورواه القمي في تفسيره مضمرا مرسلا.

و فيه و أيضا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **لا صلاة لمن لم تطع الصلاة و طاعة الصلاة أن تنتهي عن الفحشاء و المنكر.**

أقول: ورواه في الدر المنثور عن ابن مسعود و غيره.

و فيه و روى أنس: أن فتى من الأنصار كان يصلي الصلوات مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: **إن صلواته تنهاه يوما ما.**

و فيه روى أصحابنا عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **من أحب أن يعلم قبلت صلواته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلواته عن الفحشاء و المنكر فبقدر ما منعت قبلت صلواته.**

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}**: في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام): في قوله: **{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}** يقول: **ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إياه ألا ترى أنه يقول: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}.**

أقول: و هذا أحد المعاني التي تقدم نقلها.

و في نور الثقلين عن مجمع البيان و روى أصحابنا عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **ذكر الله عند ما أحل و**

حرم.

و فيه عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: **أن تموت و لسانك رطب من ذكر الله عز و جل.**

و فيه و قال (صلى الله عليه وآله وسلم): **يا معاذ إن السابقين الذين يسهرون بذكر الله عز و جل و من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله عز و جل.**

و في الكافي بإسناده عن العبدى عن أبي عبد الله (عليه السلام): في قول الله عز و جل: **{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}** قال: **هم الأئمة.**

أقول: و هذا المعنى مروى في الكافي، و في بصائر الدرجات، بعدة طرق: و هو من الجري بمعنى انطباق الآية على أكمل المصاديق بدليل الرواية الآتية.

وفي البصائر بإسناده عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قلت له: **{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}** فقال: **أنتم هم من عسى أن يكونوا؟**

وفي الدر المنثور أخرج الإسماعيلي في معجمه وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة قال: كان ناس من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يكتبون من التوراة فذكروا ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: **إن أحق الحق وأضل الضلالة قوم رغبوا عما جاء به نبيهم إلى نبي غير نبيهم وإلى أمة غير أمتهم ثم أنزل الله: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُثَلِّ عَلَيْهِمْ}** (الآية).

وفيه أخرج ابن عساكر عن ابن أبي مليكة قال: أهدى عبد الله بن عامر بن كريز إلى عائشة هدية فظنت أنه عبد الله بن عمر فردتها وقالت: يتبع الكتب وقد قال الله: **{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُثَلِّ عَلَيْهِمْ}** فقيل لها: إنه عبد الله بن عامر فقبلها.

أقول: ظاهر الروايتين وخاصة الأولى الآية في بعض الصحابة و سياق الآيات يأبى ذلك.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٥٦ الى ٦٠]

{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ٥٦} كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ٥٨} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩} وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦٠}

(بيان)

لما استفرغ الكلام في توبيخ من ارتد عن دينه من المؤمنين خوف الفتنة عطف الكلام على بقية المؤمنين ممن استضعفه المشركون بمكة و كانوا يهددونهم بالفتنة و العذاب فأمرهم أن يصبروا و يتوكلوا على ربهم و أن يهاجروا منها إن أشكل عليهم أمر الدين و إقامة فرائضه، و أن لا يخافوا أمر الرزق فإن الرزق على الله سبحانه و هو يرزقهم إن ارتحلوا و هاجروا كما كان يرزقهم في مقامهم.

قوله تعالى: **{ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ }** توجيه الخطاب إلى المؤمنين الذين وقعوا في أرض الكفر لا يقدرّون على التظاهر بالدين الحق و الاستئناس بسنته و يدل على ذلك ذيل الآية.

و قوله: **{ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ }** الذي يظهر من السياق أن المراد بالأرض هذه الأرض التي نعيش عليها و إضافتها إلى ضمير التكلم للإشارة إلى أن جميع الأرض لا فرق عنده في أن يعبد في أي قطعة منها كانت، و وسعة الأرض كناية عن أنه إن امتنع في ناحية من نواحيها أخذ الدين الحق و العمل به فهناك نواح غيرها لا يمتنع فيها ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعة على أي حال.

و قوله: **{ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ }** الفاء الأولى للتفريع على سعة الأرض أي إذا كان كذلك فاعبدوني وحدي و الفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام و الظاهر أن تقديم «إيائي» لإفادة الحصر فيكون قصر قلب و المعنى: لا تعبدوا غيري بل اعبدوني، و قوله: **{ فَاعْبُدُونِ }** قائم مقام الجزاء.

و محصل المعنى: أن أرضي واسعة إن امتنع عليكم عبادتي في ناحية منها تسعكم لعبادتي أخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدوني وحدي و لا تعبدوا غيري فإن لم يمكنكم عبادتي في قطعة منها فهاجروا إلى غيرها و اعبدوني وحدي فيها.

قوله تعالى: **{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }** (الآية) تأكيد للأمر السابق في قوله: **{ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ }** و كالتوطئة لقوله الآتي: **{ الَّذِينَ صَبَرُوا }** إلخ.

و قوله: **{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ }** من الاستعارة بالكناية و المراد أن كل نفس

سُموت لا محالة، والاتفات في قوله: **{ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}** من سياق التكلم وحده إلى سياق التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

و محصل المعنى: أن الحياة الدنيا ليست إلا أياما قلائل و الموت وراءه ثم الرجوع إلينا للحساب فلا يصدنكم زينة الحياة الدنيا و هي زينة فانية عن التهيؤ للقاء الله بالإيمان و العمل ففيه السعادة الباقية و في الحرمان منه هلاك مؤبد مخلد.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا}** الخ، بيان لأجر الإيمان و العمل الصالح بعد الموت و الرجوع إلى الله و فيه حث و ترغيب للمؤمنين على الصبر في الله و التوكل على الله، و التبوئة الإنزال على وجه الإقامة، و الغرف جمع غرفة و هي في الدار، العلية العالية.

و قد بين تعالى أولا ثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ثم سماهم عاملين إذ قال: **{نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}** ثم فسر العاملين بقوله: **{الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** فعاد بذلك الصبر و التوكل سمة خاصة للمؤمنين فدل بذلك كله أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر في الله و توكل عليه، فعلى المؤمن أن يصبر في الله على كل أذى و جفوة ما يجد إلى العيشة الدينية سبيلا فإذا تعذرت عليه إقامة مراسم الدين في أرضه فليخرج و ليهاجر إلى أرض غيرها و ليصبر على ما يصيبه من التعب و العناء في الله.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** و وصف للعاملين، و الصبر أعم من الصبر عند المصيبة و الصبر على الطاعة و الصبر على المعصية، و إن كان المورد مورد الصبر عند المصيبة فهو المناسب لحال المؤمنين بمكة المأمورين بالهجرة.

قوله تعالى: **{وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** كأي للتكثير، و حمل الرزق هو ادخاره كما يفعله الإنسان و النمل و الفأر و النحل من سائر الحيوان.

و في الآية تطيب لنفس المؤمنين و تقوية لقلوبهم أنهم لو هاجروا في الله أتاهم رزقهم أينما كانوا و لا يموتون جوعا فزازقهم ربهم دون أوطانهم، يقول: و كثير من

الدواب لا رزق مدخر لها يرزقها الله ويرزقكم معاشر الآدميين الذين يدخرون الأرزاق و هو السميع العليم.

و في تذييل الآية بالاسمين الكريمين السميع العليم إشارة إلى المحجة على مضمونها و هو أن الإنسان و سائر الدواب محتاجون إلى الرزق يسألون الله ذلك بلسان حاجتهم إليه و الله سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه و مقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم.

(بحث روائي)

في تفسير القمي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام): في قوله تعالى: **{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ}** يقول: لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتموهم أن يفتنوكم عن دينكم فإن أرضي واسعة، و هو يقول: **{فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ}** فقال: **{أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا}**.

و في الجمع: و قال أبو عبد الله (عليه السلام): معناه إذا عصي الله في أرض أنت بها فأخرج منها إلى غيرها.

و في العيون بإسناده إلى الرضا (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **لما نزلت {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}** قلت: يا رب أيموت الخلائق كلهم و يبقى الأنبياء؟ فنزلت **{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}**:

أقول: و رواه أيضا في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي، و لا يخلو متنه عن شيء فإن قوله: **{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}** يخبر عن موته (صلى الله عليه وآله وسلم) و موت سائر الناس، و كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلم أن الأنبياء المتقدمين عليه ماتوا فلا معنى لقوله: أيموت الخلائق كلهم و يبقى الأنبياء.

و في الجمع عن عطاء عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى دخلنا بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر و يأكل فقال لي: يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟ فقلت: لا أشتهي يا رسول الله. قال: أنا أشتهي و هذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما و لو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى و قيصر فكيف بك يا ابن عمر

إذا بقيت مع قوم يخبئون رزق سنتهم لضعف اليقين فوالله ما برحنا حتى نزلت {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

أقول: وقد روى الرواية في الدر المنثور، و ضعف سندها وهي مع ذلك لا تلائم وقوع الآية في سياق ما تقدمها.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٦١ الى ٦٩]

{وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَ مَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(بيان)

الآيات تصرف ان خطاب عن المؤمنين إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو في المعنى خطاب عام يشمل الجميع و إن كان في اللفظ خاصا به (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن الحجج المذكورة فيها مما يناله الجميع.

و الآيات تذكر مناقضات في آراء المشركين فيما ألقى في الفصل السابق على المؤمنين فآمنوا به فإنهم يعترفون أن خالق السماوات و الأرض و مدبر الشمس و القمر و عليهما مدار الأرزاق هو الله و أن منزل الماء من السماء و محيي الأرض بعد موتها هو الله سبحانه ثم يدعون غيره ليرزقهم و هم يعبدونه تعالى إذا ركبوا البحر ثم إذا أنجاهم عبدوا غيره و يقيمون في حرم آمن و هو نعمة لهم فيؤمنون بالباطل و يجحدون الحق و يكفرون بنعمة الله.

و ما ختمت به السورة من قوله: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}** يلائم ما في مفتح السورة **{أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}** إلى أن قال **{وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ}** إنح.

قوله تعالى: **{وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}**.

خلق السماوات و الأرض من الإيجاد و تسخير الشمس و القمر و ذلك بتحويل حالاتهما بالطلوع و الغروب و القرب و البعد من الأرض من التدبير الذي يتفرع عليه كينونة أرزاق الإنسان و سائر الحيوان و هذا الخلق و التدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر.

و إذا كان الله هو الخالق و بيده تدبير السماوات و يتبعه تدبير الأرض و كينونة الأرزاق كان هو الذي يجب أن يدعى للرزق و سائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان إلى غيره ممن لا يملك شيئا و هو قوله: **{فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}** أي فإذا كان الخلق و تدبير الشمس و القمر إليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء إلى دعوة غيره من الأصنام و عبادته.

قوله تعالى: **{اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ**

عَلِيمٌ في الآية تصريح بما تلوح إليه الآية السابقة، و القدر التضييق و يقابله البسط و المراد به لازم معناه و هو التوسعة، و وضع الظاهر موضع المضمرة في قوله: **{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** للدلالة على تعليل الحكم، و المعنى: و هو بكل شيء عليم لأنه الله.

و المعنى: الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده و يضيقه على من يشاء و لا يشاء إلا على طبق المصلحة لأنه بكل شيء عليم لأنه الله الذي هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال.

قوله تعالى: **{وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا}** إلى قوله **{لَا يَعْقِلُونَ}** المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات في الربيع.

و قوله: **{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ}** أي احمد الله على تمام الحجة عليهم باعترافهم بأن الله هو المدير لأمر خلقه فلزمهم أن يعبدوه دون غيره من الأصنام و أرباب الأصنام.

و قوله: **{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}** أي لا يتدبرون الآيات و لا يحكمون العقول حتى يعرفوا الله و يميزوا الحق من الباطل فهم لا يعقلون حق التعقل.

قوله تعالى: **{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}** اللهو ما يلهيك و يشغلك عما يهملك فالحياة الدنيا من اللهو لأنها تلهي الإنسان و تشغله بزيتها المزوقة الفانية عن الحياة الخالدة الباقية.

و اللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظاما خياليا لغاية خيالية كملعب الصبيان و الحياة الدنيا لعب لأنها فانية سريعة البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه و يتولعون به ساعة ثم يتفرقون و سرعان ما يتفرقون.

على أن عامة المقاصد التي يتنافس فيها المتنافسون و يتكالب عليه الظالمون أمور وهمية سرابية كالأموال و الأزواج و البنين و أنواع التقدم و التصدر و الرئاسة و المولوية و الخدم و الأنصار و غيرها فالإنسان لا يملك شيئا منها إلا في ظرف الوهم و الخيال.

و أما الحياة الآخرة التي يعيش فيها الإنسان بكماله الواقعي الذي اكتسبه بإيمانه و عمله الصالح فهي المهمة التي لا لهو في الاشتغال بها و الجد الذي لا لعب فيها و لا لغو و لا تأثيم، و البقاء الذي لا فناء معه، و اللذة التي لا ألم عندها و السعادة التي لا شقاء دونها، فهي الحياة بحقيقة معنى الكلمة.

و هذا معنى قوله سبحانه: **{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ أَحْيَوَانٌ}**.

وفي الآية كما ترى قصر الحياة الدنيا في اللهو واللعب والإشارة إليها بهذه المفيدة للتحقير وقصر الحياة الآخرة في الحيوان وهو الحياة وتأكيده بأدوات التأكيد كان واللام وضمير الفصل والجملة الاسمية.

وقوله: **{لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}** أي لو كانوا يعلمون لعلموا أن الأمر كما وصفنا.

قوله تعالى: **{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}** تفرغ على ما تحصل من الآيات السابقة من شأنهم وهو أنهم يؤفكون وأن كثيرا منهم لا يعقلون أي لما كانوا يؤفكون ويصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأكثرهم لا يعقلون ويناقضون أنفسهم بالاعتراف والمجد **{فَإِذَا رَكِبُوا}** «إلخ».

والركوب الاستعلاء بالجلوس على الشيء المتحرك وهو متعد بنفسه وتعديته في الآية بفي لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه، والمعنى: فإذا ركبوا مستقرين في الفلك أو استقروا في الفلك راكبين، ومعنى الآية ظاهر وهي تحكي عنهم تناقضا آخر وكفرانا للنعمة.

قوله تعالى: **{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}** اللام في **{لِيَكْفُرُوا}** و **{لِيَتَمَتَّعُوا}** لام الأمر وأمر الأمر بما لا يرتضيه تهديد وإنذار كقولك لمن تهدده: «افعل ما شئت»، قال تعالى: **{اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}**: حم السجدة: ٤٠.

واحتتمل كون اللام للغاية، والمعنى: أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهي بهم إلى كفران النعمة التي آتيناهاهم وإلى التمتع، وأول الوجهين أوفق لقوله في ذيل الآية: **{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}**، ويؤيده قوله في موضع آخر: **{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}**: الروم: ٣٤ ولذا قرأه من قرأ **{وَلِيَتَمَتَّعُوا}** بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر.

قوله تعالى: **{أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}** الحرم الأمن هو مكة وما حولها وقد جعله الله مأمنا بدعاء إبراهيم (عليه السلام) والتخطف

كالخطف استلاب الشيء بسرعة واختلاسه وقد كانت العرب يومئذ تعيش في التغاور والتناهب و لا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل و السبي و النهب لكنهم يحترمون الحرم و لا يتعرضون لمن أقام بها فيها.

و المعنى: أ و لم ينظروا أنا جعلنا حرماً آمناً لا يتعرض لمن فيه بقتل أو سبي أو نهب و الحال أن الناس يختلسون من حولهم خارج الحرم.

و قوله: **{أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}** توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة و هي نعمة عظيمة بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام و هي باطلة ليس لها إلا الاسم.

قوله تعالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ}** تهديد لهم بالنار بتوسيمهم بأشد الظلم و أعظمه و هو افتراء الكذب على الله بالقول بالآلهة و أن الله اتخذهم شركاء لنفسه، و تكذيب الإنسان بالحق لما جاءه و الوصفان جميعاً موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام و كذبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كفرون و مثنوى الكافرين و محل إقامتهم في الآخرة جهنم.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}** الجهد الوسع و الطاقة و المجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو و الجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، و مجاهدة الشيطان، و مجاهدة النفس كذا ذكره الراغب.

و قوله: **{جَاهِدُوا فِينَا}** أي استقر جهادهم فينا و هو استعارة كناية عن كون جهده مبدولاً فيما يتعلق به تعالى من اعتقاد عمل، فلا ينصرف عن الإيمان به و الائتمار بأوامره و الانتهاء عن نواهيه بصارف يصرفه.

و قوله: **{لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}** أثبت لنفسه سبلاً و هي أيا ما كانت تنتهي إليه تعالى فإنما السبيل سبيل لتأديته إلى ذي السبيل و هو غايتها فسبيله هي الطرق المقربة منه و الهادية إليه تعالى، و إذ كانت نفس المجاهدة من الهداية كانت الهداية إلى السبيل هداية على هداية فتنتطبق على مثل قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى}**: محمد: ١٧.

و مما تقدم يظهر أن لا حاجة في قوله: **{فِينَا}** إلى تقدير مضاف كشأن و التقدير في شأننا.

وقوله: **{وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}** قيل أي معية النصره و المعونة و تقدم الجهاد المحتاج إليهما قرينة قوية على إرادة ذلك. انتهى. وهو وجه حسن و أحسن منه أن يفسر بمعية الرحمة و العناية فيشمل معية النصره و المعونة و غيرهما من أقسام العنايات التي له سبحانه بالمحسنين من عبادته لكامل عنايته بهم و شمول رحمته لهم، و هذه المعية أخص من معية الوجود الذي ينبئ عنه قوله تعالى: **{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}**: الحديد: ٤.

و قد تقدمت الإشارة إلى أن الآية خاتمة للسورة منعطفة على فاتحتها.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا و البيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان و هو يسعى لدار الغرور.**

و فيه أخرج جويرير عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا: يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا و العرب أكثر منا فتى بلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس فأنزل الله: **{أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا}** (الآية).

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}**: في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **هذه الآية لآل محمد (عليه السلام) و لأشباعهم.**

(٣٠) (سورة الروم مكية، و هي ستون آية) (٦٠)

[سورة الروم (٣٠): الآيات ١ الى ١٩]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ
سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ
يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ⑥ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ⑦ أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ
النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ⑧ أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⑩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَأُوا
السُّوَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ⑪ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ⑫ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ⑬

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدِ
يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ آلِ آخِرَةٍ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ
تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

(بيان)

تفتتح السورة بوعد من الله و هو أن الروم ستغلب الفرس في بضع سنين بعد انهزامهم أيام نزول السورة
عن الفرس ثم تنتقل منه إلى ذكر ميعاد أكبر و هو الوعد بيوم يرجع الكل فيه إلى الله و تقيم الحجّة على المعاد
ثم تنعطف إلى ذكر آيات الربوبية و تصف صفاته تعالى الخاصة به ثم تحتتم السورة بوعد النصر للنبي (صلى الله
عليه وآله و سلم) و تؤكد القول فيه إذ تقول: **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}** و قد
قيل قبيل ذلك: **{وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}**.

فغرض السورة هو الوعد القطعي منه تعالى بنصرة دينه و قد قدم عليه نصر الروم على الفرس في بضع
سنين من حين النزول ليستدل بإنجاز هذا الوعد على إنجاز ذلك الوعد، و كذا يحتج به و من طريق العقل
على أنه سينجز وعده بيوم القيامة لا ريب فيه.

قوله تعالى: **{غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ}** الروم جيل من الناس على ساحل البحر الأبيض بالمغرب كانت لهم إمبراطورية واسعة منبسطة إلى الشامات وقعت بينهم وبين الفرس حرب عوان في بعض نواحي الشام قريبا من الحجاز فغلبت الفرس وانهزمت الروم، والظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز واللام للعهد.

قوله تعالى: **{وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ}** ضمير الجمع الأول للروم و كذا الثالث و أما الثاني فقد قيل إنه للفرس و المعنى: و الروم من بعد غلبة الفرس سيغلبون، و يمكن أن يكون الغلب من المصدر المبني للمفعول و الضمير للروم كالضميرين قبلها و بعدها فلا تختلف الضمائر و المعنى: و الروم من بعد مغلوبيتهم سيغلبون. و البضع من العدد من ثلاثة إلى تسعة.

قوله تعالى: **{لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ}** قبل و بعد مبيان على الضم فهناك مضاف إليه مقدر و التقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم و من بعد أن غلبت يأمر بما يشاء فينصر من يشاء و يخذل من يشاء. و قيل: المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين و هو وقت كونهم مغلوبين و من بعد كونهم مغلوبين و هو وقت كونهم غالبين أي وقت كونهم مغلوبين و وقت كونهم غالبين و المعنى الأول أرجح إن لم يكن راجحا متعينا.

قوله تعالى: **{وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}** الظرف متعلق بيفرح و كذا قوله **{يَنْصُرُ}** و المعنى: و يوم إذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم، ثم استأنف و قال: **{يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ}** تقريرا لقوله: **{لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ}**.

و قوله: **{وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}** أي عزيز يعز بنصره من يشاء رحيم يخص برحمته من يشاء.

و في الآية وجوه أخر ضعيفة ذكرها:

منها: أن قوله **{وَ يَوْمَئِذٍ}** عطف على قوله: **{مِنْ قَبْلُ}** و المراد به شمول سلطنته تعالى لجميع الأزمنة الثلاثة: الماضي و المستقبل و الحال كأنه قيل: لله الأمر من قبل و من بعد و يومئذ ثم ابتداء و قيل: يفرح المؤمنون بنصر الله. و فيه أنه يبطل

انسجام الآية و ينقطع به آخرها عن أولها.

و منها: أن قوله: **{بِنَصْرِ}** متعلق بقوله: **{الْمُؤْمِنُونَ}** دون **{يَفْرَحُ}** و يدل بالملازمة المقامية أن غلبة الروم بنصر من الله.

و فيه أن لازمه أن يفرح المؤمنون يوم غلبة الفرس و يوم غلبة الروم جميعا فإن في الغلبة نصرا و كل نصر من الله قال تعالى: **{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}**: آل عمران: ١٢٦ فقصر فرح المؤمنين بالنصر بيوم غلبة الروم ترجيح بلا مرجح فافهمه.

و منها: أن المراد بنصر الله نصر المؤمنين على المشركين يوم بدر دون نصر الروم على الفرس و إن توافق النصران زمانا فكأنه قيل: إن الروم سيغلبون في بضع سنين و يوم يغلبون يغلب المؤمنون المشركين فيفرحون بنصر الله إياهم.

و فيه أن هذا المعنى لا يلائم قوله بعد: **{يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ}**.

و منها: أن المراد بالنصر نصر المؤمنين بصدق إخبارهم بغلبة الروم، و قيل: النصر هو استيلاء بعض الكفار على بعض و تفرق كلمتهم و انكسار شوكتهم. و هذان و ما يشبههما وجوه لا يعبأ بها.

قوله تعالى: **{وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** **{وَعَدَ اللَّهُ}** مفعول مطلق محذوف العامل و التقدير وعد الله و عدا و إخلاف الوعد خلاف إنجازه و قوله: **{وَعَدَ اللَّهُ}** تأكيد و تقرير للوعد السابق في قوله: **{سَيَغْلِبُونَ}** و **{يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ}** كما أن قوله: **{لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ}** تأكيد و تقرير لقوله: **{وَعَدَ اللَّهُ}**.

و قوله: **{لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ}** كقوله: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}**: الرعد: ٣١ و خلف الوعد و إن لم يكن قبيحا بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضرورة فلا يحسن منه خلف الوعد في حال.

على أن خلف الوعد يلزم النقص دائما و يستحيل النقص عليه تعالى.

على أنه تعالى أخبر في كلامه بأنه لا يخلف الميعاد و هو أصدق الصادقين و هو القائل عز من قائل: **{وَلَا خَلْقَ أَقُولُ}**: ص: ٨٤.

و قوله: **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** أي هم جهلاء بشئونه تعالى لا يثقون بوعدده و يقيسونه إلى أمثالهم ممن يصدق و يكذب و ينجز و يخلف.

قوله تعالى: **{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}** جملة **{يَعْلَمُونَ}** على ما ذكره في الكشاف، بدل من قوله: **{لَا يَعْلَمُونَ}** وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه و جعله بحيث يقوم مقامه و يسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل و بين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا انتهى .
و قيل: الجملة استثنائية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله حق و أن الله الأمر من قبل و من بعد و أنه ينصر المؤمنين على الكافرين. انتهى و هذا أظهر.

و تنكير **{ظَاهِرًا}** للتحقير و ظاهر الحياة الدنيا ما يقابل باطنها و هو الذي يناله حواسهم الظاهرة من زينة الحياة فيرشدهم إلى اقتنائها و العكوف عليها و الإخلاق إليها و نسيان ما وراءها من الحياة الآخرة و المعارف المتعلقة بها و الغفلة عما فيه خيرهم و نفعهم بحقيقة معنى الكلمة.
و قيل: الظهور في الآية بمعنى الزوال و استشهد بقوله:

و غيرها الواشون أني أحبها * و تلك شكاة ظاهر عنك عارها**

و المعنى: يعلمون أمرا زائلا لا بقاء له لكنه معنى شاذ الاستعمال.

قوله تعالى: **{أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُّسَمًّى}** إلخ المراد من خلق السماوات و الأرض و ما بينهما و ذلك جملة العالم المشهود بالحق أنها لم تخلق عبثا لا غاية لها وراءها بأن يوجد و يعدم ثم يوجد ثم يعدم من غير غرض و غاية فهو تعالى إنما خلقها لغاية تترتب عليها.
ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لاحق غاية للجزء السابق و كل آت خلفا لماضيه بل هو بأجزائه فان بئد فهناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم و هذا المعنى هو المراد بتقييد قوله: **{مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا}** بقوله: **{وَ أَجَلٍ مُّسَمًّى}** بعد تقييده بقوله: **{إِلَّا بِالْحَقِّ}**.

فقوله: **{أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ}** الاستفهام للتعجب، و كونهم في أنفسهم استعارة كناية عن فراغ البال و حضور الذهن كأنهم عند اشتغالهم بأمر الدنيا و سعيهم للمعيشة و تشوش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرين

في أنفسهم فيكون تفكرهم حينئذ مجتمعا غير متفرق فيهديمهم إلى الحق ويرشدهم إلى الواقع.

وقيل: المراد بتفكرهم في أنفسهم أن يتفكروا في خلق أنفسهم وأن الواحد منهم محدث و المحدث - بالفتح - يحتاج إلى محدث - بالكسر - قديم حي قادر عليم حكيم فلا يخلق ما يخلق عبثا بل لغاية مطلوبة وليست تعود إليه نفسه لغناء المطلق بل إلى الخلق وهو الثواب ولا يكون إلا لصالح العمل فلا بد من دين مشرع يميز العمل الصالح من السيئ فلا بد من دار يمتحنون فيها وهي الدنيا و دار يثابون فيها وهي الآخرة.

و فيه أن الجملة أعني قوله: **{أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ}** صالح في نفسه لأن يراد منها هذا المعنى لكن اتصال قوله: **{مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ}** إلخ، بها ياباه لاستلزامه بطلان الاتصال لعدم الارتباط بين صدر الآية و ذيلها على هذا التقدير.

و قوله: **{مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى}** هو الفكر الذي يجب عليهم أن يمعنوا فيه النظر في أنفسهم و تقريره على ما تقدم أن الله سبحانه ما خلق هذا العالم كلا و لا بعضا إلا خلقا ملابسا للحق أو مصاحبا للحق أي لغاية حقيقية لا عبثا لا غاية له و لا إلى أجل معين فلا يبقى شيء منها إلى ما لا نهاية له بل يفنى و ينقطع و إذا كان كل من أجزائه و المجموع مخلوقا ذا غاية تترتب عليها و ليس شيء منها دائم الوجود كانت غايته مترتبة عليه بعد انقطاع وجوده و فناءه، و هذا هو الآخرة التي ستظهر بعد انقضاء الدنيا و فناءها.

و قوله: **{وَ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}** مسوق سوق التعجيب كما بدأت الآية باستفهام التعجيب، و المراد بلقاء الله هو الرجوع إليه في المعاد، و قد عبر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجا فكيف يمكن أن يبتدءوا منه ثم لا ينتهوا إليه، و لذلك أكده بإن إشارة إلى أن الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدق به.

قوله تعالى: **{أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}** إلى آخر الآية، لما ذكر كفر كثير من الناس بالمعاد و ذلك أمر يلغو معه الدين الحق ذكرهم حال الأمم الكافرة و ما انتهت إليه من سوء العذاب لعلهم يعتبرون بها فيرجعوا عما هم عليه من الكفر. و إثارة الأرض قلبها ظهر البطن للحرث و التعمير و نحو ذلك.

وقوله: **{وَلَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** أي بالكفر والمعاصي.

قوله تعالى: **{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ}** بيان لما انتهى إليه أمر أولئك الظالمين ولذا عبر بـ **{ثُمَّ}**، و **{عَاقِبَةَ}** بالنصب خبر كان واسمه **{السُّوَاىَ}** قدم الخبر عليه لإفادة الحصر و **{أَسَاءُوا}** مقطوع عن المتعلق بمعنى عملوا السوء، و السوَاىَ الخلة التي يسوء صاحبها والمراد بها سوء العذاب و **{أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}** بحذف لام التعليل والتقدير لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

و المعنى: ثم كان سوء العذاب هو الذي انتهى إليه أمر أولئك الذين عملوا السوء لم تكن لهم عاقبة غيرها لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

وقيل: إن **{السُّوَاىَ}** مفعول لقوله: **{أَسَاءُوا}** و خبر كان هو قوله: **{أَنْ كَذَّبُوا}** إلخ، والمراد أن المعاصي ساقطهم إلى الكفر بتكذيب آيات الله والاستهزاء بها.

و فيه: أنه في نفسه معنى صحيح لكن المناسب للمقام هو المعنى الأول لأن المقام مقام الاعتبار والإنذار و المناسب له بيان انتهاء معاصيهم إلى سوء العذاب لا انتهاء معاصيهم المتفرقة إلى التكذيب والاستهزاء الذي هو أعظمها.

قوله تعالى: **{اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** بعد ما ذكر الحجة وتكذيب كثير من الناس لخص القول في نتيجتها وهو أن البدء والعود بيده سبحانه وسيرجع إليه الجميع، والمراد بالخلق المخلوقون، ولذا أرجع إليه ضمير الجمع في ترجعون.

قوله تعالى: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ}** ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعة وهي ساعة الرجوع إليه تعالى للحساب والجزاء، والإبلاس اليأس من الله وفيه كل الشقاء.

قوله تعالى: **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}** يريد أنهم على يأسهم من الرحمة من ناحية أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء لله فعبدوهم ليشفعوا لهم عند الله كما كانوا يقولون في الدنيا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله و كانوا بعبادة شركائهم كافرين ساترين.

قوله تعالى: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ}** إلى قوله **{مُحْضَرُونَ}** قال

في المجمع: الروضة البستان المتناهي منظرا و طيبا. انتهى. و قال في المفردات: الخبر الأثر المستحسن إلى أن قال و قوله عز و جل: **{ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ }** أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم. انتهى.
و المراد بتفرق الخلق يومئذ تميز المؤمنين الصالحين من المجرمين و دخول هؤلاء النار و دخول أولئك الجنة على ما يشير إليه الآيتان التاليتان.

و لزوم هذا التميز و التفرق في الوجود هو الذي أخذه الله سبحانه حجة على ثبوت المعاد حيث قال: **{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ }**:
الجاثية: ٢١.

قوله تعالى: **{ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ }** لما ذكر أنه يبدأ الخلق ثم يعيدهم و يرجعهم للقائه فيفرقهم طائفتين: أهل الجنة و النعمة و أهل النار و العذاب، أما أهل الجنة فهم المؤمنون العاملون للصلوات و أما أهل النار فهم الكفار المكذبون لآيات الله و قد ذكر أنهم كانوا في الدنيا أهل قوة و نعمة لكنهم نسوا الآخرة و كذبوا بآيات الله و استهزؤا بها حتى انتهى بهم الأمر إلى سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون.
فتحصل من ذلك أن في دار الخلقة تديرا إلهيا متقنا صالحا جميلا على أجمل ما يكون و أن للإنسان على توالي الأزمنة و الدهور آثاما و خطيئات من العقيدة السيئة في حق ربه و اتخاذ شركاء له و إنكار لقائه إلى سائر المعاصي.

ذيل الكلام بتسبيحه كلما تجدد حين بعد حين و تحميده على صنعه و تديره في السماوات و الأرض و هو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزه عن هذه الاعتقادات الباطلة و الأعمال الردية و محمود في جميع ما خلقه و دبره في السماوات و الأرض.

و من هناك يظهر:

أولا: أن التسبيح و التحميد في الآيتين إنشاء تنزيه و ثناء منه تعالى لا من غيره حتى يكون المعنى: قولوا سبحان الله و قولوا الحمد لله فقد تكرر في كلامه تعالى تسبيحه و تحميده لنفسه كقوله: **{ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ }**:
الصفات: ١٨٠ و قوله: **{ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ }**: الفرقان: ١.

و ثانيا: أن المراد بالتسبيح و التحميد معناهما المطلق دون الصلوات اليومية المفروضة كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدرًا. و المعنى: قولوا سبحان الله و قولوا الحمد لله.

و ثالثا: أن قوله: **{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** معترضة واقعة بين المعطوف و المعطوف عليه، و قوله: **{وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}** معطوفان على محل **{حِينَ تُمْسُونَ}** لا على قوله: **{فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** حتى يختص المساء و الصباح بالتسبيح و السماوات و الأرض و العشي و الظهرية بالتحميد بل الأوقات و ما فيها للتسبيح و الأمكنة و ما فيها للتحميد.

فالسباق يشير إلى أن ما في السماوات و الأرض من خلق و أمر هو الله يستدعي بحسنه حمدا و ثناء لله سبحانه و أن للإنسان على مر الدهور و تغير الأزمنة و الأوقات من الشرك و المعصية ما يتنزه عنه ساحة قدسه تعالى و تقدس.

نعم هاهنا اعتبار آخر يتداخل فيه التحميد و التسبيح و هو أن الأزمنة و الأوقات على تغيرها و تصرمها من جملة ما في السماوات و الأرض فهي بوجودها يثني على الله تعالى، ثم كل ما في السماوات و الأرض بفرها إليه تعالى و ذلتها دونه و نقصها بالنسبة إلى كماله تعالى تسبحة كما قال: **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}**: إسرائ: ٤٤ لكن هذا الاعتبار غير منظور إليه في الآيتين اللتين نحن فيهما.

و للمفسرين في الآيتين أقوال أخر متفرقة أشرنا إلى المهم منها في الوجوه التي قدمناها.

و تغيير السياق في قوله: **{وَعَشِيًّا}** لكون العشي لم يبين منه فعل من باب الإفعال بخلاف المساء و الصباح و الظهرية حيث بني منها الإمساء و الإصباح و الإظهار بمعنى الدخول في المساء و الصباح و الظهرية كذا قيل. و الخطاب الذي في الآيتين في قوله: **{تُمْسُونَ}** و **{تُصْبِحُونَ}** و **{تُظْهِرُونَ}** ليس من الالتفات في شيء بل تعميم للخطاب الذي للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) منذ شرعت السورة، و المعنى:

فإذا كان الأمر على هذه السبيل فالله منزه حينما دخلتم أنتم معاشر البشر في مساء و حينما دخلتم في صباح وفي العشي و حينما دخلتم في ظهيرة وله الثناء الجميل في السماوات والأرض.

و نظير هذا التعميم ما في قوله سابقا: **{ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** و لاحقا في قوله: **{وَ كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ}**.

قوله تعالى: **{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ}** ظاهر إخراج الحي من الميت و بالعكس خلق ذوي الحياة من الأرض الميتة ثم تبديل ذوي الحياة أرضا ميتة، و قد فسر بخلق المؤمن من الكافر و خلق الكافر من المؤمن فإنه يعد المؤمن حيا و الكافر ميتا، قال تعالى: **{أَوَ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا}**: الأنعام: ١٢٢.

و أما إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض و ابتهاجها بالنبات في الربيع و الصيف بعد نحودها في الخريف و الشتاء، و قوله: **{وَ كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ}** أي تبعثون و تخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإحياء الأرض بعد موتها، و قد تقدم تفسير نظير صدر الآية و ذيلها مرارا.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج أحمد و الترمذي و حسنه و النسائي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني في الكبير و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل و الضياء عن ابن عباس: في قوله: **{الم غُلِبَتِ الرُّومُ}** قال: غلبت و غلبت.

قال: كان المشركون يحبون أن يظهر فارس على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، و كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب، فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) - فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **أما إنهم سيغلبون فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا و بينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا و كذا و إن ظهرتم كان لكم كذا و كذا فجعل لهم خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فقال: أ لا جعلته أراه قال: دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله: **{الم غُلِبَتِ الرُّومُ}** فغلبت ثم غلبت بعد.**

يقول الله: **{لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ}** قال سفيان: سمعت أنهم قد ظهروا يوم بدر.

أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر مختلفة المضامين في الجملة ففي بعضها أن المقامرة كانت بين أبي بكر و أبي بن خلف و في بعضها أنها كانت بين المسلمين و المشركين و كان أبو بكر من قبل المسلمين و أبي من قبل المشركين، و في بعضها أنها كانت بين الطائفتين، و في بعضها بين أبي بكر و بين المشركين كما في هذه الرواية.

ثم الأجل المضروب في بعضها ثلاث سنين، و في بعضها خمس، و في بعضها ست، و في بعضها سبع سنين. و في بعضها أن الأجل المضروب أولا انقضى بمكة و هو سبع سنين فإدهم أبو بكر سنتين بأمر من النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فغلبت الروم، و في بعضها خلافه.

ثم في بعضها أن الأجل الثاني انقضى بمكة و في بعضها أنه انقضى بعد الهجرة و كانت غلبة الروم يوم بدر، و في بعضها يوم الحديبية.

و في بعضها أن أبا بكر لما قرهم بغلبة الروم أخذ منهم الخطر و هو مائة قلوص و جاء به إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فقال: إنه سحت تصدق به.

و الذي نتفق فيه الروايات أنه قامهم قمرهم و كان القمار بإشارة من النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و وجه ذلك بأنه كان قبل تحريم القمار فإنه حرم مع الخمر في سورة المائدة و قد نزلت في آخر عهد النبي (صلى الله عليه وآله و سلم).

و قد تحقق بما قدمناه في تفسير آية الخمر و الميسر أن الخمر كانت محرمة من أول البعثة و كان من المعروف من الدين أنه يحرم الخمر و الزنا.

على أن الخمر و الميسر من الإثم بنص آية البقرة: **{يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}** (الآية): البقرة: ٢١٩ و الإثم محرم بنص آية الأعراف: **{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ}** (الآية): الأعراف: ٣٣ و الأعراف من العتائق النازلة بمكة فمن الممتنع أن يشير النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بالمقامرة.

و على تقدير تأخر الحرمة إلى آخر عهد النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) يشكل قوله (صلى الله عليه وآله و سلم) لأبي بكر لما أتى بالخطر إليه أنه سحت ثم قوله: تصدق به. فلا سبيل إلى تصحيح شيء من ذلك

بالموازن الفقهاء و قد تكلفوا في توجيه ذلك بما لا يزيد إلا إشكالا.

ثم إن ما في الرواية أن الفرس كانوا عبدة الأوثان لا يوافق ما كان عليه القوم فإنهم وإن كانوا مشركين لكنهم كانوا لا يتخذون أوثانا.

و في تفسير القمي في قوله: **{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}** قال: يرون حاضر الدنيا و يتغافلون عن الآخرة.

و في الخصال: و سئل الصادق (عليه السلام) عن قول الله تعالى: **{أَمْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}** فقال: **أ ولم ينظروا في القرآن.**

و في تفسير القمي و قوله عز و جل: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ}** قال: إلى الجنة و النار.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

{وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَ مِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ ابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا

أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿١٥﴾ وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿١٦﴾

(بيان)

يذكر في هذا الفصل عدة من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية والألوهية، ويشار فيها إلى امتزاج الخلق والتدبير وتداخلهما ليتضح بذلك أن الربوبية بمعنى ملك التدبير والألوهية بمعنى المعبودية بالحق لا يستحقهما إلا الله الذي خلق الأشياء وأوجدها، لا كما يزعم الوثني أن الخلق لله وحده والتدبير والعبادة لأرباب الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله، وليس له سبحانه إلا أنه رب الأرباب وإله الآلهة.

قوله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}** المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقة الإنسان إلى الأرض فإن مراتب تكون الإنسان من مضغة أو علقة أو نطفة أو غيرها مراتب أرضية تنتمي إلى العناصر الأرضية.

وقوله: **{ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}** إذا فجائية أي يفاجئكم أنكم أناسي تنتشرون في الأرض أي يخلقكم من تركيبات أرضية المترقب منها كينونة أرضية ميتة أخرى مثلها لكن يفاجئكم دفعة أنه يصير بشرا ذوي حياة و شعور عقلي ينتشرون في الأرض في سبيل تدمير أمر الحياة فقوله: **{ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}** في معنى قوله: **{ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ}**: المؤمنون: ١٤.

نخلق الإنسان أي جمع أجزائه من الأرض وتأليفها آية و كينونة هذا المجموع إنسانا ذا حياة و شعور عقلي آية أو آيات أخر تدل على صانع حي عليم يدبر الأمر و يجري هذا النظام العجيب.

و قد ظهر بهذا المعنى أن **{ثُمَّ}** للتراخي الربوبي و الجملة معطوفة على قوله: **{خَلَقَكُمْ}** لا على قوله: **{أَنْ خَلَقَكُمْ}**.

قوله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}**

إلى آخر الآية، قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى من الحيوانات المتزاوجة: زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها: زوج، قال تعالى: **{فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى}** وقال: **{وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ}** و زوجة لغة رديئة و جمعها زوجات إلى أن قال و جمع الزوج أزواج. انتهى.

فقوله: **{أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}** أي خلق لأجلكم أو لينفعكم من جنسكم قرائن و ذلك أن كل واحد من الرجل و المرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزا يتم فعله بمقارنة الآخر و يتم بمجموعهما أمر التوالد و التناسل فكل واحد منهما ناقص في نفسه مفتقر إلى الآخر و يحصل من المجموع واحد تام له أن يلد و ينسل، و لهذا النقص و الافتقار يتحرك الواحد منهما إلى الآخر حتى إذا اتصل به سكن إليه لأن كل ناقص مشتاق إلى كماله و كل مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره و هذا هو الشبق المودع في كل من هذين القرينين.

و قوله: **{وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}** المودة كأنها الحب الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخشوع الذي هو نوع تأثر نفساني عن العظمة و الكبرياء.

و الرحمة نوع تأثر نفساني عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال و حاجته إلى رفع نقيصته يدعو الراحم إلى إنجائه من الحرمان و رفع نقصه.

و من أجل موارد المودة و الرحمة المجتمع المنزلي فإن الزوجين يتلازمان بالمودة و المحبة و هما معا و خاصة الزوجة يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم و عجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية فيقومان بواجب العمل في حفظهم و حراستهم و تغذيتهم و كسوتهم و إيوائهم و تربيتهم و لو لا هذه الرحمة لانقطع النسل و لم يعيش النوع قط.

و نظير هذه المودة و الرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدني بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودة و يرحم المساكين و العجزة و الضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياة.

و المراد بالمودة و الرحمة في الآية الأوليان على ما يعطيه مناسبة السياق أو الأخيرتان على ما يعطيه إطلاق الآية.

وقوله: **{لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}** لأنهم إذا تفكروا في الأصول التكوينية التي يبعث الإنسان إلى عقد المجتمع من الذكورة و الأنوثة الداعيتين إلى الاجتماع المنزلي و المودة و الرحمة الباعثتين على الاجتماع المدني ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع و استكمال الإنسان في حياتية الدنيا و الأخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهية في تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم و تدهش به أحلامهم.

قوله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ}** إلى آخر الآية. الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربية و الفارسية و الأردوية و غيرها و باختلاف الألوان اختلاف الأمم في ألوانهم كالبياض و السواد و الصفرة و الحمرة.

و يمكن أن يستفاد اختلاف الألسنة من جهة النغم و الأصوات و نحو التكلم و النطق و باختلاف الألوان اختلاف كل فردين من أفراد الإنسان بحسب اللون لو دقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن.

فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون في نظام الخلق على آيات دقيقة دالة على أن الصنع و الإيجاد مع النظام الجاري فيه لا يقوم إلا بالله و لا ينتهي إلا إليه.

قوله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ}** إلى آخر الآية، الفضل الزيادة على مقدار الحاجة و يطلق على العطية لأن المعطي إنما يعطي ما فضل من مقدار حاجته، و المراد به في الآية الكريمة الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق.

و في خلق الإنسان ذا قوى فعالة تبعثه إلى طلب الرزق و رفع حوائج الحياة للبقاء بالحركة و السعي ثم هدايته إلى الاستراحة و السكون لرفع متاعب السعي و تجديد تجهيز القوى و تخصيص الليل و النهار المتعاقبين للسعي و السكون و التسبيب إلى وجود الليل و النهار بأوضاع سماوية قائمة بالأرض و الشمس لآيات نافعة لمن له سمع و اع يعقل ما يسمع فإذا وجده حقا اتبعه.

قال في الكشاف، في الآية: هذا من باب اللف و ترتيبه: و من آياته منامكم و ابتغائكم من فضله بالليل و النهار إلا أنه فصل بين القرنيين الأولين بالقرنيين الآخرين لأنهما زمانان و الزمان و الواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد و يجوز أن

يراد منامكم في الزمانين وابتغؤكم فيهما، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن و أسد المعاني ما دل عليه القرآن. انتهى.

وقد ظهر مما تقدم معنى تذييل الآية بقوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}**.

قوله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}** الظاهر أن الفعل نزل منزلة المصدر و لذلك لم يصدر بأن المصدرية كما صدر به قوله: **{أَنْ خَلَقَكُمْ}** وقوله: **{أَنْ خَلَقَ لَكُمْ}** و تنزيل الفعل منزلة المصدر لغة عربية جيدة و عليه يحمل المثل السائر: «و تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» و لا ضير في حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتي في مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير بقوله: **{مَنَامُكُمْ} {يُرِيكُم} {أَنْ تُقُومَ}**.

و احتمال في قوله: **{يُرِيكُم}** أن يكون بحذف أن المصدرية و التقدير أن يريكم البرق و أيد بقراءة النصب في يريكم.

و احتمال أن يكون من حذف المضاف، و التقدير: و من آياته آية أن يريكم البرق، و احتمال أن يكون التقدير و من آياته آية البرق ثم استونف فقيل: يريكم البرق إنخ، و احتمال أن يكون **{مِنْ آيَاتِهِ}** متعلقا بقوله: **{يُرِيكُم}**، و التقدير: و يريكم من آياته البرق، و احتمال أن يكون **{مِنْ آيَاتِهِ}** حالا من البرق، و التقدير: و يريكم البرق حال كون البرق من آياته.

و هذه وجوه متفرقة لا يخفى عليك بعدها على أن بعضها يخرج الكلام في الآية عن موافقة السياق في الآيات السابقة النظيرة له كالوجهين الأخيرين.

وقوله: **{خَوْفًا وَطَمَعًا}** أي خوفا من الصاعقة و طمعا في المطر، وقوله: **{وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}** تقدم تفسيره كرارا، و قوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** أي إن أهل التعقل يفقهون أن هناك عناية متعلقة بهذه المصالح فليس مجرد اتفاق و صدفة.

قوله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ}** القيام مقابل القعود و لما كان أعدل حالات الإنسان حيث يقوى به على عامة أعماله أستعير لثبوت الشيء و استقراره على أعدل حالاته كما يستعار

لتدبير الأمر، قال تعالى: **{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}**: الرعد: ٣٣.

و المراد بقيام السماء و الأرض بأمر من الله ثبوتها على حالهما من حركة و سكون و تغير و ثبات بأمره تعالى و قد عرف أمره بقوله: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**: يس: ٨٢.

و قوله: **{ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ}** **{إِذَا}** الأولى شرطية و **{إِذَا}** الثانية فجائية قائمة مقام فاء الجزاء و **{مِنَ الْأَرْضِ}** متعلق بقوله: **{دَعْوَةً}** و الجملة معطوفة على محل الجملة الأولى لأن المراد بالجملة أعني قوله: **{ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ}** إنخ البعث و الرجوع إلى الله و ليس في عداد الآيات بل الجملة إخبار بأمر احتج عليه سابقا و سيحتج عليه لاحقا.

و أما قول القائل: إن الجملة على تأويل المفرد و هي معطوفة على **{أَنْ تَقُومَ}** و التقدير و من آياته قيام السماء و الأرض بأمره ثم خروجكم إذا دعاكم دعوة من الأرض.

فلازمه كون البعث معدودا من الآيات و ليس منها على أن البعث أحد الأصول الثلاثة التي يحتج بالآيات عليه، و لا يحتج به على التوحيد مثلا بل لو احتج فبالتوحيد عليه فافهم ذلك.

و لما كانت الآيات المذكورة من خلق البشر من تراب و خلقهم أزواجا و اختلاف ألسنتهم و ألوانهم و منامهم و ابتغائهم من فضله و إراءة البرق و تنزيل الماء من السماء كلها آيات راجعة إلى تدبير أمر الإنسان كان المراد بقوله: **{أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ}** بمعونة السياق ثبات السماء و الأرض على وضعهما الطبيعي و حالهما العادية ملائمتين لحياة النوع الإنساني المرتبطة بهما و كان قوله: **{ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ}** إنخ مترتبا على ذلك ترتب التأخير أي إن خروجهم من الأرض متأخر عن هذا القيام مقارن لخراجهما كما ينبئ به آيات كثيرة في مواضع مختلفة من كلامه تعالى.

و يظهر بذلك أيضا أن المراد من قوله السابق **{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ}** خلقهما من جهة ما يرتبطان بالحياة البشرية و ينفعانها.

و قد رتبت الآيات المذكورة آخذاً من بدء خلق الإنسان و تكونه ثم تصنفه صنفين: الذكر و الأنثى ثم ارتباط وجوده بالسماء و الأرض و اختلاف ألسنتهم و ألوانهم

ثم السعي في طلب الرزق و سكون المنام ثم إراءة البرق و تنزيل الأمطار حتى تنتهي إلى قيام السماء و الأرض إلى أجل مسمى ليم لهذا النوم الإنساني ما قدر له من أمد الحياة و يعقب ذلك البعث فهذا بعض ما في ترتيب ذكر هذه الآيات من النكات.

و قد رتبت الفواصل أعني قوله **{يَتَفَكَّرُونَ} {لِلْعَالَمِينَ} {يَسْمَعُونَ} {يَعْقِلُونَ}** على هذا الترتيب لأن الإنسان يتفكر فيصير عالما ثم إذا سمع شيئا من الحقائق وعاه ثم عقله و الله أعلم.

قوله تعالى: **{وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَانِثُونَ}** كانت الآيات المذكورة مسوقة لإثبات ربوبيته تعالى و ألوهيته كما تقدمت الإشارة إليه و لما انتهى الكلام إلى ذكر البعث و الرجوع إلى الله عقب ذلك بالبرهان على إمكانه و الحججة مأخوذة من الخلق و التدبير المذكورين في الآيات السابقة.

فقوله: **{وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** إشارة إلى إحاطة ملكه الحقيقي بجميع من في السماوات و الأرض و هم المحشورون إليه و ذلك لأن وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى فقر و حاجة لا استقلال و لا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه و هذا هو الملك الحقيقي الذي أثره جواز تصرف المالك في ملكه كيف شاء فله تعالى أن يتصرف في مملوكيه بنقلهم من النشأة الدنيا إلى النشأة الآخرة.

و قد أكد ذلك بقوله: **{كُلُّ لَه قَانِثُونَ}** و القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع على ما ذكره الراغب في المفردات ، و المراد بالطاعة مع الخضوع الطاعة التكوينية على ما يعطيه السياق دون التشريعية التي ربما تخلفت.

و ذلك أنهم الملائكة و الجن و الإنس فأما الملائكة فليس عندهم إلا خضوع الطاعة، و أما الجن و الإنس فهم مطيعون منقادون للعلل و الأسباب الكونية و كلما احتالوا في إلغاء أثر علة من العلل أو سبب من الأسباب الكونية توسلوا إلى علة أخرى و سبب آخر كوني ثم علمهم و إرادتهم كاختيارهم جميعا من الأسباب الكونية فلا يكون إلا ما شاء الله أي الذي تمت علة في الخارج و لا يتحقق مما شاءوا إلا ما أذن فيه و شاءه فهو المالك لهم و لما يملكونه.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٢٧ الى ٣٩]

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَ إِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَ إِن نُّصِيبْهُمْ سَيْئَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِيَرْبُتُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم
مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

(بيان)

لما انساق الاحتجاج على الوحدانية و المعاد من طريق عد الآيات الدالة على ذلك بقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ} إلى قوله: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (الآية)، وهو من صفات الفعل غير سياق الاحتجاج بالآيات إلى سياق الاحتجاج بصفاته الفعلية و أوردها إلى آخر السورة في أربعة فصول يورد في كل فصل شيئاً من صفات الفعل المستوجبة للوحدانية و المعاد و هي قوله: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} إنلخ، و قوله: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ} إنلخ، و قوله: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ} إنلخ، و قوله: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ} إنلخ.

و إنما لم يبدأ الفصل الأول باسم الجلالة كما بدأ به في الفصول الأخر لسبق ذكره في الآية السابقة عليه المتصلة به أعني قوله: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} الذي هو كالبرزخ المتوسط بين السياقين، فقوله: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} فصل في صورة الوصل.

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} إلى آخر الآية، بدء الخلق إنشاؤه ابتداء من غير مثال سابق و الإعادة إنشاء بعد إنشاء.

و قوله: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} الضمير الأول للإعادة المفهوم من قوله: {يُعِيدُهُ} و الضمير الثاني راجع إليه تعالى على ما يتبادر من السياق.

و قد استشكل قوله: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} الدال ظاهراً على كون الإعادة أسهل و أهون عليه من البدء و هو ينافي كون قدرته مطلقة غير محدودة فإن القدرة

اللامتناهية لا تختلف حالها في تعلقها بشيء دون شيء فتعلقها بالصعب والسهل على السواء فلا معنى
لاسم التفضيل هاهنا.

وقد أجيب عنه بوجوه:

منها: أن ضمير **{عَلَيْهِ}** راجع إلى الخلق دونه تعالى والإعادة أهون على الخلق لأنه مسبق بالابتداء
الذي يسهل الفعل على الفاعل بتحقيقه منه مرة أو أزيد بخلاف الابتداء الذي لا يسبقه فعل، فالابتداء أصعب
بالطبع بالنسبة إلى الإعادة والإعادة بالعكس، فالمعنى: أن الإعادة أهون من البدء بالنسبة إلى الخلق وإذا
كان كذلك بالنسبة إلى الخلق فما ظنك بالخالق.

وفيه أن رجوع الضمير إلى الخلق خلاف ظاهر الآية.

ومنها: أن أفعل هاهنا منسلخ عن معنى التفضيل فأهون عليه بمعنى هين عليه نظير قوله: **{مَا عِنْدَ اللَّهِ**

خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو}.

وفيه أنه تحكم ظاهر لا دليل عليه.

ومنها: أن التفضيل إنما هو للإعادة في نفسها بالقياس إلى الإنشاء الابتدائي لا بالنسبة إليه تعالى و وقوع
التفضيل بين فعل منه وفعل لا بأس به كما في قوله تعالى: **{لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}**:
المؤمن: ٥٧.

وهذا هو الذي يستفاد من كلام الزمخشري إذ يقول: فإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت في قوله:
{ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ} حتى كأنها فضلت على قيام السماوات والأرض بأمره ثم هونت بعد ذلك؟ قلت: الإعادة
في نفسها عظيمة لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء. انتهى.

وفيه أن تقييد الوصف بقوله: **{عَلَيْهِ}** أصدق شاهد على أن القياس الواقع بين الإعادة والإنشاء إنما
هو بالنسبة إليه تعالى لا بين نفس الإعادة والإنشاء فالإشكال على ما كان.

ومنها: أن التفضيل إنما هو بالنظر إلى الأصول الدائرة بين الناس والموازن المتبعة عندهم لا بالنظر
إلى الأمر في نفسه، لما يرون أن تكرر الوقوع حتى لمرة واحدة يوجب سهولته على الفاعل بالنسبة إلى الفعل غير
المسبق بمثله فكأنه قيل: والإعادة

أهون عليه بالنظر إلى أصولكم العلمية المتبعة عنكم وإلا فالإنشاء و الإعادة بالنسبة إليه تعالى على
السواء.

و فيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن الشأن في استفادته من اللفظ و لا شاهد عليه من جهة لفظ
الآية.

و منها: ما ذكره أيضا في الكشاف، قال: و وجه آخر و هو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه
الفاعل بين أن يفعل و أن لا يفعل و الإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد له من فعله لأنها لجزء الأعمال
و جزاؤها واجب و الأفعال إما محال و المحال ممتنع أصلا خارج عن المقدور و أما ما يصرف الحكيم عن
فعله صارف و هو القبيح و هو رديف المحال لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة، و إما تفضل
و التفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعل و أن لا يفعل، و إما واجب لا بد من فعله و لا سبيل إلى الإخلال
به.

فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع و أقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب
كانت أبعد الأفعال من الامتناع و إذا كانت أبعدا من الامتناع كانت أدخلها في التأتي و التسهل فكانت
أهون منها و إذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء انتهى.

و فيه أولا: أنه مبني على تحقق الأشياء بالأولوية دون الوجوب و قد تحقق في محله بطلانه.

و ثانيا: أن القرب و البعد اللذين ذكرهما تصوير عقلي محض و السهولة و الصعوبة وصفان وجوديان
يتصف بهما وجود الشيء من حيث صدره عن فاعله الموجد له و لا يبتني الوصف الوجودي على الاعتبار
العقلي.

و ثالثا: أن الإنشاء أيضا كالإعادة في الابتداء على المصلحة و هي الغاية فما لم يكن الإنشاء ذا مصلحة
موجبة لم يتحقق كما أن الإعادة كذلك فهما في القرب و البعد من الامتناع على سواء كما قيل.

و رابعا: أن مقتضى هذا الوجه كون الإعادة أهون من الإنشاء بالنظر إلى أنفسهما فيعود في الحقيقة إلى
الوجه الثالث و يتوجه إليه ما توجه إليه.

و الذي ينبغي أن يقال أن الجملة أعني قوله: **{ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }** معلل بقوله بعده: **{ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }** فهو الحجّة المثبتة لقوله: **{ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }**.

و المستفاد من قوله: **{ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى }** إلخ، إن كل وصف ككالي يمثل به شيء في السماوات و الأرض كالحياة و القدرة و العلم و الملك و الجود و الكرم و العظمة و الكبرياء و غيرها فله سبحانه أعلى ذلك الوصف و أرفعها من مرتبة تلك الموجودات المحدودة كما قال: **{ وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى }**: الأعراف: ١٨٠.

و ذلك أن كل وصف من أوصاف الكمال اتصف به شيء مما في السماوات و الأرض فله في حد نفسه ما يقابله فإنه مما أفاضه الله عليه و هو في نفسه خال عنه فالحي منها ميت في ذاته و القادر منها عاجز في ذاته و لذلك كان الوصف فيها محدودا مقيدا بشيء دون شيء و حال دون حال، و هكذا فالعلم فيها مثلا ليس مطلقا غير محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه و كذلك الحياة و القدرة و الملك و العظمة و غيرها.

و الله سبحانه هو المفيض لهذه الصفات من فضله و الذي له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود و صرف غير مخلوط فلا جهل في مقابل علمه و لا ممت يقابل حياته و هكذا فله سبحانه من كل صفة يتصف به الموجودات السماوية و الأرضية - و هي صفات غير ممحضة و لا مطلقة - ما هو أعلاها أي مطلقها و ممحضا.

فكل صفة توجد فيه تعالى و في غيره من المخلوقات، فالذي فيه أعلاها و أفضلها و الذي في غيره مفضول بالنسبة إلى ما عنده.

و لما كانت الإعادة متصفة بالهون إذا قيس إلى الإنشاء فيما عند الخلق فهو عنده تعالى أهون أي هون محض غير مخلوط بصعوبة و مشقة بخلاف ما عندنا معاشر الخلق و لا يلزم منه أن يكون في الإنشاء صعوبة و مشقة عليه تعالى لأن المشقة و الصعوبة في الفعل تتبع قدرة الفاعل بالتعاكس فكما قلت القدرة كثرت المشقة و كلما كثرت قلت حتى إذا كانت القدرة غير متناهية انعدمت المشقة من رأس، و قدرته تعالى غير متناهية فلا يشق عليه فعل أصلا و هو المستفاد من قوله: **{ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }** فإن القدرة إذا جاز تعلقها بكل شيء لم تكن إلا غير متناهية فافهم ذلك.

وقوله: **{وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** تقدم أنه في مقام المحجة بالنسبة إلى قوله: **{وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** و محصله أن كل صفة كالية يتصف به شيء مما في السماوات والأرض من جمال أو جلال فإن لله سبحانه أعلاها أي مطلقها من غير تقييد و محضها من غير شوب و صرفها من غير خلط.

وقوله: **{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله: **{وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ}** إلخ، أي إنه تعالى عزيز واجد لكل ما يفقده غيره ممتنع من أن يمتنع عليه شيء حكيم لا يعرض فعله فتور، و لو لم تكن صفة من صفاته مثلا أعلى مما عند غيره من الممكنات كانت محدودة غير مطلقة و مخلوطة غير صرفة غير خالية من النقص و القصور فاستدله ذاك القصور فلم يكن عزيزا على الإطلاق و أحدث ذاك النقص في فعله ثلثة و فتورا فلم يكن حكيما على الإطلاق.

قوله تعالى: **{ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ}** إلخ، **{مِن}** في قوله: **{مِنْ أَنفُسِكُمْ}** لا ابتداء الغاية أي ضرب لكم مثلا متخذا من أنفسكم منتزعا من الحالات التي لديكم، و قوله: **{هَلْ لَّكُمْ}** شروع في المثل المضروب و الاستفهام للإنكار، و **{مَا}** في **{مِنْ مَّا مَلَكَتْ}** للنوع أي من نوع ما ملكت أيمانكم من العبيد و الإماء، و **{مِن}** في **{مِنْ شُرَكَاءَ}** زائدة و هو مبتدأ، و قوله: **{فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ}** تفرع على الشركة، و **{فَأَنتُمْ}** خطاب شامل للمالكين و المملوكين على طريق التغليب، و قوله: **{تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ}** أي تخافون المماليك الشركاء أن تستبدوا في تصرف المال المشترك من غير إذن منهم و رضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الأحرار.

و هذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أن الله سبحانه مما خلق شركاء في الألوهية و الربوبية و قد ألقى المثل في صورة الاستفهام الإنكاري: هل يوجد بين ممالككم من العبيد و الإماء من يكونون شركاء لكم في الأموال التي رزقناكم - و الحال أنهم ممالك لكم تملكونهم و ما في أيديهم - بحيث تخافونهم من التصرف في أموالكم بغير إذن منهم و رضى كما تخافون الشركاء الأحرار من نوع أنفسكم؟

لا يكون ذلك أبدا و لا يجوز أن يكون المملوك شريكا لمولاه في ماله و إذا لم

يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة و الجن و هم عبيده المملوكون شركاء له
فيما يملك من مخلوقيه و آلهة و أربابا من دونه؟

ثم تم الكلام بقوله: **{كَذَلِكَ نُفَصِّلُ آلَ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}** و فيه تمهيد لما يتلوه من الكلام.

قوله تعالى: **{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}**
إضراب عما يستفاد من ذيل الآية السابقة و التقدير و هؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقل بل اتبعوا
في ذلك أهواءهم بغير علم.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال: بل اتبع الذين أشركوا و إنما بدله من قوله: **{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا}**
فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سيصفهم بالضلال في قوله: **{فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ}** فالظلم يستتبع الإضلال
الإلهي، قال تعالى: **{يُتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي آلِ آخِرَةٍ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ
يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}**: إبراهيم: ٢٧.

فقوله: **{فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ}** استفهام إنكاري مدلوله الإيثار من نعمة الهداية للمشركين المتبعين
لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم و قد تكرر في كلامه تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**.

و قوله: **{وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}** نفي لنجاتهم بنصرة الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاة من
الضلال و تبعاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم و نفي الجمع دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء.
و قول القائل إن معنى نفي الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابلة
الجمع بالجمع غير مطرد.

و معنى الآية: بل اتبع الذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم و تعقل فأضلهم الله بظلمهم و لا هادي
يهديهم و ليس لهم ناصر ينصرونهم.

قوله تعالى: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ
الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** الكلام متفرع على ما تحصل

من الآيات السابقة المثبتة للمبدأ والمعاد أي إذا ثبت أن الخلق والتدبير لله وحده لا شريك له وهو سبيح ويحاسب ولا نجاة لمن أعرض عنه وأقبل على غيره فأقم وجهك للدين والزمه فإنه الدين الذي تدعو إليه الخلق الإلهية.

وقيل: الكلام متفرع على معنى التسلية المفهوم من سياق البيان السابق الدال على ما هو الحق وأن المشركين لظلمهم اتبعوا الأهواء وأعرضوا عن التعقل الصحيح فأضلهم الله ولم يأذن لناصر ينصرهم بالهداية ولا لمنقذ ينقذهم من الضلال لا أنت ولا غيرك فاستئس منهم واهتم بخاصة نفسك ومن تبعك من المؤمنين وأقم وجهك ومن تبعك للدين.

فقوله: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ}** المراد بإقامة الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجه من غير غفلة منه كالمقبل على الشيء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يمينا وشمالا والظاهر أن اللام في الدين للعهد والمراد به الإسلام. وقوله: **{حَنِيفًا}** حال من فاعل أقم وجوز أن يكون حالا من الدين أو حالا من الوجه والأول أظهر وأنسب للسياق، والحنف ميل القدمين إلى الوسط والمراد به الاعتدال.

وقوله: **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** الفطرة بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد والإبداع و**{فِطْرَتَ اللَّهِ}** منصوب على الإغراء أي الزم الفطرة ففيه إشارة إلى أن هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له هو الذي يهتف به الخلق ويهدي إليه الفطرة الإلهية التي لا تبدل لها.

وذلك أنه ليس الدين إلا سنة الحياة والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته فلا غاية للإنسان يتبعها إلا السعادة وقد هدي كل نوع من أنواع الخلق إلى سعادته التي هي بغية حياته بفطرته ونوع خلقته وجهازه وجوده بما يناسب غايته من التجهيز، قال تعالى: **{رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}**: طه: ٥٠ وقال: **{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}**: الأعلى: ٣.

فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه إلى تميم نواقصه ورفع حوائجه وتهتف له بما ينفعه وما يضره في حياته، قال تعالى: **{وَوَيْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}**

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}: الشمس: ٨ و هو مع ذلك مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل، قال تعالى: **{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}**: عبس: ٢٠.

فلاإنسان فطرة خاصة تهديه إلى سنة خاصة في الحياة و سبيل معينة ذات غاية مشخصة ليس له إلا أن يسلكها خاصة و هو قوله: **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** و ليس الإنسان العائش في هذه النشأة إلا نوعا واحدا لا يختلف ما ينفعه و ما يضره بالنظر إلى هذه البنية المؤلفة من روح و بدن فما للإنسان من جهة أنه إنسان إلا سعادة واحدة و شقاء واحد فمن الضروري حينئذ أن يكون تجاه عمله سنة واحدة ثابتة يهديه إليها هاد واحد ثابت.

و ليكن ذاك الهادي هو الفطرة و نوع الخلق و لذلك عقب قوله **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** بقوله: **{لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}**.

فلو اختلفت سعادة الإنسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين، و لو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الأمم المختلفة بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنة الاجتماعية أعني الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقة كان الإنسان أنواعا مختلفة باختلاف الأقطار، و لو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة بمعنى أن تكون الأعصار و القرون هي الأساس الوحيد للسنة الدينية اختلفت نوعية كل قرن و جيل مع من ورثوا من آباءهم أو أ خلفوا من أبناءهم و لم يسر الاجتماع الإنساني سير التكامل و لم تكن الإنسانية متوجهة من النقص إلى الكمال إذ لا يتحقق النقص و الكمال إلا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما.

و ليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في انتظام السنة الدينية في الجملة بل إثبات أن الأساس للسنة الدينية هو البنية الإنسانية التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد، فلاإنسانية سنة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذي هو الإنسان و هي التي تدير رحي الإنسانية مع ما يلحق بها من السنن الجزئية المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة.

و هذا هو الذي يشير إلى قوله بعد: **{ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** و سنزيد المقام إيضاحا في بحث مستقل إن شاء الله تعالى.

و للقوم في مفردات الآية و معناها أقوال أخر متفرقة:

منها: أن المراد بإقامة الوجه تسديد العمل فإن الوجه هو ما يتوجه إليه و هو العمل وإقامته تسديده.
و فيه: أن وجه العمل هو غايته المقصودة منه و هي غير العمل و الذي في الآية هو **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ}** و لم يقل فأقم وجه عملك.

و منها: أن **{فِطْرَتَ اللَّهِ}** منصوب بتقدير أعني و الفطرة هي الملة، و المعنى: اثبت و أدم الاستقامة للدين أعني الملة التي خلق الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله.

و فيه: أنه مبني على اختلاف المراد بالفطرة و هي الملة و **{فَطَرَ النَّاسَ}** و هو الخلق و التفكيك خلاف ظاهر الآية و لو أخذ **{فَطَرَ النَّاسَ}** بمعنى الإدانة أي الحمل على الدين و هو التوحيد بقي قوله: **{لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ}** لا يلائم ما قبله.

على أن فيه خلاف ظاهر آخر و هو حمل الدين على التوحيد، و لو أخذ الدين بمعنى الإسلام أو مجموع الدين كله و أبقيت الفطرة على معناه المتبادر منها و هو الخلق لم يستقم تقدير «أعني» فإن الدين بهذا المعنى غير الفطرة بمعنى الخلق.

و منها: أن **{فِطْرَتَ}** بدل من **{حَنِيفًا}** و الفطرة بمعنى الملة و يرد عليه ما يرد على سابقه.

و منها: أن **{فِطْرَتَ}** مفعول مطلق لفعل محذوف مقدر، و التقدير: فطر الله فطرة فطر الناس عليها و فساده غني عن البيان.

و منها: أن معناه اتبع من الدين ما ذلك عليه فطرة الله و هو ما ذلك عليه ابتداء خلقه للأشياء لأنه خلقهم و ركبهم و صورهم على وجه يدل على أن لهم صانعا قادرا عالما حيا قديما واحدا لا يشبه شيئا و لا يشبه شيء.

و فيه أنه مبني على كون **{فِطْرَتَ}** منصوبا بتقدير اتبع و قد ذكره أبو السعود و قبله أبو مسلم المفسر فيكون المراد من اتباع الفطرة اتباع دلالة الفطرة بمعنى الخلق و المراد بعدم تبديل الخلق عدم تغييره في الدلالة على الصانع بما له من الصفات الكريمة، و هذا قريب من المعنى الذي قدمناه للآية بحمل **{فِطْرَتَ}** على الإغراء لكن يبقى عليه أن الآية عامة لا دليل على تخصيصها بالتوحيد.

و منها: أن لا في قوله: **{لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ}** تفيد النهي أي لا تبدلوا خلق الله أي دينه الذي أمرتم بالتمسك به، أو لا تبدلوا خلق الله بإنكار دلالته على التوحيد و منه ما نسب إلى ابن عباس أن المراد به النهي عن الخصاء.

و فيه أن لا دليل على أخذ الخلق بمعنى الدين و لا موجب لتسمية الإعراض عن دلالة الحلقة أو إنكارها تبديلا لخلق الله. و أما ما نسب إلى ابن عباس ففساده ظاهر.

و منها: ما ذكره الرازي في التفسير الكبير، قال: و يحتمل أن يقال: خلق الله الخلق لعبادته و هم كلهم عبده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبدا مثل كون المملوك عبدا للإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره و يخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العباداة و العبودية. و هذا لبيان فساد قول من يقول: العباداة لتحصيل الكمال و العبد يكمل بالعباداة فلا يبقى عليه تكليف، و قول المشركين: إن الناقص لا يصلح لعباداة الله و إنما الإنسان عبد الكواكب و الكواكب عبيد الله، و قول النصارى إن عيسى كان يحل الله فيه و صار إلهها فقال: **{لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ}** بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك. انتهى.

و فيه أنه مغالطة بين الملك و العباداة التكوينية و الملك و العباداة التشريعية فإن ملكه تعالى الذي لا يقبل الانتقال و البطلان ملك تكويني بمعنى قيام وجود الأشياء به تعالى و العباداة التي بإزائه عباداة تكوينية و هو خضوع ذوات الأشياء له تعالى و لا تقبل التبديل و الترك كما في قوله: **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}**: إسرائ: ٤٤ و أما العباداة الدينية التي تقبل التبديل و الترك فهي عباداة تشريعية بإزاء الملك التشريعي المعتبر له تعالى فافهمه.

و لو دل قوله: **{لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ}** على عدم تبديل الملك و العباداة و العبودية لدل على التكويني منهما و الذي يبدله القائلون بارتفاع التكليف عن الإنسان الكامل أو بعباداة الكواكب أو المسيح فإنما يعني به التشريعي منهما.

قوله تعالى: **{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** تعميم للخطاب بعد تخصيصه بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) نظير قوله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ: الطلاق: ١ و قوله: {فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّعَوْا}: هود: ١١٢**

فيقول المعنى إلى نحو من قولنا: فأقم وجهك للدين حنيفاً أنت و من معك منيبين إلى الله، و الإنابة الرجوع بالتوبة.

و قوله: **{وَاتَّقُوا وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ}** التقوى بحسب دلالة المقام يشمل امثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه تعالى فاختصاص إقامة الصلاة من بين سائر العبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهي عمود الدين.

و قوله: **{وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** القول في اختصاصه من بين المحرمات بالذكر نظير القول في الصلاة فالشرك بالله أكبر الكبائر الموبقة، و قد قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}**: النساء: ٤٨ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: **{مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}** «من» للتبيين و **{مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ}** إلخ، بيان للمشركين و فيه تعريفهم بأخص صفاتهم في دينهم و هو تفرقهم في دينهم و عودهم شيعة شيعة و حزبا حزبا يفرح و يسر كل شيعة و حزب بما عندهم من الدين و السبب في ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله: **{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}** فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الأهواء و أنه لا يهديهم و لا هادي غيره.

و من المعلوم أن هوى النفس لا يتفق في النفوس بل و لا يثبت على حال واحدة دون أن يختلف باختلاف الأحوال و إذا كان هو الأساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء و ينزل بنزولها، و لا فرق في ذلك بين الدين الباطل و الدين الحق المبني على أساس الهوى.

و من هنا يظهر أن النهي عن تفرق الكلمة في الدين نهى في الحقيقة عن بناء الدين على أساس الهوى دون العقل، و ربما احتتم كون الآية استئنافاً من الكلام و هو لا يلائم السياق.

و في الآية ذم للمشركين بما عندهم من صفة التفرق في الكلمة و التحزب في الدين.

قوله تعالى: **{وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}** التعبير بالمس للدلالة على القلة و الخفة و تنكير ضر

ورحمة أيضا لذلك و المعنى: إذا أصاب الناس شيء من الضر ولو قليلا كمرض ما و فقر ما و شدة ما دعوا ربهم و هو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثم إذا أذاقهم الله من عنده رحمة إذا فريق من هؤلاء الناس بربهم الذي كانوا يدعون و يعترفون بربوبيته يشركون باتخاذ الأنداد و الشركاء.

أي إنهم كفرون للنعمة طبعاً و إن اعترفوا بها عند الضر و قد أخذ لذلك فريقاً منهم لأن منهم من ليس كذلك.

قوله تعالى: **{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}** تهديد لأولئك المشركين عند إذاعة الرحمة و اللام في **{لِيَكْفُرُوا}** للأمر الغائب و قوله: **{فَتَمَتَّعُوا}** متفرع على سابقه و هو أمر آخر و الأمران جميعاً للتهديد، و الالتفات من الأمر الغائب إلى الأمر الحاضر لثوران الوجد و السخط من تفريطهم في جنب الله و استهانتهم بأمره فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرعوا عند الضر و يكفروا إذا كشف.

قوله تعالى: **{أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}** **{أَمْ}** منقطعة و المراد بالإنزال الاعلام أو التعليم مجازاً، و السلطان البرهان، و المراد بالتكلم الدلالة مجازاً فالمعنى بل أعلنناهم برهانا فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم.

و يمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان و هو الملك فلا مجاز في الإنزال و التكلم و المعنى: بل أنزلنا عليهم ملكاً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو بشركهم.

قوله تعالى: **{وَإِذَا أذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}** الإذاعة كالمس تدل على قليل النيل و يسيره، و القنوط اليأس.

و إذا الأولى شرطية و الثانية فجائية و المقابلة بين **{إِذَا}** في إذاعة الرحمة و **{إِنْ}** في إصابة السيئة لأن الرحمة كثيرة قطعية و السيئة قليلة احتمالية، و نسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة لأن الرحمة و جودية مفاضة منه تعالى و السيئة عدمية هي عدم الإفاضة و لذا عللها بقوله: **{بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}**، و في تعليل السيئة بذلك و عدم التعليل في جانب الرحمة بشيء إشارة إلى أن الرحمة تفضل.

و التعبير في الرحمة بقوله: **{فَرِحُوا}** و في السيئة بقوله: **{إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}** للدلالة على حدوث القنوط و لم يكن بمترقب فإن الرحمة و السيئة بيد الله و الرحمة واسعة

ولهذا عبر بالمضارع الدال على الحال لتمثيل حالهم.

والمراد بالآية بيان أن الناس لا يعدون نظرهم ظاهر ما يشاهدونه من النعمة و النعمة إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يتبصروا ويعقلوا أن الأمر بيد غيرهم و بمشية من ربهم إذا لم يشأ لم يكن، وإذا فقدوا قنطوا كان ليس ذلك بإذن من ربهم وإذا لم يشأ لم يأذن و فتح باب النعمة فهم ظاهريون سطحيون.

و بهذا يتضح أن لا تدافع بين هذه الآية و بين قوله السابق: **{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}** (الآية) و ذلك أن مدلول هذه الآية أن أفهامهم سطحية إذا وجدوا فرحوا و إذا فقدوا قنطوا و مدلول تلك أنهم إذا وجدوا فرحوا و إذا فقدوا دعوا الله و هم قانطون من الشيء و أسبابه منيبن راجعين إلى الله سبحانه فلا تدافع.

و ربما أوجب بأن المراد بالناس في هذه الآية فريق آخر غير الفريق المراد بالناس في الآية السابقة و لو فرض اتحادهما كان ما ذكر من دعائهم في حال و قنوطهم في حال أخرى.

و أوجب عنه أيضا بأن الدعاء لساني جار على العادة و لا ينافي القنوط الذي هو أمر قلبي و أنت خير بما في كل من الجوابين من الفتور.

و أوجب أيضا أن المراد بقنوطهم فعلهم فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء. و فيه مضافا إلى عدم الدليل على ذلك أنه لا يلائم معنى المفاجأة في القنوط.

قوله تعالى: **{أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}** بيان لخطئهم في المبادرة إلى الفرح و القنوط عند إذاعة الرحمة و إصابة السيئة فإن الرزق في سعته و ضيقه تابع لمشية الله فعلى الإنسان أن يعلم أن الرحمة التي ذاقها و السيئة التي أصابته ممكنة الزوال بمشية الله سبحانه و لا موجب للفرح بما لا يؤمن فقده و لا للقنوط مما يرجى زواله.

و أما أنه أمر ظاهر للإنسان مقطوع به كأنه يراه فلأن الرزق الذي يناله الإنسان أو يكتسبه متوقف الوجود على ألوف و ألوف من الأسباب و الشرائط ليس الإنسان الذي يراه لنفسه إلا أحد تلك الأسباب و لا السبب الذي يركن إليه و يطيب به نفسا إلا بعض تلك الأسباب و عامة الأسباب منتبهة إليه سبحانه فهو الذي يعطي و يمنع و هو

الذي يبسط ويقدر أي يوسع ويضيق، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ}**، إنح، ذو القربى صاحب القرابة من الأرحام والمسكين أسوأ حالا من الفقير وابن السبيل المسافر ذو الحاجة، وإضافة الحق إلى الضمير تدل على أن لذي القربى حقا ثابتا، والخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فظاهر الآية بما تحتف به من القرائن أن المراد بها الخمس والتكليف للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويتبعه غيره ممن كلف بالخمس، والقرابة على أي حال قرابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في آية الخمس، هذا كله على تقدير كون الآية مدنية و أما على تقدير كونها مكية كسائر آيات السورة فالمراد مطلق الإحسان للقرابة والمسكين وابن السبيل.

و لعموم الآية معنى عمم ذكره أثره الجميل فقال: **{ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلِيكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ}**.

قوله تعالى: **{وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}** الربا نماء المال، وقوله: **{لِيَرْبُؤَا}**، إنح، يشير إلى وجه التسمية، فالمراد أن المال الذي تؤتونه الناس ليزيد في أموالهم لا إرادة لوجه الله بقريئة ذكر إرادة الوجه في مقابله - فليس يزيد وينمو عند الله أي لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه.

وقوله: **{وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}** المراد بالزكاة مطلق الصدقة أي إعطاء المال لوجه الله من غير تبذير، والمضعف ذو الضعف، والمعنى: و ما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فأولئك هم الذين يضاعف لهم ما لهم أو ثوابهم.

فالمراد بالربا و الزكاة بقريئة المقابلة و ما احتف بهما من الشواهد، الربا الحلال و هو العطية من غير قربة، و الصدقة و هي إعطاء المال مع قصد القربة. هذا كله على تقدير كون الآية مكية و أما على تقدير كونها مدنية فالمراد بالربا الربا المحرم و بالزكاة هي الزكاة المفروضة.

و هذه الآية و التي قبلها أشبه بالمدينيات منهما بالمكيات و لا اعتبار بما يدعى من الرواية أو الإجماع المنقول.

(بحث روائي)

في العيون عن عبيد الله بن عباس قال: قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فينا خطيباً فقال في آخر خطبته: **نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى** (الحديث).

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ}** (الآية) أن سبب نزولها أن قريشاً كانوا يحجون البيت بحج إبراهيم (عليه السلام) ويلبون تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

فجاءهم إبليس في صورة شيخ فغير تلبيتهم إلى قول: لبيك اللهم لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. فكانت قريش تلي هذه التلبية حتى بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأنكر عليهم ذلك وقال: إنه شرك.

فأنزل الله عز وجل: **{ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ}** أي أترضون أنتم فيما تملكون أن يكون لكم فيه شريك؟ فكيف ترضون أن تجعلوا لي شريكاً فيما أملك؟

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام): في قوله تعالى: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا}** قال: **هي الولاية.**

وفيه بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت: **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** قال: **التوحيد.**

أقول: ورواه أيضاً عن الحلبي ووزارة عنه (عليه السلام) ورواه الصدوق في التوحيد عن العلاء بن فضيل ووزارة وبكير عنه (عليه السلام).

وفي روضة الكافي بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **كانت شريعة نوح (عليه السلام) أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد، وهو الفطرة التي فطر الناس عليها.**

وفي تفسير القمي بإسناده عن الهيثم الرماني عن الرضا عن أبيه عن جده عن أبيه محمد بن علي (عليه السلام): في قوله عز وجل: **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** قال:

هو لا إله إلا الله محمد رسول الله علي أمير المؤمنين ولي الله إلى هاهنا التوحيد.

أقول: وروى هذا المعنى في بصائر الدرجات عن أبي عبد الله (عليه السلام)، ورواه في التوحيد عن عبد الرحمن مولى أبي جعفر عنه (عليه السلام).

و معنى كون الفطرة هي الشهادات الثلاث أن الإنسان مفطور على الاعتراف بالله لا شريك له بما يجد من الحاجة إلى الأسباب المحتاجة إلى ما وراءها وهو التوحيد وبما يجد من النقص المحوج إلى دين يدين به ليكمله وهو النبوة، وبما يجد من الحاجة إلى الدخول في ولاية الله بتنظيم العمل بالدين وهو الولاية والفاتح لها في الإسلام هو علي (عليه السلام)، وليس معناه أن كل إنسان حتى الإنسان الأولي يدين بفطرته بخصوص الشهادات الثلاث.

وإلى هذا يتول معنى الرواية السابقة أنها الولاية فإنها تستلزم التوحيد والنبوة وكذا ما مر من تفسيره الفطرة بالتوحيد فإن التوحيد هو القول بوحداية الله تعالى المستجمع لصفات الكمال المستلزمة للعباد والنبوة والولاية فالمال في تفسيرها بالشهادات الثلاث والتوحيد والولاية واحد.

وفي المحاسن بإسناده عن زرارة قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن قول الله عز وجل **{فَطَّرَتْ** **اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** قال: **فطرتهم على معرفة أنه ربهم ولو لا ذلك لم يعلموا إذا سئلوا من ربهم ومن رازقهم؟**

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن نعيم الصحاف عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث قال: فقال (عليه السلام): **إن الله عز وجل خلق الناس كلهم على الفطرة التي فطرتهم عليها لا يعرفون إيماننا بشريعة ولا كفرا بمجرد ثم بعث الله عز وجل الرسل يدعو العباد إلى الإيمان به فمنهم من هدى الله ومنهم من لم يهده.**

أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر واردة في تفسير قوله تعالى: **{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً}**: البقرة: ٢١٣ والمراد فيها بالإنسان الفطري الإنسان الساذج الذي يعيش على الفطرة الإنسانية الذي لم يفسده الأوهام الفكرية والأهواء النفسانية فإنه بالقوة القريبة من الفعل بالنسبة إلى أصول العقائد الحقة وكليات الشرائع الإلهية فإنه يعيش ببعث وتحريك من فطرته وخصوص خلقته. وأما الاهتداء إلى خصوص العقائد الحقة

وتفاصيل الشرائع الإلهية فيتوقف على هداية خاصة إلهية من طريق النبوة من الجزء الثاني من الكتاب.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمرو الصفار قال: سألت قتادة عن قوله تعالى: **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** فقال: حدثني أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** قال: **دين الله.**

وفيه أخرج البخاري و مسلم و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟** قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** (الآية).

أقول: و رواه أيضا عن مالك و أبي داود و ابن مردويه عن أبي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله و سلم) و لفظه: **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء.**

و رواه أيضا في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله خالقه** (الحديث).

وفي التوحيد بإسناده عن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **لا تضربوا أطفالكم على بكائهم فإن بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلا الله، و أربعة أشهر الصلاة على النبي و أربعة أشهر الدعاء لوالديه.**

أقول: هو حديث لطيف و معناه: أن الطفل في الأربعة أشهر الأولى لا يعرف أحدا و إنما يحس بالحاجة فيطلب بالبكاء رفعها و الرفع لها هو الله سبحانه فهو يتضرع إليه و يشهد له بالوحدانية.

و في الأربعة أشهر الثانية يعرف من والديه واسطة ما بينه و بين رافع حاجته من غير أن يعرفهما بشخصيهما و الواسطة بينه و بين ربه هو النبي فبكاءه طلب الرحمة من ربه للنبي حتى يصل بتوسطه إليه.

و في الأربعة أشهر الثالثة يميز والديه بشخصيهما عن غيرهما فبكاءه دعاء منه لهما و طلب جريان الرحمة من طريقهما إليه. ففي الحديث أطف الإشارة إلى كيفية جريان

الفيض من مجرى الوسائط فافهم ذلك.

وفي المجمع في قوله تعالى: **{وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ}**: وروى أبو سعيد الخدري وغيره: أنه لما نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أعطى فاطمة (عليه السلام) فدكا وسلمه إليها وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليه السلام).

وفي الكافي بإسناده عن إبراهيم اليماني عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **الربا رباءان: ربا يؤكل و ربا لا يؤكل، فأما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك الربا الذي يؤكل، وهو قول الله عز وجل: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوهَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوهَا عِنْدَ اللَّهِ}** وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه وأوعده عليه النار.

أقول: ورواه أيضا في التهذيب عن إبراهيم بن عمر عنه (عليه السلام)، وفي تفسير القمي عن حفص بن غياث عنه (عليه السلام)، وفي المجمع، مرسلا عن أبي جعفر (عليه السلام).

وفي المجمع في قوله تعالى: **{فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}** قال أمير المؤمنين (عليه السلام): **فرض الله الصلاة تنزيها عن الكبر، والزكاة تسبيبا للرزق، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق، وصلة الأرحام منماة للعدد.**

وفي الفقيه: خطبة للزهراء (عليه السلام) وفيها: **فرض الله الإيمان تطهيرا من الشرك والصلاة تنزيها عن الكبر والزكاة زيادة في الرزق.**

(كلام في معنى كون الدين فطريا، في فصول)

١ - إذا تأملنا هذه الأنواع الموجودة التي تتكون وتتكامل تدريجا سواء كانت ذوات حياة و شعور كأنواع الحيوان أو ذات حياة فقط كأنواع النبات أو ميتة غير ذي حياة كسائر الأنواع الطبيعية على ما يظهر لنا وجدنا كل نوع منها يسير في وجوده سيرا تكوينيا معنا ذا مراحل مختلفة بعضها قبل بعض و بعضها بعد بعض يرد النوع في كل منها بعد المرور بالبعض الذي قبله و قبل الوصول إلى ما بعده و لا يزال يستكمل بطي هذه المنازل حتى ينتهي إلى آخرها و هو نهاية كماله.

نجد هذه المراتب المطوية بحركة النوع يلازم كل منها مقامه الخاص به لا يستقدم و لا يستأخر من لدن حركة النوع في وجوده إلى أن تنتهي إلى كماله فيينا

رابطة تكوينية يربط بها بعض المراتب ببعض بحيث لا يتجافى و لا ينتقل إلى غير مكانه و من هنا يستنتج أن للنوع غاية تكوينية يتوجه إليها من أول وجوده حتى يبلغها.

فالجوزة الواحدة مثلا إذا استقرت في الأرض استقرارا يهيئها للنمو على اجتماع مما يتوقف عليه النمو من العلل و الشرائط كالرطوبة و الحرارة و غيرها أخذ لها في النمو و شق القشر و شرع في ازدياد من أقطار جسمه و لم يزل يزيد و ينمو حتى يصل إلى حد يعود فيه شجرة قوية خضراء مثمرة و لا يختلف حاله في مسيره هذا التكويني و هو في أول وجوده قاصدا قاصدا تكوينيا إلى غايته التكوينية التي هي مرتبة الشجرة الكاملة المثمرة.

و كذا الواحد من نوع الحيوان كالواحدة من الضأن مثلا لا نشك في أنها في أول تكونها جنينا متوجهة إلى غايتها النوعية التي هي مرتبة الضأنة الكاملة التي لها خواصها فلا تضل عن سبيلها التكوينية الخاصة بها إلى سبيل غيرها و لا تنسى غايتها يوما فتسير إلى غير غايتها كغاية الفيلة مثلا أو غاية شجرة الجوز مثلا فكل نوع من الأنواع التكوينية له مسير خاص في استكمال الوجود ذو مراتب خاصة مترتبة بعضها على بعض تنتهي إلى مرتبة هي غاية النوع ذاتا يطلبها طلبا تكوينيا بحركته التكوينية و النوع في وجوده مجهز بما هو وسيلة حركته و بلوغه إلى غايته.

و هذا التوجه التكويني لاستناده إلى الله يسمى هداية عامة إلهية و هي كما عرفت لا تضل و لا تخطئ في تسيير كل نوع مسيره التكويني و سوقه إلى غايته الوجودية بالاستكمال التدريجي و بإعمال قواه و أدواته التي جهز بها لتسهيل مسيره إلى غايته، قال تعالى: **{رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}**: طه: ٥٠ و قال: **{الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى}**: الأعل: ٥.

٢ - نوع الإنسان غير مستثنى من كلية الحكم المذكور أعني شمول الهداية العامة له فنحن نعلم أن النطفة الإنسانية من حين تشرع في التكون متوجهة إلى مرتبة إنسان تام كامل له آثاره و خواصه قد قطع في مسيره مراحل الجنينية و الطفولية و المراهقة و الشباب و الكهولة و الشيب.

غير أن الإنسان يفارق سائر الأنواع الحيوانية و النباتية و غيرها فيما نعلم في أمره و هو أنه لسعة حاجته التكوينية و كثرة نواقصه الوجودية لا يقدر على تميم نواقصه الوجودية و رفع حوائجه الحيوية وحده بمعنى أن الواحد من الإنسان لا تتم له حياته الإنسانية و هو وحده بل يحتاج إلى اجتماع منزلي ثم اجتماع مدني يجتمع فيه مع غيره بالازدواج و التعاون و التعاضد فيسعى الكل بجمع قواهم التي جهزوا بها للكل ثم يقسم الحاصل من عملهم بين الكل فيذهب كل بنصيبه على قدر زنته الاجتماعية.

و قد عرفت في سابق مباحث هذا الكتاب أن المدنية ليست بطبيعية للإنسان بمعنى أن ينبعث إليه من ناحية طبيعته الإنسانية ابتداء بل له طبيعة مستخدمة لغيره لنفع نفسه ما وجد إليه سبيلا فهو يستخدم الأمور الطبيعية ثم أقسام النبات و الحيوان في سبيل مقاصده الحيوية فهو باستخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجراً لكنه يجد سائر الأفراد أمثاله في الأميال و المقاصد و في الجهازات و القوى فيضطر إلى المسالمة و أن يسلم لهم حقوقاً مثل ما يراه لنفسه.

و ينتهي هذا التضارب بين المنافع أن يشارك البعض البعض في العمل التعاوني ثم يقسم الحاصل من الأعمال بين الجميع و يعطى منه لكل ما يستحقه.

و كيف كان فالمجتمع الإنساني لا يتم انعقاده و لا يعمر إلا بأصول علمية و قوانين اجتماعية يحترمها الكل و حافظ يحفظها من الضيعة و يجريها في المجتمع و عند ذلك تطيب لهم العيشة و تشرف عليهم السعادة. أما الأصول العلمية فهي معرفته إجمالاً بما عليه نشأة الوجود من الحقيقة و ما عليه الإنسان من حيث البداية و النهاية فإن المذاهب المختلفة مؤثرة في خصوص السنن المعمول بها في المجتمعات فالمعتقدون في الإنسان أنه مادي محض ليس له من الحياة إلا الحياة المعجلة المؤجلة بالموت و أن ليس في دار الوجود إلا السبب المادي الكائن الفاسدة ينظمون سنن اجتماعهم، بحيث تؤديهم إلى اللذائذ المحسوسة و الكمالات المادية ما وراءها شيء.

والمعتقدون بصانع وراء المادة كالوثنية يبنون سننهم وقوانينهم على إرضاء الآلهة ليسعدوهم في حياتهم الدنيوية والمعتقدون بالمبدئ والمعاد يبنون حياتهم على أساس يسعدهم في الحياة الدنيوية ثم في الحياة المؤبدة التي بعد الموت فصور الحياة الاجتماعية تختلف باختلاف الأصول الاعتقادية في حقيقة العالم والإنسان الذي هو جزء من أجزائه.

وأما القوانين و السنن الاجتماعية فلو لا وجود قوانين و سنن مشتركة يحترمها المجتمعون جميعهم أو أكثرهم و يتسلهونها تفرق الجمع و انحل المجتمع.

و هذه السنن و القوانين قضايا كلية عملية صورها: يجب أن يفعل كذا عند كذا أو يحرم أو يجوز و هي أيا ما كانت معتبرة في العمل لغايات مصلحة للاجتماع و المجتمع تترتب عليها تسمى مصالح الأعمال و مفسدها.

٣ - قد عرفت أن الإنسان إنما ينال ما قدر له من كمال و سعادة بعقد مجتمع صالح يحكم فيه سنن و قوانين صالحة تضمن بلوغه و نيله سعادته التي تليق به و هذه السعادة أمر أو أمور كمالية تكوينية تلحق الإنسان الناقص الذي هو أيضا موجود تكويني فتجعله إنسانا كاملا في نوعه تاما في وجوده.

فهذه السنن و القوانين و هي قضايا عملية اعتبارية واقعة بين نقص الإنسان و كماله متوسطة كالعبرة بين المنزلتين و هي كما عرفت تابعة للمصالح التي هي كمال أو كمالات إنسانية، و هذه الكمالات أمور حقيقية مسانحة ملائمة للنواقص التي هي مصاديق حوائج الإنسان الحقيقية.

فحوائج الإنسان الحقيقية هي التي وضعت هذه القضايا العملية و اعتبرت هذه النواميس الاعتبارية، و المراد بالحوائج هي ما تطلبه النفس الإنسانية بأميلها و عزائمها و يصدقه العقل الذي هو القوة الوحيدة التي تميز بين الخير و النافع و بين الشر و الضار دون ما تطلبه الأهواء النفسانية مما لا يصدقه العقل فإنه كمال حيواني غير إنساني.

فأصول هذه السنن و القوانين يجب أن تكون الحوائج الحقيقية التي هي بحسب الواقع حوائج لا بحسب تشخيص الأهواء النفسانية.

و قد عرفت أن الصنع و الإيجاد قد جهز كل نوع من الأنواع و منها الإنسان

من القوى و الأدوات بما يرتفع بفعاليتها حوائجه ويسلك به سبيل الكمال و منه يستنتج أن للجهازات التكوينية التي جهز بها الإنسان اقتضاءات للقضايا العملية المسماة بالسنن و القوانين التي بالعمل بها يستقر الإنسان في مقر كماله مثل السنن و القوانين الراجعة إلى التغذية المعتبرة بما أن الإنسان مجهز بجهاز التغذية و الراجعة إلى النكاح بما أن الإنسان مجهز بجهاز التوالد و التناسل.

فتبين أن من الواجب أن يتخذ الدين أي الأصول العلمية و السنن و القوانين العملية التي تضمن باتخاذها و العمل بها سعادة الإنسان الحقيقية من اقتضاءات الخلق الإنسانية و ينطبق التشريع على الفطرة و التكوين، و هذا هو المراد بكون الدين فطريا و هو قوله تعالى: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}**.

٤ - قد عرفت معنى كون الدين فطريا فالإسلام يسمى دين الفطرة لما أن الفطرة الإنسانية تقتضيه و تهدي إليه.

و يسمى إسلاما لما أن فيه تسليم العبد لإرادة الله سبحانه منه، و مصداق الإرادة و هي صفة الفعل تجمع العلل المؤلفة من خصوص خلقه الإنسان و ما يحتف به من مقتضيات الكون العام على اقتضاء الفعل أو الترك قال تعالى: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}**.

و يسمى دين الله لأنه الذي يريده الله من عباده من فعل أو ترك، بما مر من معنى الإرادة.

و يسمى سبيل الله لما أنه السبيل التي أرادها الله أن يسلكها الإنسان لتنتهي به إلى كماله و سعاده، قال تعالى: **{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً}**: الأعراف: ٤٥.

و أما أن الدين الحق يجب أن يؤخذ من طريق الوحي و النبوة و لا يكفي فيه العقل فقد تقدم بيانه في مباحث النبوة و غيرها من مباحث الكتاب.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٤٠ الى ٤٧]

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ
مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ
يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَ مِنْ
آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾}

(بيان)

هذا هو الفصل الثاني من الفصول الأربعة التي يحتج فيها بالأفعال الخاصة به وإن شئت فقل: بأسماء الأفعال على إبطال الشركاء و نفي ربوبيتهم و ألوهيتهم و على إثبات المعاد.

قوله تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ}** إلخ، اسم الجلالة مبتدأ و **{الَّذِي خَلَقَكُمْ}** خبره، و كذا قوله: **{مَنْ يَفْعَلُ}** إلخ مبتدأ خبره **{مِنْ شُرَكَائِكُمْ}** المقدم عليه و الاستفهام إنكاري و قد ذكر في تركيب الآية احتمالات أخر.

و المعنى: أن الله سبحانه هو الذي اتصف بكذا و كذا وصفا من أوصاف الألوهية و الربوبية فهل من الآلهة الذين تدعون أنهم آلهة من يفعل شيئا من ذلكم يعني من الخلق و الرزق و الإماتة و الإحياء و إذ ليس منهم من يفعل شيئا من ذلكم فالله سبحانه هو إلهكم و ربكم لا إله إلا هو.

و لعل الوجه في ذكر الخلق مع الرزق و الإحياء و الإماتة مع تكرر تقدم ذكره في سلك الاحتجاجات السابقة الإشارة إلى أن الرزق لا ينفك عن الخلق بمعنى أن بعض الخلق يسمى بالقياس إلى بعض آخر يديم بقاءه به رزقا فالرزق في الحقيقة من الخلق فالذي يخلق الخلق هو الذي يرزق الرزق.

فليس لهم أن يقولوا: إن الرازق و كذا المحيي و المميت بعض آلهتنا كما ربما يدعيه بعضهم أن مدبر عالم الإنسان بعض الآلهة و مدبر كل شأن من شؤون العالم من الخيرات و الشرور بعضهم لكنهم لا يختلفون أن الخلق و الإيجاد منه تعالى لا يشاركه في ذلك أحد فإذا سلم ذلك و من المسلم أن الرزق مثلا خلق و كذا سائر الشؤون لا تنفك عن الخلق رجع الأمر كالخلق إليه تعالى و لم يبق لأهتهم شأن من الشؤون.

ثم نزه سبحانه نفسه عن شركهم فقال: **{سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}**.

قوله تعالى: **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** (الآية) بظاهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعة خاصة، فالمراد بالبر و البحر معناهما المعروف و يستوعبان سطح الكرة الأرضية.

و المراد بالفساد الظاهر المصائب و البلايا الظاهرة فيهما الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل و قطع الأمطار و السنين و الأمراض السارية و الحروب و الغارات و ارتفاع الأمن و بالجملة كل ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي سواء كان

مستندا إلى اختيار الناس أو غير مستند إليه. فكل ذلك فساد ظاهر في البر أو البحر مخل بطيب العيش الإنساني.

وقوله: **{بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}** أي بسبب أعمالهم التي يعملونها من شرك أو معصية وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}** (الآية): الأعراف: ٩٦ وأيضا في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب أن بين أعمال الناس والحوادث الكونية رابطة مستقيمة يتأثر إحداها من صلاح الأخرى وفسادها.

وقوله: **{لِيذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا}** اللام للغاية، أي ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيئة بل ليذيقهم نفس ما عملوا وقد ظهر في صورة الوبال وإنما كان بعض ما عملوا لأن الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال: **{وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ}**: الشورى: ٣٠.

والآية ناظرة إلى الوبال الدنيوي وإذاعة بعضه لأكله من غير نظر إلى وبال الأعمال الأخرى فما قيل: إن المراد إذاعة الوبال الدنيوي وتأخير الوبال الأخرى إلى يوم القيامة لا دليل عليه ولعله جعل تقدير الكلام: «ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا مع أن التقدير «ليذيقهم جزاء بعض ما عملوا»، لأن الذي يحوجنا إلى تقدير المضاف لو أحوجنا هو أن الراجع إليهم ثانيا في صورة الفساد هو جزاء أعمالهم لا نفس أعمالهم فالذي أذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا.

وقوله: **{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** أي يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم ومعاصيهم إلى التوحيد والطاعة.

وجه اتصال الآية بما قبلها أنه لما احتج في الآية السابقة على التوحيد ونزعه عن شركهم أشار في هذه الآية إلى ما يستتبع الشرك وهو معصية من الفساد في الأرض وإذاعة وبال السيئات فبين ذلك بيان عام.

ولهم في الآية تفاسير مختلفة عجبية كقول بعضهم المراد بالأرض أرض مكة وقول بعضهم: المراد بالبر القفار التي لا يجري فيها نهر وبالبحر كل قرية على شاطئ نهر عظيم، وقول بعضهم: البر الفيافي ومواقع القبائل والبحر السواحل والمدن التي عند

البحر و النهر، و قول بعضهم: البر البرية و البحر المواضع المخصبة الخضرة، و قول بعضهم: إن هناك مضافا محذوفا و التقدير في البر و مدن البحر، و لعل الذي دعاهم إلى هذه الأقاويل ما ورد أن الآية ناظرة إلى القحط الذي وقع بمكة إثر دعاء النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) على قريش لما لجوا في كفرهم و داموا على عنادهم فأرادوا تطبيق الآية على سبب النزول فوقوا فيما وقعوا من التكلف.

و قول بعضهم: إن المراد بالفساد في البر قتل ابن آدم أخاه و في البحر أخذ كل سفينة غصبا و هو كما ترى.

قوله تعالى: **{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ }** أمر للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار الذين كانوا من قبل حيث خربت ديارهم و عفت آثارهم و بادوا عن آخرهم و انقطع دابرهم بأنواع من النوائب و البلايا كان أكثرهم مشركين فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا إلى التوحيد، فالآية في مقام الاستشهاد لمضمون الآية السابقة.

قوله تعالى: **{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ }** تفريع على ما تقدمه أي إذا كان الشرك و الكفر بالحق بهذه المثابة و له وبال سيلحق بالمتلبس به فأقم وجهك للدين القيم.

و قوله: **{ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ }** متعلق بقوله: **{ فَأَقِمْ }** و المراد مصدر ميمي بمعنى الرد و هو بمعنى الراد و اليوم الذي لا مرد له من الله يوم القيامة.

و قوله: **{ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ }** أصله يتصدعون، و التصدع في الأصل تفرق أجزاء الأواني ثم استعمل في مطلق التفرق كما قيل، و المراد به كما قيل تفرقهم يومئذ إلى الجنة و النار.

و قيل: المراد تفرق الناس بأشخاصهم كما يشير إليه قوله تعالى: **{ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ }**: القارعة: ٤ و لكل وجه، و لعل الأظهر امتياز الفريقين كما سيأتي.

قوله تعالى: **{ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ }** الظاهر أنه تفسير لقوله في الآية السابقة: **{ يَتَفَرَّقُونَ }** و قوله: **{ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ }** أي وبال

كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذي سينقلب عليه نارا يخلد فيها وهذا أحد الفريقين.

وقوله: **{وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}** مهد الفراش بسطه وإيطاؤه، وهؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقد جيء بالجزء **{فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}** جمعا نظرا إلى المعنى، كما أنه جيء به مفردا في الشرطية السابقة **{فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ}** نظرا إلى اللفظ، واكتفى في الشرط بذكر العمل الصالح ولم يذكر الإيمان معه لأن العمل إنما يصلح بالإيمان على أنه مذكور في الآية التالية.

والمعنى: والذين عملوا عملا صالحا بعد الإيمان فلأنفسهم يوطئون ما يعيشون به ويستقرون عليه.

وقوله تعالى: **{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}** قال الراغب: الجزاء الغناء والكفاية، قال الله تعالى: **{لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا}**، وقال: **{لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا}** والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرا نخير وإن شرا فشر، يقال: جزيته كذا وبكذا. انتهى.

وقوله: **{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ}** اللام للغاية ولا ينافي عد ما يؤتيهم جزاء و فيه معنى المقابلة عده من فضله و فيه معنى عدم الاستحقاق و ذلك لأنهم بأعيانهم و ما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله سبحانه فلا يملكون لأنفسهم شيئا حتى يستحقوا به أجرا، و أين العبودية من الملك و الاستحقاق فما يؤتونه من الجزاء فضل من غير استحقاق.

لكنه سبحانه بفضله و رحمته اعتبر لهم ملكا لأعمالهم في عين أنه يملكهم و يملك أعمالهم فجعل لهم بذلك حقا يستحقونه، و جعل ما ينالونه من الجنة و الزلفى أجرا مقابلا لأعمالهم و هذا الحق المجعول أيضا فضل آخر منه سبحانه.

و منشأ ذلك حبه تعالى لهم لأنهم لما أحبوا ربهم أقاموا وجوههم للدين القيم و اتبعوا الرسول فيما دعا إليه فأحبهم الله كما قال: **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}**: آل عمران: ٣١.

ولذا كانت الآية تعد ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء و فيه معنى المقابلة و المبادلة

و تعد ذلك من فضله نظرا إلى أن نفس هذه المقابلة و المبادلة فضل منه سبحانه و منشؤه حبه تعالى لهم كما يومئ إليه تذييل الآية بقوله: **{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}**.

و من هنا يظهر أن قوله: **{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}**، يفيد التعليل بالنسبة إلى جانبي النفي و الإثبات جميعا أي أنه تعالى يخص المؤمنين العاملين للصلوات بهذا الفضل و يحرم الكافرين منه لأنه يحب هؤلاء و لا يحب هؤلاء.

قوله تعالى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**، المراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قبيل نزوله.

و قوله: **{وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ}** عطف على موضع مبشرات لما فيه من معنى التعليل و التقدير يرسل الرياح لتبشركم و ليذيقكم من رحمته و المراد بإذاقة الرحمة إصابة أنواع النعم المترتبة على جريان الرياح ككثييح الأشجار و دفع العفونات و تصفية الأجواء و غير ذلك مما يشمله إطلاق الجملة.

و قوله: **{وَلِيَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ}** أي لجريان الرياح و هبوبها. و قوله: **{وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ}** أي لتطلبوا من رزقه الذي هو من فضله.

و قوله: **{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**، غاية معنوية كما أن الغايات المذكورة من قبل غايات صورية، و الشكر هو استعمال النعمة بخو ينبي عن إنعام منعمه أو الثناء اللفظي عليه بذكر إنعامه، و ينطبق بالآخرة على عبادته و لذلك جيء بلعل المفيدة للرجاء فإن الغايات المعنوية الاعتبارية ربما تخلفت.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَمَنَّا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}** قال الراغب: أصل الجرم بالفتح فالسكون قطع الثمرة عن الشجر إلى أن قال و أجرم صار ذا جرم نحو أثمر و أتمر و ألبن و أستعير ذلك لكل اكتساب مكروه، و لا يكاد يقال في عامة كلامهم للكيس المحمود انتهى.

و الآية كالمعترضة و كأنها مسوقة لبيان أن للمؤمنين حقا على ربهم و هو نصرهم في الدنيا و الآخرة و منه الانتقام من المجرمين، و هذا الحق مجعول من قبله تعالى لهم على

نفسه فلا يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوبا في نفسه مقهورا محكوما لغيره.

وقوله: **{فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا}** الفاء فصيحة أي فآمن بعضهم وأجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين وكان حقا علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب وإهلاك مخالفهم، وفي الآية بعض الإشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه من النصر.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}** قال: في البر فساد الحيوان إذا لم يمطر و كذلك هلاك دواب البحر بذلك. وقال الصادق (عليه السلام): **حياة دواب البحر بالمطر فإذا كف المطر ظهر الفساد في البر والبحر، وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي.**
أقول: وهو من الجري.

وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: **{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ}** فقال: **عنى بذلك أي انظروا في القرآن فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم.**

وفي المجمع في قوله: **{وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}**: روى منصور بن حازم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **إن العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنة فيمهد له كما يمهد لأحدهم خادمه فراشه.**
وفيه وجاءت الرواية عن أم الدرداء أنها قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: **ما من امرئ يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم قرأ: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}**.

أقول: ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٤٨ الى ٥٣]

{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ
أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَاَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ
ذَلِكَ لَمُعْجِزَاتِ اللَّهِ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ
يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَ مَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمَى
عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾}

(بيان)

هذا هو الفصل الثالث من الآيات المحتجة من طريق أفعاله تعالى وإن شئت فقل: أسماء أفعاله و عمدة
غرضها الاحتجاج على المعاد، و لما كان عمدة إنكارهم و بحودهم متوجها إلى المعاد و بإنكاره يلغو الأحكام
و الشرائع فيلغو التوحيد عقب الاحتجاج بإيثار النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و أمره بأن يشتغل بدعوة
في نفسه استعداد الإيمان و صلاحية الإسلام و التسليم للحق.

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ} إلى آخر الآية، الإثارة
التحريك و النشر و السحاب الغمام و السماء جهة العلو فكل ما علاك و أظلك فهو سماء و الكسف بالكسر
فالفتح جمع كسفة و هي القطعة و الودق

القطر من المطر والحلال جمع خلة وهي الفرجة.

والمعنى: الله الذي يرسل الرياح فتحرك و تنشر سحابا و يبسط ذلك السحاب في جهة العلو من الجو كيف يشاء سبحانه و يجعله قطعات متراكبة متراكمة فتري قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لأنه مادة حياتهم و حياة الحيوان و النبات.

قوله تعالى: **{وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ}** الإبل اس: اليأس و القنوط.

و ضمير **{يُنَزَّل}** للمطر و كذا ضمير **{مِنْ قَبْلِهِ}** على ما قيل، و عليه يكون **{مِنْ قَبْلِهِ}** تأكيدا لقوله: **{مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ}** و فائدة التأكيد على ما قيل الاعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من اليأس إلى الاستبشار، و ذلك أن قوله: **{مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ}** يحتمل الفسحة في الزمان فجاء **{مِنْ قَبْلِهِ}** للدلالة على الاتصال و دفع ذلك الاحتمال.

و في الكشاف، أن قوله: **{مِنْ قَبْلِهِ}** من باب التكرير و التوكيد كقوله تعالى: **{فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا}** و معنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول و بعد فاستحكم يأسهم و تمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك. انتهى.

و ربما قيل: إن ضمير **{مِنْ قَبْلِهِ}** لإرسال الرياح، و المعنى: و إن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبل إرسال الرياح لآيسين قانطين.

قوله تعالى: **{فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** الآثار جمع الأثر و هو ما يبقى بعد الشيء فيدل عليه كأثر القدم و أثر البناء و أستعير لكل ما يتفرع على شيء، و المراد برحمة الله المطر النازل من السحاب الذي بسطته الرياح، و آثارها ما يترتب على نزول المطر من النبات و الأشجار و الأثمار و هي بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها.

و لذا قال: **{فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}** فجعل آثار الرحمة التي هي المطر كيفية إحياء الأرض بعد موتها، فحياة الأرض بعد موتها.

من آثار الرحمة و النبات و الأشجار و الأثمار من آثار حياتها و هي أيضا من آثار الرحمة و التدبير تدبير إلهي يتفرع على خلقه الرياح و السحاب و المطر.

و قوله: **{إِنَّ ذَلِكَ لَمُنِي الْمَوْتِ}** الإشارة بذلك إليه تعالى بما له من الرحمة التي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها، و في الإشارة البعيدة تعظيم، و المراد بالموتى موتى الإنسان أو الإنسان و غيره من ذوي الحياة.

و المراد بقوله: **{إِنَّ ذَلِكَ لَمُنِي الْمَوْتِ}** الدلالة على المماثلة بين إحياء الأرض الميتة و إحياء الموتى إذ في كل منهما موت هو سقوط آثار الحياة من شيء محفوظ و حياة هي تجدد تلك الآثار بعد سقوطها، و قد تحقق الإحياء في الأرض و النبات و حياة الإنسان و غيره من ذوي الحياة مثلها و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد، فإذا جاز الإحياء في بعض هذه الأمثال و هو الأرض و النبات فليجز في البعض الآخر.

و قوله: **{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** تقرير للإحياء المذكور ببيان آخر و هو عموم القدرة فإن القدرة غير محدودة و لا متناهية فيشمل الإحياء بعد الموت و إلا لزم تقيدها و قد فرضت مطلقة غير محدودة.

قوله تعالى: **{وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ}** ضمير **{فَرَأَوْهُ}** للنبات المفهوم من السياق، و قوله **{لَظَلُّوا}** جواب للقسم قائم مقام الجزاء، و المعنى: و أقسم لئن أرسلنا ريحا باردة فضربت زروعهم و أشجارهم بالصفار و رأوه لظلوا بعده كافرين بنعمه.

ففي الآية تويخهم بالتقلب السريع في النعمة و النعمة، فإذا لاحت لهم النعمة بادروا إلى الاستبشار، و إذا أخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلمات من النعم.

و قيل: ضمير **{فَرَأَوْهُ}** للسحاب لأن السحاب إذا كان أصفر لم يمطر، و قيل: للريح فإنه يذكر و يؤنث، و القولان بعيدان.

قوله تعالى: **{فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى}** إلى قوله **{فَهُمْ مُسْلِمُونَ}** تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل: لا تشتغل و لا تحزن بهؤلاء الذين تبدل بهم الأحوال من إبلاس و استبشار و كفر و من عدم الإيمان بآياتنا و عدم تعقلها فإنهم موتى و صم و عمي

و أنت لا تقدر على إسماعهم و هدايتهم و إنما تسمع و تهدي من يؤمن بآياتنا أي يعقل هذه الحجج و يصدقها فهم مسلمون. و قد تقدم تفسير الآيتين في سورة النمل.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥٤ الى ٦٠]

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِئُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾}

(بيان)

هذا هو الفصل الرابع من الآيات و هو كسابقه و فيها ختام السورة.

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً} إلخ، الضعف و القوة متقابلان، و {مِنْ} في قوله: {مِنْ}

ضَعِيفٌ للابتداء أي ابتداء خلقكم من ضعف أي ابتداءكم ضعفاء، و مصداقه على ما تفيده المقابلة أول الطفولية وإن أمكن صدقه على النطفة.

و المراد بالقوة بعد الضعف بلوغ الأشد و بالضعف بعد القوة الشيخوخة و لذا عطف عليه **{شَيْبَةٌ}** عطف تفسير، و تنكير **{ضَعِيفٌ}** و **{قُوَّةٌ}** للدلالة على الإبهام و عدم تعين المقدار لاختلاف الأفراد في ذلك. و قوله: **{يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}** أي كما شاء الضعف نخلقه ثم القوة بعده نخلقها ثم الضعف بعدها نخلقه و في ذلك أتم الإشارة إلى أن تتالي هذه الأحوال من الخلق و إذ كان هذا النقل من حال إلى حال في عين أنه تدبير خلقا فهو لله الخالق للأشياء فليس لقائل منهم أن يقول: إن ذلك من التدبير الراجع إلى إله الإنسان، مثلا كما يقوله الوثنية.

ثم تم الكلام بالعلم و القدرة فقال: **{وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}**.

قوله تعالى: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ}**، هذه الآيات كالذنابة للآيات السابقة العادة للآيات و الحجج على وحدانيته تعالى و البعث، و كالتمهيد و التوطئة للآية التي تحتتم بها السورة فإنه لما عد شيئا من الآيات و الحجج و أشار إلى أنهم ليسوا ممن يترقب منهم الإيمان أو يطمع في إيمانهم أراد أن يبين أنهم في جهل من الحق يتلقون الحديث الحق باطلا و الآيات الصريحة الدلالة منعزلة عن دلالتها و كذلك يؤفكون و لا عذر لهم يعتذرون به.

و هذا الإفك و التقلب من الحق إلى الباطل يدوم عليهم و يلزمهم حتى قيام الساعة فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت و البعث غير ساعة من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم كل حق فظنوه باطلا.

فقوله: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}**، يحكي عنهم اشتباه الأمر عليهم في أمر الفصل بين الدنيا و يوم البعث حتى ظنوه ساعة من ساعات الدنيا.

و قوله: **{كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ}** أي يصرفون من الحق إلى الباطل فيدعون إلى الحق و يقام عليه الحجج و الآيات فيظنونه باطلا من القول و خرافة من الرأي.

قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ}** إنخ، رد منهم لقول المجرمين: **{مَا لَبِئْتُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}** فإن المجرمين لإخلادهم إلى الأرض و توغلهم في نشأة الدنيا يرون يوم البعث و الفصل بينه و بين الدنيا محكوما بنظام الدنيا فقدروا الفصل بساعة و هو مقدار قليل من الزمان كأنهم ظنوا أنهم بعد في الدنيا لأنه مبلغ علمهم.

فرد عليهم أهل العلم و الإيمان أن اللبث مقدر بالفصل بين الدنيا و يوم البعث و هو الفصل الذي يشير إليه قوله: **{وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}**: المؤمنون: ١٠٠.

فاستنتجوا منه أن اليوم يوم البعث و لكن المجرمين لما كانوا في ريب من البعث و لم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنوا أنهم لم يمر بهم إلا ساعة من ساعات الدنيا و هذا معنى قولهم: **{لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}**، أي كنتم جاهلين مرتابين لا يقين لكم بهذا اليوم و لذلك اشتبه عليكم أمر اللبث.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: **{أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ}**، اليقين و الالتزام بمقتضاه و أن العلم بمعنى اليقين بالله و آياته و الإيمان بمعنى الالتزام بمقتضى اليقين من الموهبة الإلهية، و من هنا يظهر أيضا أن المراد بكتاب الله الكتب السماوية أو خصوص القرآن لا غيره و قول بعضهم: إن في الآية تقديما و تأخيرا و التقدير و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان في كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث لا يعتد به.

قوله تعالى: **{فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}** الاستعتاب طلب العتبي، و العتبي إزالة العتاب أي لا ينفعهم المعذرة عن ظلمهم و لا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}** إنخ، إشارة

١ و يمكن أن يكون المراد بكتاب الله اللوح المحفوظ فيكون ذلك استدلالا على قولهم بكتاب الله و يكون نظير ما في قوله: «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق»، الجاثية: ٢٩ بناء على ما سيأتي

إلى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحق حيث لا ينفعهم مثل يقرب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع عليها، ولذا عقبه بقوله: **{وَلَيْنَ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ}** أي جاءون بالباطل وهذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق يرون كل حق باطلا، ووضع الموصول والصلة موضع الضمير للدلالة على سبب القول.

قوله تعالى: **{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}**، أي يجهلون بالله وآياته ومنها البعث وهم يصرون على جهلهم وارتياهم.

قوله تعالى: **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}**، أي فاصبر على ما يواجهونك به من قولهم: **{إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ}** و سائر تهكماتهم، إن وعد الله أنه ينصرك حق كما أوما إليه بقوله: **{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}**، ولا يستخفك الذين لا يوقنون بوعد الله سبحانه.

و قول بعضهم: إن المعنى لا يوقنون بما نتلو عليهم من الآيات البينات بتكذيبهم لها وإيذائهم لك بأباطيلهم، ليس بشيء وقد بدأت السورة بالوعد و ختمت بالوعد والوعدان جميعا بالنصرة.

(٣١) (سورة لقمان مكية، وهي أربع و ثلاثون آية) (٣٤)

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١ الى ١١]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ
﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّنْ
رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَآلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن
لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا وَآلَتِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾}

(بيان)

غرض السورة كما يومئ إليه فاتحتها وخاتمتها ويشير إليه سياق عامة آياتها الدعوة إلى التوحيد والإيقان بالمعاد والأخذ بكليات شرائع الدين.

وي لوح من صدر السورة أنها نزلت في بعض المشركين حيث كان يصد الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوقة ملهية كما ورد فيه الأثر في سبب نزول قوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** (الآية)، و سيوافي حديثه. فنزلت السورة تبين أصول عقائد الدين و كليات شرائعه الحققة و قصت شيئا من خبر لقمان الحكيم و مواعظه تجاه أحاديثهم الملهية.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها. و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ}** (الآية).

قوله تعالى: **{تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ}** إلى قوله **{يُوفُونَ}** تقدم تفسير مفردات هذه الآيات في السور السابقة.

و قد وصف الكتاب بالحكيم إشعارا بأنه ليس من لهو الحديث من شيء بل كتاب لا انثلام فيه ليدخله لهو الحديث و باطل القول، و وصفه أيضا بأنه هدى و رحمة للمحسنين تميما لصفة حكمته فهو يهدي إلى الواقع الحق و يوصل إليه لا كاللهو الشاغل للإنسان عما يهيمه، و هو رحمة لا نقمة صارفة عن النعمة.

و وصف المحسنين بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة اللتين هما العمدتان في الأعمال و بالإيقان بالآخرة و يستلزم التوحيد و الرسالة و عامة التقوى، كل ذلك مقابلة الكتاب للهو الحديث المصغي إليه لمن يستمع لهو الحديث.

قوله تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهَا هُزُوًا}**، إنلح، اللهو ما يشغلك عما يهيمك، و لهو الحديث: الحديث الذي يلهي عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافية و القصص الداعية إلى الفساد و الفجور، أو بما يقارنه كالتغني بالشعر أو بالملاهي و المزامير و المعازف فكل ذلك يشمل لهو الحديث.

وقوله: **{لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}** مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقّة الاعتقادية والعلمية وخاصة قصص الأنبياء وأمهم الخالية فإنّ هو الحديث والأساطير المزوقة المختلفة تعارض أولاً هذه القصص ثم تهدم بنيان سائر المعارف الحقّة وتوهنها في أنظار الناس.

ويؤيد ذلك قوله بعد: **{وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا}** فإنّ هو الحديث بما أنه حديث كما سمعت يعارض أولاً الحديث ويتخذه سخرياً.

فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص والمعارف و كأن مراد من كان يشتري هو الحديث أن يضل الناس بصرفهم عن القرآن وأن يتخذ القرآن هزواً بأنه حديث مثله وأساطير كأساطيره.

وقوله: **{بِغَيْرِ عِلْمٍ}** متعلق بيضل وهو في الحقيقة وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين وإن كانوا أيضاً لا علم لهم ثم هددهم بقوله: **{أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}** أي مذل يوهنهم ويذلهم حذاء استبكارهم في الدنيا.

قوله تعالى: **{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَوَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا}** إنلخ، وصف لذك الذي يشتري هو الحديث ليضل الناس عن القرآن ويهزأ به والوقر الحمل الثقيل والمراد بكون الوقر على أذنيه أن يشد عليهما ما يمنع من السمع وقيل: هو كناية عن الصمم.

والمعنى: وإذا تلى على هذا المشتري هو الحديث آياتنا أي القرآن ولى وأعرض عنها وهو مستكبر كأن لم يسمعها قط كأنه أصم فبشره بعذاب أليم.

وقد أعيد إلى من يشتري ضمير الأفراد أولاً كما في **{يَشْتَرِي}** و **{لِيُضِلَّ}** و **{يَتَّخِذَهَا}** باعتبار اللفظ والضمير الجمع، ثانياً باعتبار المعنى ثم ضمير الأفراد باعتبار اللفظ كما في **{عَلَيْهِ}** وغيره كذا قيل، ومن الممكن أن يكون ضمير **{لَهُمْ}** في الآية السابقة راجعاً إلى مجموع المضل والضالين المدلول عليهم بالسياق فتكون الضمائر الراجعة إلى **{مِنْ}** مفردة جميعاً.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ}** إلى قوله **{الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** رجوع بعد إنذار ذاك المشتري وتهديده بالعذاب المهين ثم العذاب

الأليم إلى تبشير المحسنين و تطيب أنفسهم بجنة النعيم الخالدة الموعودة من قبله تعالى و وعده الحق.

و لما كان غرض من اشترى هو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضلّه بغير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطلة كأساطيره و يهين به و كان لا يعتني بما نتلى عليه من الآيات مستكبرا و ذلك استهانة بالله سبحانه أكد أولا ما وعده للمحسنين بقوله: **{وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا}** ثم وصف ثانيا نفسه بالعزة المطلقة، فلا يطرأ عليه ذلة و أهانه و الحكمة المطلقة فلا يداخل كلامه باطل و لا هزل و خرافة.

ثم وصفه ثالثا بأنه الذي يدبر أمر السماء و الأرض و النبات و الحيوان و الإنسان لأنه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنة و أولئك بالعذاب و هو قوله: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}** إلخ.

قوله تعالى: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}** إلخ، تقدم في تفسير قوله تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}**: الرعد: ٢ أن قوله: **{تَرَوْنَهَا}** يحتمل أن يكون قيدا توضيحيا، و المعنى أنكم ترونها و لا أعمدة لها، و أن يكون قيدا احترازيا و المعنى خلقها بغير أعمدة مرئية إشعارا بأن هناك أعمدة غير مرئية. و قوله: **{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ}**، أي ألقى فيها جبالا شامخة لئلا تضطرب بكم و فيه إشعار بأن بين الجبال و الزلازل رابطة مستقيمة.

و قوله: **{وَوَبَّأَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ}** أي نشر في الأرض من كل حيوان يدب عليها.

و قوله: **{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}** أي و أنزلنا من جهة العلو ماء و هو المطر و أنبتنا فيها شيئا من كل زوج نباتي شريف فيه منافع و له فوائد، و فيه إشارة إلى تزوج النبات و قد تقدم الكلام فيه في نظيره.

و الالتفات فيها من الغيبة إلى التكلم مع الغير للإشارة إلى كمال العناية بأمره كما قيل.

قوله تعالى: **{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**، لما أراهم خلقه و تدبيره تعالى للسموات و الأرض و ما عليها فأثبت به ربوبيته و ألوهيته تعالى كلفهم أن يروه شيئا من خلق آلهتهم إن كانوا آلهة و أربابا فإن

لم يقدرُوا على إراءة شيء ثبت بذلك وحدانيته تعالى في ألوهيته و ربوبيته.

وإنما كلفهم بإراءة شيء من خلق آلهم و هم يعترفون أن الخلق لله وحده و لا يسندون إلى آلهم خلقا و إنما ينسبون إليهم التدبير فقط، لأنه نسب إلى الله خلقا هو بعينه تدبير من غير انفكاك، فلو كان لآلهم تدبير في العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره و إذ ليس لهم خلق فليس لهم تدبير فلا إله إلا الله و لا رب غيره.

و قد سقت الآية خطابا من النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) لأن نوع هذا الخطاب {فَأَرْوِي مَا دَا حَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} لا يستقيم من غيره (صلى الله عليه وآله و سلم).

(بحث روائي)

في المجمع: نزل قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} في النضر بن الحارث بن علقمة بن كدة بن عبد الدار بن قصي بن كلاب كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم و يحدث بها قريشا و يقول لهم: إن محمدا يحدثكم بحديث عاد و ثمود و أنا أحدثكم بحديث رستم و إسفنديار و أخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه و يتركون استماع القرآن: عن الكلبي.

أقول: و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن البيهقي عن ابن عباس، و لا يبعد أن يكون ذلك سبب نزول تمام السورة كما تقدمت الإشارة إليه.

و في المعاني بإسناده عن يحيى بن عباد عن أبي عبد الله (عليه السلام): قلت: قوله عز و جل: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ} قال: منه الغناء.

أقول: و روى هذا المعنى في الكافي بإسناده عن مهران عنه (عليه السلام)، و بإسناده عن الوشاء عن الرضا عنه (عليه السلام)، و بإسناده عن الحسن بن هارون عنه (عليه السلام).

و في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سمعته يقول: الغناء مما أوعد الله عليه النار و تلا هذه الآية: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهَا هُزُوًا - أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}.

و فيه بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن كسب المغنيات

فقال: التي يدخل عليها الرجال حرام و التي تدعى إلى الأعراس ليس به بأس - و هو قول الله عز و
جل: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}**.

و في الجمع و روى أبو أمامة عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قال: لا يحل تعليم المغنيات و لا
بيعهن و أثمانهن حرام و قد نزل تصديق ذلك في كتاب الله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ}** (الآية).
أقول: و رواه في الدر المنثور عن جم غفير من أصحاب الجوامع عن أبي أمامة عنه (صلى الله عليه وآله
و سلم).

و فيه و روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: هو الطعن في الحق و الاستهزاء به و ما كان أبو
جهل و أصحابه يجيئون به إذ قال: يا معاشر قريش أ لا أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم؟ ثم أرسل
إلى زبد و تمر فقال: هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به. قال: و منه الغناء.

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسين قال: ما قدست أمة فيها البربط.

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام): في قوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ}** فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلة من بني عبد
الدار بن قصي، و كان النضر ذا رواية لأحاديث الناس و أشعارهم، يقول الله عز و جل: **{وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
آيَاتُنَا وَآلَىٰ مُسْتَكْبِرًا}** (الآية).

و فيه عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: قلت له: أخبرني عن
قول الله تعالى: **{وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ}** قال: هي محبوكة إلى الأرض و شبك بين أصابعه. فقلت: كيف تكون
محبوكة إلى الأرض و الله يقول: **{رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}**؟ فقال: سبحان الله أ ليس يقول: **{بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا}**؟ فقلت: بلى. فقال: فثم عمد و لكن لا ترونها.

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

(بيان)

في الآيات إشارة إلى إيتاء لقمان الحكمة ونبذة من حكمه و مواعظه لابنه و لم يذكر في القرآن إلا في هذه السورة و يناسب المورد من حيث مقابلة قصته الممتلئة حكمة و موعظة لما قص من حديث من كان يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم و يتخذها هزوا.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ}** إنخ، الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية النافعة و هي وسط الاعتدال بين الجهل و الجريزة. و قوله: **{أَنْ اشْكُرْ لِي}** قيل: هو بتقدير القول أي و قلنا: **{أَنْ اشْكُرْ لِي}**.

و الظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول، و ذلك أن حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الذي ينبغي له بحيث يشير إلى إنعام المنعم، و إيقاعه كما هو حقه يتوقف على معرفة المنعم و معرفة نعمه بما هي نعمة و كيفية وضعها موضعه بحيث يحكي عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له إلى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالملازمة.

و في قوله: **{أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ}** التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة و ذلك أن التكلم مع الغير من المتكلم إظهار للعظمة بالتكلم عن قبل نفسه و خدمه و قول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر و هو ظاهر.

و قوله: **{وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}** استغناء منه تعالى أن نفع الشكر إنما يرجع إلى نفس الشاكر و الكفر لا يتضرر به إلا نفسه دونه سبحانه و من يشكر فإنما يوقع الشكر لنفع نفسه و لا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق و من كفر فإنما يتضرر به نفسه إن الله غني لا يؤثر فيه الشكر نفعاً و لا ضراً حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر.

و في التعبير عن الشكر بالمضارع الدال على الاستمرار و في الكفر بالماضي الدال على المرة إشعار بأن الشكر إنما ينفع مع الاستمرار لكن الكفر يتضرر بالمرة منه.

قوله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** عظمة كل عمل بعظمة أثره و عظمة المعصية بعظمة المعصي فإن مؤاخذة العظيم عظمة فأعظم المعاصي معصية الله لعظمته و كبريائه فوق كل عظمة و كبرياء بأنه الله لا شريك له و أعظم معاصيه معصيته في أنه الله لا شريك له.

و قوله: **{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** حيث أطلق عظمته من غير تقييد بقياسه إلى سائر المعاصي يدل على أن له من العظمة ما لا يقدر بقدر.

قوله تعالى: **{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ}** إلى آخر الآية، اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان و ليس من كلام لقمان وإنما اطرد هاهنا للدلالة على وجوب

شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لانتهاه إلى وصيته و أمره تعالى، فشكرهما عبادة له تعالى و عبادته شكر.

و قوله: **{حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}** ذكر بعض ما تحملته أمه من المحنة و الأذى في حمله و تربيته ليكون داعيا له إلى شكرهما و خاصة الأم.

و الوهن الضعف و هو حال بمعنى ذات و هن أو مفعول مطلق و التقدير تن و هنا على و هن، و الفصال الفطم و ترك الإرضاع، و معنى كون الفصال في عامين تحققه بتحقق العامين فيئول إلى كون الإرضاع عامين، و إذا ضم إلى قوله تعالى: **{وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}**: الأحقاف: ١٥ بقي لأقل الحمل ستة أشهر، و ستكرر الإشارة إليه فيما سيأتي.

و قوله: **{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ}** تفسير لقوله: **{وَصَيَّنَّا}** إنخ، في أول الآية أي كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله، و قوله: **{إِلَى الْمَصِيرِ}** إنذار و تأكيد للأمر بالشكر.

و القول في الالتفات الواقع في الآية في قوله: **{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ}** إنخ، من سياق التكلم مع الغير إلى سياق التكلم وحده كالقول في الالتفات في قوله السابق: **{أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ}**.

قوله تعالى: **{وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا}** إلى آخر الآية. أي إن ألحا عليك بالمجاهدة أن تجعل ما ليس لك علم به أو بحقيقته شريكا لي فلا تطعهما و لا تشرك بي، و المراد بكون الشريك المفروض لا علم به كونه معدوما مجهولا مطلقا لا يتعلق به علم فيئول المعنى: لا تشرك بي ما ليس بشيء، هذا محصل ما ذكره في الكشاف، و ربما أيده قوله تعالى: **{أُتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}**: يونس: ١٨.

و قيل: **{تُشْرِكُ}** بمعنى تكفر و **{مَا}** بمعنى الذي، و المعنى: و إن جاهداك أن تكفر بي كفرا لا حجة لك به فلا تطعهما و يؤيده تكرار نفي السلطان على الشريك

في كلامه تعالى كقوله: **{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}**: يوسف: ٤٠ إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: **{وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}** الجملتان كالتلخيص و التوضيح لما تقدم في الآيتين من الوصية بهما و النهي عن إطاعتها إن جاهدا على الشرك بالله.

يقول سبحانه: يجب على الإنسان أن يصاحبهما في الأمور الدنيوية غير الدين الذي هو سبيل الله صحابا معروفا و معاشرة متعارفة غير منكرة من رعاية حالهما بالرفق و اللين من غير جفاء و خشونة و تحمل المشاق التي تلحقه من جهتهما فليست الدنيا إلا أياما معدودة متصرمة، و أما الوالدين فإن كانا ممن أناب إلى الله فلتتبع سبيلهما و إلا فسبيل غيرهما ممن أناب إلى الله.

و من هنا يظهر أن في قوله: **{وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}** إيجازا لطيفا فهو يفيد أنهما لو كانا من المنيبين إلى الله فلتتبع سبيلهما و إلا فلا يطاعا و لتتبع سبيل غيرهما ممن أناب إلى الله.

وقوله: **{ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** أي هذا الذي ذكر، تكليفكم في الدنيا ثم ترجعون إلى يوم القيامة فأظهر لكم حقيقة أعمالكم التي عملتموها في الدنيا فأقضي بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر.

و بما مر يظهر أن قوله: **{فِي الدُّنْيَا}** يفيد أولا قصر المصاحبة بالمعروف في الأمور الدنيوية دون الدينية، و ثانيا: تهوين أمر الصحبة و أنها ليست إلا في أيام قلائل فلا كثير ضمير في تحمل مشاق خدمتهما، و ثالثا المقابلة ليوم الرجوع إلى الله المشار إليه بقوله: **{ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ}** إلخ.

قوله تعالى: **{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ فِي الدُّنْيَا مَثَاقِطَ حَبَّةٍ مِنْ حَبِّ خَلْدٍ فَكَفِّرْ بِهَا عَنْ سَيِّئَاتِكَ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ}** إلخ، ذكروا أن الضمير في **{إِنَّهَا}** للنخلة من الخير و الشر لدلالة السياق على ذلك و هو أيضا اسم كان و **{مِثْقَالَ حَبَّةٍ}** خبره، و المراد بكونها في صخرة اختفاؤها بالاستقرار في جوف الصخرة الصماء أو في السماوات أو في الأرض، و المراد بالإتيان بها إحضارها للحساب و الجزاء.

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعا إلى التوحيد ونفي الشريك و ما في هذه الآية فصل ثان في المعاد و فيه حساب الأعمال، و المعنى: يا بني إن تكن الخصلة التي عملت من خير أو شر أخف الأشياء و أدقها كمثل حبة من خردل فتكن تلك الخصلة الصغيرة مستقرة في جوف صخرة أو في أي مكان من السماوات و الأرض يأت بها الله للحساب و الجزاء لأن الله لطيف ينفذ عمله في أعماق الأشياء و يصل إلى كل خفي خبير يعلم كنه الموجودات.

قوله تعالى: **{ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ إِنه عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ }** (الآية) و ما بعدها من كلامه راجع إلى نبذة من الأعمال و الأخلاق الفاضلة.

فمن الأعمال الصلاة التي هي عمود الدين و يتلوها الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و من الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبة.

و قوله: **{ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ }** الإشارة إلى الصبر و الإشارة البعيدة للتعظيم و الترفيع و قول بعضهم: إن الإشارة إلى جميع ما تقدم من الصلاة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الصبر ليس في محله لتكرر عد الصبر من عزم الأمور في كلامه تعالى كقوله: **{ وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ }**: الشورى: ٤٣ و قوله: **{ إِنَّ تَصَبُّرًا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ }**: آل عمران: ١٨٦.

و العزم على ما ذكره الراغب عقد القلب على إمضاء الأمر و كون الصبر و هو حبس النفس في الأمر من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبي ما لم ينخل و ينقسم ثبت الإنسان على الأمر الذي عقد عليه فالصبر لازم الجد في العقد و المحافظة عليه و هو من قدرة النفس و شهامتها.

و قول بعضهم: إن المعنى أن ذلك من عزيمة الله و إيجابه في الأمور بعيد و كذا قول بعضهم: إن العزم هو الجزم و هو لغة هذيل.

قوله تعالى: **{ وَ لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ }** قال الراغب: الصعر ميل في العنق و التصعير إمالة عن النظر كبرا قال: **{ وَ لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ }** و قال: المرح شدة الفرح و التوسع فيه انتهى.

فالمعنى: لا تعرض بوجهك عن الناس تكبرا و لا تمش في الأرض مشية من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء و هو التكبر بتخيل الفضيلة و يكثر من الفخر. و قال بعضهم إن معنى: **{لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ}** لا تلو عنقك لهم تذلا عند الحاجة و فيه أنه لا يلائمه ذيل الآية.

قوله تعالى: **{وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}** القصد في الشيء الاعتدال فيه و الغض على ما ذكره الراغب النقصان من الطرف و الصوت فغض الصوت النقص و القصر فيه.

و المعنى: و خذ بالاعتدال في مشيك و بالنقص و القصر في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه.

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: **إن من الكبائر عقوق الوالدين و اليأس من روح الله و الأمن من مكر الله.** و قد روي: **أكبر الكبائر الشرك بالله.**

و في الفقيه في الحقوق المروية عن سيد العابدين (عليه السلام): **حق الله الأكبر عليك أن تعبه و لا تشرك به شيئا فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا و الآخرة.**

قال: **و أما حق أمك أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحدا و أعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحدا و وقتك بجميع جوارحها، و لم تبال أن تجوع و تطعمك، و تعطش و تسقيك، و تعرى و تكسوك، و تضحى و تظلك، و تهجر النوم لأجلك، و وقتك الحر و البرد لتكون لها فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله و توفيقه.**

و أما حق أبيك فأن تعلم أنه أصلك فإنك لولاه لم تكن فهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه فاحمد الله و اشكره على قدر ذلك و لا قوة إلا بالله.

و في الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **جاء رجل**

إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك.
قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك.

وفي المناقب: مر الحسين بن علي (عليه السلام) على عبد الرحمن بن عمرو بن العاص. فقال عبد الله:
من أحب أن ينظر إلى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء فلينظر إلى هذا المجتاز وما كلمته منذ ليالي صفين.

فأتى به أبو سعيد الخدري إلى الحسين (عليه السلام) فقال له الحسين (عليه السلام): أتعلم أي أحب
أهل الأرض إلى أهل السماء وتقاتلني وأبي يوم صفين؟ والله إن أبي لخير مني. فاستعذر وقال إن النبي (صلى
الله عليه وآله وسلم) قال لي: أطع أباك. فقال له الحسين (عليه السلام): أ ما سمعت قول الله عز وجل: {وَإِنْ
جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا} وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إنما
الطاعة بالمعروف، وقوله: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي الفقيه: في ألفاظه (صلى الله عليه وآله وسلم) الموجزة: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سمعته يقول: اتقوا المحقرات من
الذنوب فإن لها طالبا، يقول أحدكم أذنب وأستغفر إن الله عز وجل يقول: {وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ
شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ} وقال عز وجل: {إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي
السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}.

وفيه بإسناده إلى معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن أفضل ما يتقرب به
العباد إلى ربهم وأحب ذلك إلى الله عز وجل فقال: ما أعلم شيئا بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة
(الحديث).

وفيه بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) أنه قال: الصلاة قربان كل

تقي.

وفي الجمع: {وَإِصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ} من المشقة والأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: عن
علي (عليه السلام).

وفيه في قوله تعالى: {وَلَا تُصَغِرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ} أي ولا تمل وجهك من الناس بكل ولا تعرض عمن
يكلمك استخفافا به: وهذا المعنى قول ابن عباس وأبي عبد الله (عليه السلام).

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني و ابن عدي و ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سئل عن قول الله: **{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ}** قال: **إلى الشدق.**

وفي المجمع في قوله تعالى: **{إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}**: وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **هي العطسة المرتفعة القبيحة و الرجل يرفع صوته بالحديث رفعا قبيحا إلا أن يكون داعيا أو يقرأ القرآن.**
أقول: وفي جميع هذه المعاني و خاصة في العقوق روايات كثيرة متظافرة.

(كلام في قصة لقمان و نذ من حكمه، في فصلين)

١ - لم يرد اسم لقمان في كلامه تعالى إلا في سورة لقمان و لم يذكر من قصصه إلا ما في قوله عز من قائل: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ شَكَرَ لِلَّهِ}** و قد وردت في قصته و حكمه روايات كثيرة مختلفة و نحن نورد بعض ما كان منها أقرب إلى الاعتبار.

ففي الكافي عن بعض أصحابنا رفعه إلى هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام): **يا هشام إن الله قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} قال: الفهم و العقل.**

و في المجمع روى نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: **حقا أقول لم يكن لقمان نبيا و لكن كان عبدا كثيرا التفكر حسن اليقين أحب الله فأحبه و من عليه بالحكمة .**

كان نائما نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت إن خيرني ربي قبلت العافية و لم أقبل البلاء و إن هو عزم علي فسمعا و طاعة فإني أعلم أنه إن فعل بي ذلك أعانني و عصمني.

فقال الملائكة بصوت لا يراهم: لم يا لقمان؟ قال: لأن الحكم أشد المنازل و أكدها يغشاه الظلم من كل مكان إن وفي فبالحري أن ينجو، و إن أخطأ أخطأ طريق الجنة، و من يكن في الدنيا ذليلا و في الآخرة شريفا خير من أن يكون في الدنيا شريفا و في الآخرة ذليلا و من تخير الدنيا على الآخرة تفتته الدنيا و لا يصيب الآخرة.

فعبجت الملائكة من حسن منطقته فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها ثم كان يوازر داود بحكمته فقال له داود: طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة و صرفت عنك البلوى.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):
أتدرون ما كان لقمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: كان حبشياً.

٢ - وفي تفسير القمي بإسناده عن حماد قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن لقمان و حكمته التي ذكرها الله عز و جل، فقال: أما و الله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب و لا مال و لا أهل و لا بسط في جسم و لا جمال.

و لكنه كان رجلاً قويا في أمر الله متورعا في الله ساكناً مستكيناً عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستغن بالعبر لم ينم نهارة قط و لم يره أحد من الناس علي بول و لا غائط و لا اغتسال لشدة تستره و عموق نظره و تحفظه في أمره، و لم يضحك من شيء قط مخافة الإثم و لم يغضب قط، و لم يمازح إنساناً قط، و لم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا و لا حزن منها على شيء قط و قد نكح من النساء و ولد له من الأولاد الكثير و قدم أكثرهم أفراطاً فبا بكي على موت أحد منهم.

و لم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان إلا أصلح بينهما و لم يمض عنهما حتى تحابا، و لم يسمع قولاً قط من أحد استحسنته إلا سأل عن تفسيره و عمن أخذه، و كان يكثر مجالسة الفقهاء و الحكماء، و كان يغشى القضاة و الملوك و السلاطين فيرثي للقضاة مما ابتلوا به، و يرحم الملوك و السلاطين لغرتهم بالله و طمأنينتهم في ذلك، و يعتبر و يتعلم ما يغلب به نفسه و يجاهد به هواه و يحترز به من الشيطان يداوي قلبه بالفكر و يداوي نفسه بالعبر، و كان لا يظعن إلا فيما يعنيه فبذلك أوتي الحكمة و منح العصمة.

و إن الله تبارك و تعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار و هدأت العيون بالقائلة فنادوا لقمان حيث يسمع و لا يراهم فقالوا: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟ فقال لقمان: إن أمرني الله بذلك فالسمع و الطاعة لأنه إن فعل ذلك أعانني عليه و علمني و عصمني و إن هو خيرني قبلت العافية.

فقال الملائكة: يا لقمان لم؟ قال: لأن الحكم بين الناس بأشد المنازل و أكثر

فتنا و بلاء يخذل و لا يعان و يغشاه الظلم من كل مكان و صاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحق فبالحري أن يسلم و إن أخطأ أخطأ طريق الجنة، و من يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكماً سرياً شريفاً، و من اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كليهما تزول هذه و لا تدرك تلك.

قال: فتعجب الملائكة من حكمته و استحسنت الرحمن منطقته - فلما أمسى و أخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشاه بها من قرنه إلى قدمه و هو نائم و غطاه بالحكمة غطاء فاستيقظ و هو أحكم الناس في زمانه، و خرج على الناس ينطق بالحكمة و يبثها فيها.

قال: فلما أوتي الحكم بالخلافة و لم يقبلها أمر الله عز و جل الملائكة فنادت داود بالخلافة فقبلها و لم يشترط فيها بشرط لقمان فأعطاه الله عز و جل الخلافة في الأرض و ابتلي بها غير مرة كل ذلك يهوي في الخطيئ يقبله الله و يغفر له، و كان لقمان يكثر زيارة داود (عليه السلام) و يعظه بمواعظه و حكمته و فضل علمه، و كان داود يقول له: طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة و صرفت عنك البلية و أعطي داود الخلافة و ابتلي بالحكم و الفتنة.

ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز و جل: **{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** قال: فوعظ لقمان ابنه بأثاراً حتى تفطر و انشق.

و كان فيما وعظه به يا حماد أن قال: يا بني إنك منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها و استقبلت الآخرة فدار أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد. يا بني جالس العلماء و زاحمهم بركبتك و لا تجادلهم فيمنعوك، و خذ من الدنيا بلاغا و لا ترفضها فتكون عيالا على الناس، و لا تدخل فيها دخولا يضر بآخرتك، و صم صوما يقطع شهوتك و لا تصم صياما يمنعك من الصلاة فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام.

يا بني: إن الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير فاجعل سفينتك فيها الإيمان و اجعل شراعها التوكل، و اجعل زادك فيها تقوى الله فإن نجوت فبرحمة الله و إن

هلكت فبذنوبك.

يا بني: إن تأدبت صغيرا انتفعت به كبيرا و من عنى بالأدب اهتم به، و من اهتم به تكلف علمه و من تكلف علمه اشتد له طلبه و من اشتد له طلبه أدرك منفعته فاتخذه عادة فإنك تخلف في سلفك و ينتفع به من خلفك و يرتجيك فيه راغب و يخشى صولتك راهب، و إياك و الكسل عنه بالطلب لغيره فإن غلبت على الدنيا فلا تغلبن على الآخرة و إذا فاتك طلب العلم في مظانه فقد غلبت على الآخرة و اجعل في أيامك و لياليك و ساعاتك نصيبا في طلب العلم فإنك لن تجد له تضيقا أشد من تركه و لا تمارين فيه لجوجا و لا تجادلن فقيها و لا تعادين سلطانا، و لا تماشين ظلوما و لا تصادقنه و لا تؤاخين فاسقا و لا تصاحبن متهما و احزن علمك كما تخزن ورقك.

يا بني: خف الله عز و جل خوفا لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت أن يعذبك و ارج الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك.

فقال له ابنه: يا أبت كيف أطيق هذا و إنما لي قلب واحد؟ فقال له لقمان: يا بني: لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف و نور للرجاء لو وزنا لما ربح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة فمن يؤمن بالله يصدق ما قال الله عز و جل و من يصدق ما قال الله يفعل ما أمر الله، و من لم يفعل ما أمر الله لم يصدق ما قال الله فإن هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض.

فمن يؤمن بالله إيمانا صادقا يعمل لله خالصا ناصحا و من يعمل لله خالصا ناصحا فقد آمن بالله صادقا و من أطاع الله خافه، و من خافه فقد أحبه، و من أحبه فقد اتبع أمره و من اتبع أمره استوجب جنته و مرضاته، و من لم يتبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخط الله.

يا بني: لا تركز إلى الدنيا و لا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقا هو أهون عليه منها أ لا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين و لم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين.

و في قرب الإسناد: هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن أبيه (عليه السلام) قيل للقمان: ما الذي أجمعت عليه من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما قد كفيته و لا أضيع ما وليته.

و في البحار عن قصص الأنبياء بإسناده عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان

فيما وعظ به لقمان ابنه أن قال: يا بني: إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك فإنك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك وإنما النوم بمنزلة الموت وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت، وقال: قال لقمان لابنه: يا بني لا تقترب فيكون أبعد لك ولا تبعد فتهان، كل دابة تحب مثلها وابن آدم لا يحب مثله. لا تنشر^١ بزك إلا عند باغيه، وكما ليس بين الكبش والذئب خلة، كذلك ليس بين البار والفاجر خلة، من يقترب من الزفت تعلق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طرفه، من يحب المرء يشتم، ومن يدخل مدخل السوء يتهم، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وقال يا بني صاحب مائة ولا تعاد واحدا، يا بني إنما هو خلاقك وخلقك فخلاقك دينك وخلقك بينك وبين الناس - فلا تبغضن إليهم وتعلم محاسن الأخلاق.

يا بني كن عبدا للأخيار ولا تكن ولدا للأشرار. يا بني أد الأمانة تسلم دنياك وآخرتك وكن أمينا فإن الله لا يحب الخائنين. يا بني لا تر الناس أنك تحشى الله وقلبك فاجر.

وفي الكافي بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: كان فيما وعظ به لقمان لابنه يا بني إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له، وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجرا فأوف عمالك واستوف أجرك، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سممت فكان حتفها عند سمها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جرت عليها فتركها ولم ترجع إليها آخر الدهر أخرجها ولا تعمرها فإنك لم تؤمر بعمارها.

واعلم أنك ستسأل غدا إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع: شبابك فيما

١ أي أن ابن آدم لا يجب أن يكافيه غيره في مزية من المزايا

٢ أي لا تظهر متاعك إلا عند طالبه.

أبليته، و عمرك فيما أفنيتته، و مالك مما اكتسبته و فيما أنفقتته، فتأهب لذلك و أعد له جوابا و لا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه و كثيرها لا يؤمن بلاؤه نخذ حذرنا، و جد في أمرنا، و اكشف الغطاء عن وجهنا، و تعرض لمعروف ربنا، و جدد التوبة في قلبنا، و أكمش في فراقنا قبل أن يقصد قصدنا، و يقضى قضاؤنا، و يحال بيننا و بين ما نريد.

و في البحار عن القصص بإسناده عن حماد عن الصادق (عليه السلام) قال: قال لقمان: يا بني إياك و الضجر و سوء الخلق و قلة الصبر فلا يستقيم على هذه الخصال صاحب، و ألزم نفسك التؤدة في أمورنا و صبر على مئونتنا الإخوان نفسك، و حسن مع جميع الناس خلقنا.

يا بني إن عدمنا ما تصل به قرابتنا و نتفضل به على إخواننا فلا يعدمننا حسن الخلق و بسط البشر فإن من أحسن خلقه أحبه الأخيار و جانبه الفجار، و اقنع بقسم الله ليصفو عيشنا فإن أردت أن تجمع عز الدنيا فاقطع طمعنا مما في أيدي الناس - فإنما بلغ الأنبياء و الصديقون ما بلغوا بقطع طمعهم.
أقول: و الأخبار في مواعظه كثيرة اكتفينا منها بما أوردناه إيثارا للاختصار.

[سورة لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٣٤]

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً
وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ
إِلَى اللَّهِ وَهُوَ

مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ
إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّ مَا
فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ
وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَارْحَبُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ

وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ
السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

(بيان)

رجوع إلى ما قبل القصة من آيات الوحداية ونفي الشريك وأدلتها المنتهية إلى قوله: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ
فَأُرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَ
بَاطِنَةً} رجوع إلى ما قبل قصة لقمان وهو الدليل على أن الخطاب للمشركين وإن كان ذيل الآية يشعر
بعموم الخطاب.

و عليه فصدر الآية من تمة كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و يتصل بقوله: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ
فَأُرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} و لا التفات في قوله: {أَلَمْ تَرَوْا}.

و على تقدير كونه من كلامه تعالى ففي قوله: {أَلَمْ تَرَوْا} التفات من سياق الغيبة الذي في قوله: {بَلِ
الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} إلى الخطاب، و الالتفات في مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد المتكلم و تأكيد
غيظه من جهل المخاطبين و تماديهم في غيهم بحيث لا ينفعهم دلالة و لا ينجح فيهم إشارة فيواجهون بذكر ما
هو بمراى منهم و مسمع لعلهم يتنبهوا عن نومتهم و ينتزعوا عن غفلتهم.

و كيف كان فالمراد بتسخير السماوات و الأرض للإنسان و هم يرون ذلك ما نشاهده من ارتباط
أجزاء الكون بعضها ببعض في نظام عام يدبر أمر العالم عامة و الإنسان خاصة لكونه أشرف أجزاء هذا العالم
المحسوس بما فيه من الشعور و الإرادة فقد سخر الله الكون لأجله.

والتسخير قهر الفاعل في فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر ويريده كتسخير الكاتب القلم للكتابة و كما يسخر المولى عبده و المخدم خادمه في أن يفعل باختياره وإرادته ما يختاره ويريده المولى و المخدم و الأسباب الكونية كائنة ما كانت تفعل بسببيتها الخاصة ما يريد الله من نظام يدبر به العالم الإنساني.

و مما مر يظهر أن اللام في **{لَكُمْ}** للتعليل الغائي و المعنى لأجلكم و المسخر بالكسر هو الله تعالى دون الإنسان، و ربما احتمل كون اللام للملك و المسخر بالكسر هو الإنسان بمشية من الله تعالى كما يشاهد من تقدم الإنسان بمرور الزمان في تسخير أجزاء الكون و استخدامه لها في سبيل مقاصده لكن لا يلائمه تصدير الكلام بقوله: **{أَلَمْ تَرَوْا}**.

و قوله: **{وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}** الإسباغ الإتمام و الإيساع أي أتم و أوسع عليكم نعمه، و النعم جمع نعمة و هو في الأصل بناء النوع و غلب عليه استعماله في ما يلائم الإنسان فيستلذ منه، و المراد بالنعم الظاهرة و الباطنة بناء على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهرة للحس كالسمع و البصر و سائر الجوارح و الصحة و العافية و الطيبات من الرزق و النعم الغائبة عن الحس كالشعور و الإرادة و العقل.

و بناء على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهرة من النعم هي ما ظهر للحس كما تقدم و كالدين الذي به ينتظم أمور دنياهم و آخرتهم و الباطنة منها كما تقدم و كالمقامات المعنوية التي تنال بإخلاص العمل.

و قوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ}** رجوع الخطاب إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) على ما كان في السياق السابق، و المجادلة الخاصة النظرية بطريق المغالبة، و المقابلة بين العلم و الهدى و الكتاب تلوح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجة عقلية، و بالهدى ما يفيضه الله بالوحي أو الإلهام، و بالكتاب الكتاب السماوي المنتهي إليه تعالى بالوحي النبوي و لذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاث من العلم لا رابع لها.

فمعنى قوله: **{يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ}** كذا و كذا أنه يجادل في وحدانيته تعالى في الربوبية و الألوهية بغير حجة يصح الركون إليها بل عن تقليد.

قوله تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ**

آبَاءَنَا إنخ، ضمائر الجمع راجعة إلى **{مِنْ}** باعتبار المعنى كما أن ضمير الإفراد في الآية السابقة راجع إليه باعتبار اللفظ.

وقوله: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ}** في التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال: اتبعوا الكتاب أو القرآن إشارة إلى كون الدعوة دعوة ذات حجة لا تحكم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجة النبوة فكأنه قيل: وإذا دعوا إلى دين التوحيد الذي يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند الله سبحانه، وبعبارة أخرى إذا ألقى إليهم القول مع الحجّة قابله بالتحكم من غير حجة فقالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا.

وقوله: **{أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}** أي أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع إلى عذاب السعير؟ فالاستفهام للإنكار ولو وصلية معطوفة على محذوف مثلها والتقدير أيتبعونهم لو لم يدعوهم الشيطان ولو دعاهم.

ومحصل الكلام: أن الاتباع إنما يحسن إذا كانوا على الحق وأما لو كانوا على الباطل و كان اتبعا يدعوهم به إلى الشقاء وعذاب السعير وهو كذلك فإنه اتباع في عبادة غير الله ولا معبود غيره.

قوله تعالى: **{وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}** استئناف ويحتمل أن يكون حالا من مفعول **{يَدْعُوهُمْ}** وفي معنى الجملة الحالية ضمير عائد إليهم، والمعنى: أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى كذا والحال أن من أسلم وجهه إلى الله كذا فقد نجا وأفلح والحال أن عاقبة الأمور ترجع إلى الله فيجب أن يكون هو المعبود.

وإسلام الوجه إلى الله تسليمه له وهو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعبادة وإعراضه عن سواه. والإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسره به في أول السورة **{هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}** والعروة الوثقى المستمسك الذي لا انفصام له.

والمعنى: ومن وحده الله وعمل صالحا مع اليقين بالمعاد فهو ناج غير هالك البتة في عاقبة أمره لأنها إلى الله وهو الذي يعده بالنجاة والفلاح.

ومن هنا يظهر أن قوله: **{وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}** في مقام التعليل لقوله: **{فَقَدِ}**

اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} بما أنه استعارة تمثيلية عن النجاة و الفلاح.

قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ}- إلى قوله - {إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ} تسلياً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و تطيب لنفسه أن لا يغلبه الحزن و هم بالآخرة راجعون إليه تعالى فينبؤهم بما عملوا أي يظهر لهم حقيقة أعمالهم و تبعاتها و هي النار.

و قوله: {نُمِتَّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضَّضْتُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ} كشف عن حقيقة حالهم ببيان آخر فإن البيان السابق {إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا} ربما أوهم أنهم ما داموا متنعمين في الدنيا خارجون من قدرة الله ثم إذا ماتوا أو بعثوا دخلوا فيما خرجوا منه فاتقم منهم بالعذاب جيء بهذا البيان للدلالة على أنهم غير خارجين من التدبير قط و إنما يمتعهم في الدنيا قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كل حال و أمرهم إلى الله دائماً لن يعجزوا الله في حال التمتع و لا غيرها.

قوله تعالى: {وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} إشارة إلى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون، فإنهم إن سئلوا عن خلق السماوات و الأرض اعترفوا بأنه الله عز اسمه و إذا كان الخالق هو فالمدير لها هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق، و إذا كان مدير الأمر و المنعم الذي يبسط و يقبض و يرجي و يخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون.

و لذلك أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يحمده الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ} ثم أشار إلى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق و ما يستلزمه فقال: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} نعم قليل منهم يعلمون ذلك و لكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه و قد أيقنوا به كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ}: النمل: ١٤.

قوله تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} لما كان اعترافهم بأن الخالق هو الله سبحانه إنما يثبت التوحد بالربوبية و الألوهية إذا كان التدبير و التصرف إليه تعالى و كان نفس الخلق كافياً في استلزامه اكتفى به في تمام الحجّة و استحمد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و استجهل القوم لغفلتهم.

ثم احتج عليه ثانيا من طريق انحصار الملك الحقيقي فيه تعالى لكونه غنيا محمودا مطلقا و تقريره أنه تعالى مبدئ كل خلق و معطي كل كمال فهو واجد لكل ما يحتاج إليه الأشياء فهو غني على الإطلاق إذ لو لم يكن غنيا من جهة من الجهات لم يكن مبدئا له معطيا لكلامه هذا خلف، وإذا كان غنيا على الإطلاق كان له ما في السماوات و الأرض فهو المالك لكل شيء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير و تصرف يقع في العالم فهو له إذ لو كان شيء من التدبير لغيره لا له كان مالكة ذلك الغير دونه وإذا كان التدبير و التصرف له تعالى فهو رب العالمين و الإله الذي يعبد و يشكر إنعامه و إحسانه.

و هذا هو الذي يشير إليه قوله: **{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ}** فقوله: **{لِلَّهِ مَا فِي}** إنح، حجة على وحدانيته و قوله: **{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ}** تعليل للملك.

و أما قوله: **{الْحَمِيدُ}** أي الحمود في أفعاله فهو مبدأ آخر للحجة و ذلك أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري و كل جميل في العالم فهو له سبحانه فإليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق و لو كان شيء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب إليه لكان الحمد و الثناء لغيره تعالى لا له فلا يكون حميدا على الإطلاق و بالنسبة إلى كل شيء و قد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف.

قوله تعالى: **{وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ}** إنح، **{مِنْ شَجَرَةٍ}** بيان للموصول و الشجرة واحد الشجر و تفيد في المقام و هي في سياق **{لَوْ}** الاستغراق أي كل شجرة في الأرض، و المراد بالبحر مطلق البحر، و قوله: **{يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ}** أي يعينه بالانضياف إليه سبعة أمثاله و الظاهر أن المراد بالسبعة الكثير دون خصوص هذا العدد و الكلمة هي اللفظ الدال على معنى، و قد أطلق في كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى، و قد قال: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**: يس: ٨٢ و قد أطلق على المسيح (عليه السلام) الكلمة في قوله: **{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ}**: النساء: ١٧١.

فالمعنى: و لو جعل أشجار الأرض أقلاما و أخذ البحر و أضيف إليه سبعة أمثاله و جعل المجموع مدادا فكتب كلمات الله بتبديلها ألفاظا دالة عليها بتلك

الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات الله لكونها غير متناهية.

و من هنا يظهر أن في الكلام إيجازا بالحذف و أن قوله: **{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** في مقام التعليل، و المعنى: لأنه تعالى عزيز لا يعزه و لا يقهره شيء، فهذه الكتابة لا ينفد بها ما هو من عنده حكيم لا يفوض التدبير إلى غيره.

و الآية متصلة بما قبلها من حيث دلالته على كون تدبير الخلق له سبحانه لا لغيره فسيقت هذه الآية للدلالة على سعة تدبيره و كثرة أوامره التكوينية في الخلق و التدبير إلى حيث ينفد البحر الممدود بسبعة أمثاله لو جعل مدادا و كتبت به أشجار الأرض المجمعولة أقلاما قبل أن ينفد أوامره و كلماته.

قوله تعالى: **{مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعُثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** سوق للكلام إلى إمكان الحشر و خاصة من جهة استبعادهم المعاد لكثرة عدد الموتى و اختلاطهم بالأرض من غير تمييز بعضهم من بعض.

فقال تعالى: **{مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعُثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}** في الإمكان و تأتي فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن و لا يعجزه كثرة و لا يتفاوت بالنسبة إليه الواحد و الجمع، و ذكر الخلق مع البعث للدلالة على عدم الفرق بين البدء و العود من حيث السهولة و الصعوبة بل لا يتصف فعله بالسهولة و الصعوبة.

و يشهد لما ذكر إضافة الخلق و البعث إلى ضمير الجمع المخاطب و المراد به الناس ثم تنظيره بالنفس الواحدة، و المعنى: ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم و لا بعثكم إلا نخلق نفس واحدة و بعثنا فأنتم على كثرتكم و النفس الواحدة سواء لأنه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم و البعث لجزاء الأعمال فإنما يشكل من جهة الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها و اختلاط بعضها ببعض لكنه ليس يجهل شيئا منها لأنه سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم و بعبارة أخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهدة.

و بما مر يندفع الاعتراض على الآية بأن المناسب لتعليل كون خلق الكثير و بعثهم كنفس واحدة أن يعلل بمثل قولنا: إن الله على كل شيء قدير أو قوي عزيز أو ما يشبه ذلك لا بمثل السميع البصير الذي لا ارتباط له بالخلق و البعث.

و ذلك أن الإشكال الذي تعرضت الآية لدفعه هو أن البعث لجزاء الأعمال و هي

على كثرتها واندماج بعضها في بعض كيف تتميز حتى تجزى عليها فالإشكال متوجه إلى ما ذكره قبل ثلاث آيات بقوله: **{فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا}** وقد أجب بأنه كيف يخفى عليه شيء من الأقوال والأعمال وهو سميع بصير لا يشذ عن مشاهدته قول ولا فعل.

وقد كان ذيل قوله السابق: **{فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا}** بقوله: **{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}** وهو مبني على أن الجزاء على حسب ما يحمله القلب من الحسنة والسيئة كما يشير إليه قوله: **{وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ}**: البقرة: ٢٨٤ و جواب عن هذا الإشكال لو وجه إلى ما تحمله القلوب على كثرتهم فيجاب عنه أن الله عليم بذات الصدور ولو وجه إلى نفس الأعمال الخارجية من الأقوال والأفعال فالجواب عنه بما في هذه الآية التي نحن فيها: **{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}**، فالإشكال والجواب بوجه نظير ما وقع في قوله تعالى: **{قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}**: طه: ٥٢، فافهم.

وقد أجابوا عن الاعتراض بأجوبة أخرى غير تامة من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى}** إلخ، استشهاد لما تقدم في الآية السابقة من علمه بالأعمال بأن التدبير الجاري في نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقص ذلك وبالعكس بحسب الفصول المختلفة وبقاع الأرض المتفرقة في نظم ثابت جار على اختلافه، وكذا التدبير الجاري في الشمس والقمر على اختلاف طلوعهما وغروبهما و اختلاف جريانهما ومسيرهما بحسب الحس وكل منهما يجري لأجل مسمى ولا اختلاف ولا تشوش في النظام الدقيق الذي لهما فهذا كله مما يمتنع من غير علم وخبرة من مدبرها.

فالمراد بإيلاج الليل في النهار أخذ الليل في الطول وإشغاله بعض ساعات النهار من قبل وإيلاج النهار في الليل عكس ذلك، والمراد بجريان الشمس والقمر المسخرين إلى أجل مسمى انتهاء كل وضع من أوضاعهما إلى وقت محدود مقدر ثم عودهما إلى بدء فن شاهد هذا النظام الدقيق الجاري وأمعن فيه لم يشك في أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جهل وليس ذلك عن صدفة و اتفاق.

وقوله: **{وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** عطف على موضع **{أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ}** و التقدير أ لم تر أن الله بما تعملون خبير و ذلك لأن من شاهد نظام الليل و النهار و الشمس و القمر لم يكذب يغفل عن كون صانعه عليما بجلائل أعماله و دقائقها، كذا قيل.

و فيه أن استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجاري في الليل و النهار و الشمس و القمر وإن صح في نفسه فهو علم حدسي لا مصحح لتسميتها رؤية و هو ظاهر.

و لعل المراد من مشاهدة خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن في النظام الجاري في أعمال نفسه بما أنها صادرة عن العالم الإنساني موزعة من جهة إلى الأعمال الصادرة عن القوى الظاهرة من سمع و بصر و شم و ذوق و لمس و الصادرة عن القوى الباطنة المدركة أو الفعالة أو من جهة إلى بعض القوى و الأدوات أو كلها و من جهة إلى جاذبة و دافعة و من جهة إلى سني العمر من طفولية و رهاق و شباب و شيب إلى غير ذلك.

ثم في ارتباط بعضها ببعض و استخدام بعضها لبعض و اهتداء النفس إلى وضع كل في موضعه الذي يليق به و حركته بهذه القافلة من القوى و الأعمال نحو غايتها من الكمال و سعادتها في المال و تورطها في ورطات عالم المادة و موطن الزينة و الفتنة فن ناج أو هالك.

فإذا أمعن في هذا النظام المحير للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدره ربه و نظام نظمته صانعه العليم القدير و مشاهدة هذا النظام العلي العجيب مشاهدة أنه بما يعملون خبير، و الله العالم.

قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** لما ذكر سبحانه أن منه بدء كل شيء فيستند إليه في وجوده و تدبير أمره و أن إليه عود كل شيء من غير فرق بين الواحد و الكثير و أنه ليس إلى من يدعون من دونه خلق و لا أمر جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيراً إلى ما تقدم: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ}** إلخ.

توضيحه أن الحق هو الثابت من جهة ثبوته و الباطل يقابل الحق فهو اللاتابت من جهة عدم ثبوته، و

قوله: **{بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}** بما فيه من ضمير الفصل و تعريف

الخبر باللام يفيد القصر أعني حصر المبتدأ في الخبر.

فقوله: **{بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}** قصر له تعالى في الثبوت، أي هو ثابت لا يشوب ثبوته بطلان وعبارة أخرى هو ثابت من جميع الجهات وعبارة ثالثة هو موجود على كل تقدير فوجوده مطلق غير مقيد بقيد ولا مشروط بشرط فوجوده ضروري و عدمه ممتنع وغيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير و هو تقدير وجود سببه و هو الوجود المقيد الذي يوجد بغيره من غير ضرورة في ذاته.

وإذا كان حقية الشيء هو ثبوته فهو تعالى حق بذاته و غيره إنما يحق و يتحقق به.

وإذا تأملت هذا المعنى حق تأمله وجدت أولاً: أن الأشياء بأجمعها تستند في وجودها إليه تعالى و أيضاً تستند في النظام الجاري فيها عامة و في النظمات الجزئية الجارية في كل نوع من أنواعها و كل فرد من أفرادها إليه تعالى.

وثانياً: أن الكمالات الوجودية التي هي صفات الوجود كالعلم و القدرة و الحياة و السمع و البصر و الوحدة و الخلق و الملك و الغنى و الحمد و الخبرة مما عد في الآيات السابقة أو لم يعد صفات قائمة به تعالى على حسب ما يليق بساحة كبريائه و عز قدسه لأنها صفات وجودية و الوجود قائم به تعالى فهي إما عين ذاته كالعلم و القدرة و إما صفات خارجة عن ذاته منتزعة عن فعله كالخلق و الرزق و الرحمة.

وثالثاً: أن قبول الشريك في ذاته أو في تدبيره و كل ما يحمل معنى الفقد و النقص مسلوب عنه تعالى و هذه هي الصفات السلبية كنفى الشريك و نفى التعدد و نفى الجسم و المكان و الزمان و الجهل و العجز و البطلان و الزوال إلى غيرها.

فإن إطلاق وجوده و عدم تقيده بقيد ينفي عنه كل معنى عدمي أي إثبات الوجود مطلقاً فإن مرجع نفي النفي إلى الإثبات.

ولعل قوله: **{وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتها بناء على أن اسم **{الْعَلِيُّ}** يفيد معنى تنزهه عن ما لا يليق بساحته فهو مجمع الصفات السلبية و الكبير يفيد سعته لكل كمال وجودي فهو مجمع الصفات الثبوتية.

وأن صدر الآية برهان على ذيلها و ذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتية و السلبية جميعاً على ما تقدم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال

فهو الله عز اسمه.

وقوله: **{وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ}** يجري فيه ما جرى في قوله: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}** فالذي يدعونه من الآلهة ليس لهم من الحقيقة شيء ولا إليهم من الخلق والتدبير شيء لأن الشريك في الألوهية و الربوبية باطلا لا حق فيه وإذ كان باطلا على كل تقدير فلا يستند إليه خلق ولا تدبير مطلقا.

والحق والعلي والكبير ثلاثة من الأسماء الحسنى وقد تحقق مما تقدم أن الحق في معنى الواجب الوجود وأن العلي من الصفات السلبية والكبير من الصفات الثبوتية قريب المعنى من قولنا: المستجمع لصفات الكمال.

قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ}** إنح، الباء في **{بِنِعْمَتِ اللَّهِ}** للسببية وذكر النعمة كالتوطئة لآخر الآية وفيه تلويح إلى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب. والمعنى: ألم تر أن الفلك تجري في البحر بسبب نعمة الله وهي أسباب جريانها من الريح و رطوبة الماء وغير ذلك.

واحتمل بعضهم أن الباء للتعدية أو المعية والمراد بالنعمة ما تحمله السفن من الطعام و سائر أمتعة الحياة.

وقد تمم الآية بقوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}** و الصبار الشكور أي كثير الصبر عند الضراء و كثير الشكر عند النعماء كناية عن المؤمن على ما قيل.

قوله تعالى: **{وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}** إنح، قال الراغب: الظلة سحابة تظل و أكثر ما يقال فيما يستوخم ويكره، قال: **{كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ}** {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} انتهى.

و المعنى: وإذا غشيهم وأحاط بهم في البحر موج كقطع السحاب انقطعوا إلى الله و دعوه للنجاة حال كونهم مخلصين له الدين أي وفي ذلك دليل على أن فطرتهم على التوحيد.

وقوله: **{فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ}** المقتصد سألك القصد أي الطريق المستقيم والمراد به التوحيد الذي دلته عليه فطرتهم إذ ذلك، وفي التعبير بمن التبعية

استقلال عدتهم أي فلما نجا الله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص إلى البر فقليل منهم المقتصدون.
وقوله: **{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}** اختار مبالغة من اختر وهو شدة الغدر وفي السياق دليل على الاستكثار والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ}** لما ساق الحجج والمواظب الشافية الوافية جمعهم في خاتمتها في خطاب عام يدعوهم إلى التقوى وينذرهم بيوم القيامة الذي لا يغني فيه مغن إلا الإيمان والتقوى.
قال الراغب: الجزاء الغنى والكفاية، وقال: يقال: غررت فلانا أصبت غرته ونلت منه ما أريد والغرة غفلة في اليقظة والغرار غفلة مع غفوة، إلى أن قال: فالغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين وبالذنيا لما قيل: الدنيا تغر وتضر وتمر انتهى.

فمعنى الآية: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ}** وهو الله سبحانه **{وَإِحْشَاؤًا يَوْمًا}** وهو يوم القيامة **{لَا يَجْزِي}** لا يغني **{وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ}** مغن كاف **{عَنْ وَالِدِهِ}** «شَيْئاً» **{إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ}** بالبعث **{حَقٌّ}** ثابت لا يخلف **{فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}** بزینتها الغارة **{وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ}** أي جنس ما يغر الإنسان من شئون الحياة الدنيا أو خصوص الشيطان.

قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** الغيث المطر ومعنى جمل الآية ظاهر.
وقد عد سبحانه أمورا ثلاثة مما تعلق به علمه وهي العلم بالساعة وهو مما استأثر الله علمه لنفسه لا يعلمه إلا هو ويدل على القصر قوله: **{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}** وتنزيل الغيث وعلم ما في الأرحام ويختصان به تعالى إلا أن يعلمه غيره.

وعد أمرين آخرين يجهل بهما الإنسان وبذلك يجهل كل ما سيجري عليه من الحوادث وهو قوله: **{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا}** وقوله: **{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}**.

و كان المراد تذكرة أن الله يعلم كل ما دق و جل حتى مثل الساعة التي لا يتيسر علمها للخلق و أنتم تجهلون أهم ما يهتمكم من العلم فالله يعلم و أنتم لا تعلمون فإياكم أن تشركوا به و تتردوا عن أمره و تعرضوا عن دعوته فتهلكوا بجهلكم.

(بحث روائي)

في كمال الدين بإسناده إلى حماد بن أبي زياد قال: سألت سيدي موسى بن جعفر (عليه السلام) عن قول الله عز و جل: **{وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}** فقال: **النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، و الباطنة الإمام الغائب.**

أقول: هو من الجري و الآية أعم مدلولاً.

و في تفسير القمي بإسناده عن جابر قال: قال رجل عند أبي جعفر (عليه السلام): **{وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً}** قال: **أما النعمة الظاهرة فالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و ما جاء به من معرفة الله عز و جل و توحيده و أما النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت و عقد مودتنا. الحديث.**

أقول: هو كسابقه.

و في الجمع في قوله تعالى: **{وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ}** (الآية): و في رواية الضحاك عن ابن عباس قال: سألت النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) عنه فقال: **يا ابن عباس أما ما ظهر فالإسلام و ما سوى الله من خلقك و ما أفاض عليك من الرزق و أما ما بطن فستر مساوي عملك و لم يفضحك به، يا ابن عباس إن الله تعالى يقول: ثلاثة جعلتهن للمؤمن و لم يكن له: صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله، و جعلت له ثلث ماله أكفر به عنه خطاياهم، و الثالث سترت مساوي عمله و لم أفضحه بشيء منه و لو أبديتها عليه لنبذه أهله فن سواهم.**

أقول: روى ما يقرب منه في الدر المنثور، بطرق عن ابن عباس، و الحديث كسابقه من الجري.

و في التوحيد بإسناده عن عمر بن أذينة عن أبي جعفر (عليه السلام): في حديث: و قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله خالقه فذلك قوله عز و جل: {وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}.**

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ}** قال: السفن تجري في البحر بقدره الله.

و فيه في قوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}** قال: الذي يصبر على الفقر و الفاقة و يشكر الله عز و جل على جميع أحواله.

و في الجمع في الآية و في الحديث: الإيمان نصفان: نصف صبر و نصف شكر.
أقول: و هو مأخوذ من الآية فقد مر أنه كناية عن المؤمن.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}** قال: الختار الخداع و في قوله: **{إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}** قال: ذلك القيامة.

و في إرشاد المفيد: من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) لرجل سمعه يذم الدنيا من غير معرفة بما يجب أن يقول في معناها: الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار عافية لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزود منها، مسجد أنبياء الله و مهبط وحيه، و مصلى ملائكته و متجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، و ربجوا فيها الجنة فن ذا يذمها؟ و قد آذنت بينها، و نادت بفراقها، و نعت نفسها، فشوقت بسرورها إلى السرور، و حذرت ببلائها البلاء تخويفا و تحذيرا و ترغيبا و ترهيبا.

فيا أيها الذايم للدنيا و المغتر بتغيرها متى غرتك؟ أم بمصارع آبائك في البلى أم بمصارع أمهاتك تحت الثرى؟ كم عللت بكفئك و مرضت بيدك بتبغني لهم الشفاء و استوصفت لهم الأطباء، و تلتمس لهم الدواء، لم تنفعهم بطلبك و لم تشفعهم بشفاعتك مثلت بهم الدنيا مصرعك و مضجعك حيث لا ينفك بكأوك و لا تغني عنك أحبائك.

و في الخصال عن أبي أسامة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال: **أ لا أخبركم بخمسة لم يطلع الله عليها أحدا من خلقه؟ قال: قلت: بلى قال: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}**.

أقول: هناك روايات كثيرة جدا عن النبي و الأئمة (عليه السلام) تخبر عن مستقبل حالهم و عن زمان موتهم و مكانه و هي تقييد هذه الرواية و ما في معناها من الروايات بالتعليم الإلهي لكن بعض الروايات يأبى التقييد و لا يعبأ بأمرها.

و في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة: أن رجلا يقال له الوراث - من بني مازن بن حفصة بن قيس غيلان جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا محمد، متى تقوم الساعة؟ و قد أجدبت بلادنا فمتى تخلصب؟ و قد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد؟ و قد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا؟ و قد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت هذه الآية.

أقول: الحديث لا يخلو من شيء لعدم انطباق الآية على فقرات السؤال.

و فيه أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: **لم يعم على نبيكم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا الخمس من سرائر الغيب** - هذه الآية في آخر لقمان إلى آخر السورة.

(٣٢) (سورة السجدة مكية، وهي ثلاثون آية) (٣٠)

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١ الى ١٤]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ

الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَ
لَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا
بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

(بيان)

غرض السورة تقرير المبدأ و المعاد و إقامة الحجّة عليهما و دفع ما يختلج القلوب في ذلك مع إشارة إلى النبوة و الكتاب ثم بيان ما يميز به الفريقان المؤمنون بآيات الله حقاً و الفاسقون الخارجون عن زي العبودية و وعد أولئك بما هو فوق تصور المتصورين من الثواب و وعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب الخلد و أنهم سيدوقون عذاباً أدنى دون العذاب الأكبر، و تختتم السورة بتأكيد الوعيد و أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالانتظار كما هم منتظرون.

و هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت كما قيل بالمدينة و هي قوله تعالى: **{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا}** إلى تمام ثلاث آيات.

و الذي أوردناه من آياتها يتضمن الفصل الأول من فصلي غرض السورة الذي أشرنا إليه.

قوله تعالى: **{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأَرْبَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**، أي هذا تنزيل الكتاب، و التنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول و إضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف، و المعنى: هذا هو الكتاب المنزل لا ريب فيه.

و قوله: **{مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** فيه براعة استهلال لما في غرض السورة أن يتعاطى بيانه من الوجدانية و المعاد الذين ينكرهما الوثنية لما مر مرارا أنهم لا يقولون برب

العالمين بل يثبتون لكل عالم إلهها و لمجموع الآلهة إلهها هو الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

قوله تعالى: **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}** إنح، أم منقطعة، و المعنى: بل يقولون افترى القرآن على الله و ليس من عنده فرده بقوله: **{بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ}** إنح.

و قوله: **{لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}** قيل: يعني قريشا فإنهم لم يأتهم نبي قبله (صلى الله عليه وآله و سلم) بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبياء نكحالد بن سنان العبسي و حنظلة على ما في الروايات.

و قيل: المراد به أهل الفترة بين عيسى و محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) فكانوا كأنهم في غفلة عما لزمهم من حق نعم الله و ما خلقهم له من العبادة و فيه أن معنى الفترة هو عدم انبعث نبي له شريعة و كتاب و أما الفترة عن مطلق النبوة فلا نسلم تحققها و خلو جميع الزمان و هو قريب من ستة قرون من النبي مطلقا.

و قوله: **{لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}** غاية رجائية لإرسال الرسول و الترجي قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتكلم كما تقدم في نظائره.

قوله تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}** إلى قوله **{أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}** تقدم الكلام في تفسير قوله: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}** في نظائره من الآيات و تقدم أيضا أن الاستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات بنظام عام إجمالي يحكم على الجميع و لذا اتبع العرش في أغلب ما وقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ}**: الأعراف: ٥٤ و قوله: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}**: يونس: ٣ و قوله: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ}**: الحديد: ٤ و قوله: **{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}**: البروج: ١٦.

و الوجه في ذكر الاستواء على العرش، بعد ذكر خلق السماوات و الأرض أن الكلام في اختصاص الربوبية و الألوهية بالله وحده و مجرد استناد الخلقة إليه تعالى لا ينفع في إبطال ما يقول به الوثنية شيئا فإنهم لا ينكرون استناد الخلقة إليه وحده و إنما يقولون باستناد التدبير و هو الربوبية للعالم إلى آلهتهم ثم اختصاص الألوهية و هي المعبودية بآلهتهم و لله تعالى من الشأن أنه رب الأرباب و إله الآلهة.

فكان من الواجب عند إقامة الحجّة لإبطال قولهم إن يذكر أمر الخلق ثم يتعقب بأمر التدبير لمكان تلازمهما و عدم انفكاك أحدهما من الآخر حتى يكون موجد الأشياء و خالقها هو الذي يربها و يدبر أمرها فيكون ربا وحده و إلها وحده كما أنه موجد خالق وحده.

و لذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلق في الآية التي نحن فيها إذ قيل: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ}** فالولاية و الشفاعة كالاستواء على العرش من شئون التدبير.

و قوله: **{مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ}** الولي هو الذي يملك تدبير أمر الشيء و من المعلوم أن أمورنا و الشئون التي تقوم به حياتنا قائمة بالوجود محكومة مدبرة للنظام العام الحاكم في الأشياء عامة و ما يخص بنا من نظام خاص، و النظام أيا ما كان من لوازم خصوصيات خلق الأشياء و الخلقة كيفما كانت مستندة إليه تعالى فهو تعالى و لينا القائم بأمرنا المدبر لشئوننا و أمورنا، كما هو ولي كل شيء كذلك وحده لا شريك له.

و الشفيع على ما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب هو الذي ينضم إلى سبب ناقص فيتم سببته و تأثيره، و الشفاعة تتم السبب الناقص في تأثيره و إذا طبقناها على الأسباب و المسببات الخارجية كانت أجزاء الأسباب المركبة و شرائطها بعضها شفيعا لبعض لتتم حصة من الأثر منسوبة إليه كما أن كلا من السحاب و المطر و الشمس و الظل و غيرها شفيع للنبات.

و إذ كان موجد الأسباب و أجزاءها و الرابط بينها و بين المسببات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقة الذي يتم نقصها و يقيم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لا شفيع غيره.

و ببيان آخر أدق قد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن أسماءه تعالى الحسنى و سائط بينه و بين خلقه في إيصال الفيض إليهم فهو تعالى يرزقهم مثلا بما أنه رازق جواد غني رحيم و يشفي المريض بما أنه شاف معاف رءوف رحيم و يهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز و هكذا.

فما من شيء من المخلوقات المركبة الوجود إلا ويتوسط لوجوده عدة من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض وبعضها في عرض بعض وكل ما هو أخص منها يتوسط بين الشيء وبين الأعم منها كما أن الشافي يتوسط بين المريض وبين الرؤوف الرحيم والرحيم يتوسط بينه وبين القدير وهكذا.

والتوسط المذكور في الحقيقة تتم لتأثير السبب فيه وإن شئت فقل هو تقريب للشيء من السبب لفعلية تأثيره وينتج منه أنه تعالى شفيح ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيح ليس من دونه شفيح في الحقيقة فافهم.

وقد تبين بما مر أن لا إشكال في إطلاق الشفيح عليه تعالى بمعنى كونه شفيحا بنفسه عند نفسه وحقيقته توسط صفة من صفاته الكريمة بين الشيء و صفة من صفاته كما يستعاذ من سخطه إلى رحمته و من عدله إلى فضله، وأما كونه تعالى شفيحا بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو مما لا يجوز البتة.

و القوم لتقريبهم إشكال إطلاق الشفيح عليه تعالى على المعنى الثاني أي بمعنى كونه شفيحا عند غيره اختلفوا في تفسير الآية على أقوال:

فقال بعضهم: إن دون في قوله: **{مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ}** بمعنى عند و **{مِنْ دُونِهِ}** حال من ضمير **{لَكُمْ}** والمعنى: ما لكم حال كونكم مجاوزين دونه و من عند ولي ولا شفيح أي لا ولي لكم ولا شفيح فقيه نفي الولي والشفيح لهم عند الله.

و فيه أن دون وإن صح كونه بمعنى عند لكن وجود **{مِنْ}** قرينة على أنه بمعنى غير، ولا معنى لأخذ المجاوزة و رجوع **{مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ}** إلى معنى «ما لكم عنده».

وقال بعضهم: إن الشفيح في الآية بمعنى الناصر مجازا و دون بمعنى غير و **{مِنْ دُونِهِ}** حال من **{وَلِيٍّ}** والمعنى: ما لكم ولي ولا ناصر غيره، وفيه أنه تجوز من غير موجب.

وقال بعضهم إن إطلاق الشفيح هنا من قبيل المشاكلة التقديرية لما أن المشركين المنذرين كثيرا ما كانوا يقولون في آلهتهم: هؤلاء شفعاؤنا ويزعمون أن كل واحد منهم شفيح لهم والمعنى: على هذا لو فرض و قدر أن الإله ولي شفيح ما لكم ولي ولا شفيح غير الله سبحانه.

و قال بعضهم: إن دون بمعنى عند و الضمير في **{مِنْ دُونِهِ}** للعذاب، و المعنى: ليس لكم من دون عذابه ولي، أي قريب ينفعكم و يرد عذابه عنكم و لا شفيع يشفع لكم.

و فيه أن إرجاع الضمير إلى العذاب تحكم من غير دليل، و يرد على جميع هذه الوجوه أنها تكلفات ناشئة من أخذ الشفيع غير المشفوع عنده و قد عرفت أن المعنى تحليلي و الشفيع و المشفوع عنده واحد.

و قوله: **{أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}** استفهام توبيخي يوبخهم على استمرارهم على الإعراض عن أدلة العقول حتى يتذكروا أن الملك و التدبير لله سبحانه و هو المعبود بالحق ليس لهم دونه ولي و لا شفيع كما يزعمون ذلك لأهلهم.

قوله تعالى: **{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}** تميم لبيان أن تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه و هذا هو القرينة على أن المراد بالأمر في الآية الشأن دون الأمر المقابل للنهي.

و التدبير وضع الشيء في دابر الشيء و الإتيان بالأمر بعد الأمر فيرجع إلى إظهار وجود الحوادث واحدا بعد واحد كالسلسلة المتصلة بين السماء و الأرض و قد قال تعالى: **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}**: الحجر: ٢١ و قال: **{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}**: القمر: ٤٩.

و قوله: **{ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}** بعد قوله: **{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ}** لا يخلو من إشعار بأن **{يُدَبِّرُ}** مضمن معنى التنزيل و المعنى: يدبر الأمر منزلا أو ينزله مدبرا من السماء إلى الأرض و لعله الأمر الذي يشير إليه قوله: **{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}**: حم السجدة: ١٢.

و في قوله: **{يَعْرُجُ إِلَيْهِ}** إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذي تنتهي إليه أزمة الأمور دون السماء بمعنى جهة العلو أو ناحية من نواحي العالم الجسماني فإن الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنه صعود من الطريق التي نزل منها، و لم يذكر هناك إلا علو هو السماء، و سفلى هو الأرض و نزول و عروج فالنزول من السماء و العروج إلى الله يشعر بأن السماء هو مقام الحضور الذي يصدر منه تدبير

الأمر أو أن موطن تدبير الأمر الأرضي هو السماء والله المحيط بكل شيء ينزل التدبير الأرضي من هذا الموطن، ولعل هذا هو الأقرب إلى الفهم بالنظر إلى قوله: **{وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}**.

وقوله: **{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}** معناه على أي حال أنه في ظرف لو طبق على ما في الأرض من زمان الحوادث و مقدار حركتها انطبق على ألف سنة مما نعهده فإن من المسلم أن الزمان الذي يقدره ما نعهده من الليل والنهار والشهور والسنين لا يتجاوز العالم الأرضي.

وإذ كان المراد بالسماء هو عالم القرب والحضور وهو مما لا سبيل للزمان إليه كان المراد أنه وعاء لو طبق على مقدار حركة الحوادث في الأرض كان مقداره ألف سنة مما تعدون.

وأما أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول واللبث والعروج أو مقدار مجموع النزول والعروج دون اللبث أو مقدار كل واحد من النزول والعروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أن **{فِي يَوْمٍ}** قيد لقوله: **{يَعْرُجُ إِلَيْهِ}** فقط كما وقع في قوله: **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}**: المعارج: ٤.

ثم على تقدير كون الظرف قيما للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث إلى الله أو العروج يوم القيامة وهو مقدار يوم القيامة، وأما كونه خمسين ألف سنة فهو بالنسبة إلى الكافر من حيث الشقة أو أن الألف سنة مقدار مشاهد من مشاهد يوم القيامة وهو خمسون موقفا كل موقف مقداره ألف سنة.

ثم المراد بقوله: **{مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ}** هل هو التحديد حقيقة أو المراد مجرد التكثير كما في قوله: **{يَوْمٌ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ}**: البقرة: ٩٦ أي يعمر عمرا طويلا جدا وإن كان هذا الاحتمال بعيدا من السياق.

والآية كما ترى تحتل الاحتمالات جميعا ولكل منها وجه والأقرب من بينها إلى الذهن كون **{فِي يَوْمٍ}** قيما لقوله: **{ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}** وكون المراد بيوم عروج الأمر مشهدا من خمسين مشهدا من مشاهد يوم القيامة، والله أعلم.

قوله تعالى: **{ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}** تقدم تفسير مفردات الآية، و مناسبة الأسماء الثلاثة الكريمة للمقام ظاهرة.

قوله تعالى: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** قال الراغب: الحسن عبارة عن كل مبهج بصيغة الفاعل مرغوب فيه و ذلك ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل و مستحسن من جهة الهوى و مستحسن من جهة الحس. انتهى. و هذا تعريف له من جهة خاصته و انقسامه بانقسام الإدراكات الإنسانية.

و حقيقته ملاءمة أجزاء الشيء بعضها لبعض و المجموع للغرض و الغاية الخارجة منه فحسن الوجه تلاؤم أجزائه من العين و الحاجب و الأنف و الفم و غيرها، و حسن العدل ملاءمته للغرض من الاجتماع المدني و هو نيل كل ذي حق حقه، و هكذا.

و التدبر في خلقه الأشياء و كل منها في نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض و المجموع من وجوده مجهز بما يلائم كماله و سعادته تجهيزاً لا أتم و لا أكمل منه يعطي أن كلا منها حسن في نفسه حسناً لا أتم و أكمل منه بالنظر إلى نفسه.

و أما ما نرى من المساءة و القبح في الأشياء فلاحد أمرين: إما لكون الشيء السيئ ذا عنوان عدمي يعود إليه المساءة لا لوجوده في نفسه كالظلم و الزنا فإن الظلم ليس بسيئ قبيح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت و الزنا ليس بسيئ قبيح من جهة نفس العمل الخارجي الذي هو مشترك بينه و بين النكاح بل بما أن فيه مخالفة للنهي الشرعي أو للمصلحة الاجتماعية.

أو بقياسه إلى شيء آخر فيعرضه المساءة و القبح من طريق المقايسة كقياس الحنظل إلى البطيخ و قياس الشوك إلى الورد و قياس العقرب إلى الإنسان فإن المساءة إنما تطراً هذه الأشياء من طريق القياس إلى مقابلاتها ثم قياسها إلى طبعنا، و يرجع هذا الوجه من المساءة إلى الوجه الأول بالحقيقة.

و كيف كان فالشيء بما أنه موجود مخلوق لا يتصف بالمساءة و يدل عليه الآية **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** إذا انضم إلى قوله: **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}**: الزمر: ٦٢ فينتجان أولاً: أن الخلقه تلازم الحسن فكل مخلوق حسن من حيث هو مخلوق.

و ثانياً: أن كل سيئ و قبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيئ قبيح كالمعاصي و السيئات من حيث هي معاص و سيئات و الأشياء السيئة من جهة القياس.

قوله تعالى: **{وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}** المراد بالإنسان النوع فالمبدؤ خلقه

من طين هو النوع الذي ينتهي أفراده إلى من خلق من طين من غير تناسل من أب وأم كآدم و زوجه (عليه السلام)، والدليل على ذلك قوله بعده: **{ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}** فالنسل الولادة بانفصال المولود عن الوالدين والمقابلة بين بدء الخلق وبين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين، ولو كان المراد ذلك لكان حق الكلام أن يقال: ثم جعله سلالة من ماء مهين فافهمه.

وقوله: **{ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}** السلالة كما في الجمع، الصفوة التي تنسل أي تنزع من غيرها ويسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه، والمهين من الهون وهو الضعف والحقارة و ثم للتراخي الزماني.

والمعنى: ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوة من ماء ضعيف أو حقير.

قوله تعالى: **{ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ}** التسوية التصوير و تميم العمل، وفي قوله: **{نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ}** استعارة بالكناية بتشبيه الروح بالنفس الذي يتنفس به ثم نفخة في قلب من سواه، وإضافة الروح إليه تعالى إضافة تشريفية، والمعنى: ثم صور الإنسان المبدو خلقه من الطين والمجعول نسله من سلالة من ماء مهين و نفخ فيه من روح شريف منسوب إليه تعالى.

قوله تعالى: **{وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}** امتنان بنعمة الإدراك الحسي والفكري فالسمع والبصر للمحسوسات والقلوب للفكرات أعم من الإدراكات الجزئية الخيالية والكلية العقلية.

وقوله: **{قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}** أي تشكرون شكرا قليلا، والجملة اعتراضية في محل التوبيخ وقيل: الجملة حالية، والمعنى: جعل لكم الأبصار والأفئدة والحال أنكم تشكرون قليلا، والجملة على أي حال مسوقة للتوبيخ والشكوى والتوبيخ.

و الالتفات في قوله: **{وَجَعَلَ لَكُمْ}** إلخ، من الغيبة إلى خطاب الجمع لتسجيل أن الإنعام الإلهي الشامل للجميع يربو على شكرهم فهم قاصرون أو أكثرهم مقصرون.

قوله تعالى: **{وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}** حجة من منكري البعث مبنية على الاستبعاد. والضلال في الأرض قيل: هو الضيعة كما يقال: ضلت النعمة أي ضاعت، و قيل: هو بمعنى الغيبة، وكيف

كان فمرادهم به أينا إذا متنا وانتشرت أجزاء أبداننا في الأرض وصرنا بحيث لا تميز لأجزاءنا من سائر أجزاء الأرض ولا خبر عنا تقع في خلق جديد ونخلق ثانيا خلقنا الأول؟
والاستفهام للإنكار، والخلق الجديد هو البعث.

وقوله: **{بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}** إضراب عن فحوى قولهم: **{أِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ}** كأنه قيل: إنهم لا يحددون الخلق الجديد لمجدهم قدرتنا على ذلك أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع إلينا ولقائنا ولذا جيء في الجواب عن قولهم بما يدل على الرجوع.

قوله تعالى: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}** توفي الشيء أخذه تاما كاملا كتوفي الحق وتوفي الدين من المديون.

وقوله: **{مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}** قيل: أي وكل بإماتكم وقبض أرواحكم والآية مطلقة ظاهرة في أعم من ذلك.

وقد نسب التوفي في الآية إلى ملك الموت، وفي قوله: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}**: الزمر: ٤٢ إليه تعالى، وفي قوله: **{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}**: الأنعام: ٦١ وقوله: **{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ}**: النحل: ٢٨ إلى الرسل والملائكة نظرا إلى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب الملائكة الرسل أعوان ملك الموت وفوقهم ملك الموت الأمر بذلك المجرى لأمر الله والله من ورائهم محيط وهو السبب الأعلى ومسبب الأسباب فذلك بوجه كمثل كتابة الإنسان بالقلم فالقلم كاتب واليد كاتبة والإنسان كاتب.

وقوله: **{ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}** هو الرجوع الذي عبر عنه في الآية السابقة باللقاء وموطنه البعث المترتب على التوفي والمتراخي عنه، كما يدل عليه العطف بـثم الدالة على التراخي.

والآية - على أي تقدير جواب عن الاحتجاج بضلال الموتى في الأرض على نفي البعث ومن المعلوم أن إماتة ملك الموت لهم ليس يحسم مادة الإشكال فيبقى قوله: **{ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}** دعوى خالية عن الدليل في مقابل دعواهم المدللة والكلام

الإلهي أنزه ساحة أن يتعاطى هذا النوع من المحاجة.

لكنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجتهم المبنية على الاستبعاد بأن حقيقة الموت ليس بطلانا لكم و ضللا منكم في الأرض بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان و أرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أي ما يعني بلفظة «كم» محفوظون لا يضل منكم شيء في الأرض و إنما يضل الأبدان و تتغير من حال إلى حال و قد كانت في معرض التغير من أول كينونتها. ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا إلى ربكم بالبعث و رجوع الأرواح إلى أجسادها.

و بهذا يندفع حجتهم على نفي المعاد بضلالهم سواء قررت على نحو الاستبعاد أو قررت على أن تلاشي البدن يبطل شخصية الإنسان فينعدم و لا معنى لإعادة المعدوم فإن حقيقة الإنسان هي نفسه التي يحكي عنها بقول «أنا» و هي غير البدن و البدن تابع لها في شخصيته و هي لا تلاشي بالموت و لا تنعدم بل محفوظة في قدرة الله حتى يؤذن في رجوعها إلى ربها للحساب و الجزاء فيبعث على الشريطة التي ذكر الله سبحانه.

و ظهر بما تقدم أولا وجه اتصال قوله: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم}** إنخ بقوله: **{أِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ}** إنخ و أنه جواب حاسم للإشكال قاطع للشبهة، و قد أشكل الأمر على بعض من فسر التوفي بمطلق الإماتة من غير التفات إلى نكتة التعبير بلفظ التوفي فتكلف في توجيه اتصال الآيتين بما لا يرضيه العقل السليم. و ثانيا: أن الآية من أوضح الآيات القرآنية الدالة على تجرد النفس بمعنى كونها غير البدن أو شيء من حالات البدن.

قوله تعالى: **{وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}** نكس الرأس إطراقه و طأطأته، و المراد بالمجرمين بقريظة ذيل الآية خصوص المنكرين للمعاد فاللام فيه لا تخلو من معنى العهد أي هؤلاء الذين يجحدون المعاد ويقولون: **{أِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ}** إنخ. و في التعبير عن البعث بقوله: **{عِنْدَ رَبِّهِمْ}** محاذاة لما تقدم من قوله: **{بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}** أي واقفون موقفا من اللقاء لا يسعهم إنكاره، و قولهم: **{أَبْصَرْنَا}**

وَسَمِعْنَا} و مسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ينجلي لهم أن النجاة في الإيمان و العمل الصالح و قد حصل لهم الإيمان اليقيني و بقي العمل الصالح و لذا يعترفون باليقين و يسألون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيتم لهم سببا للنجاة.

و المعنى: و لو ترى إذ هؤلاء الذين يجرمون بإنكار لقاء الله مطرقوا رءوسهم عند ربهم في موقف اللقاء من الخزي و الذل و الندم يقولون ربنا أبصرنا بالمشاهدة و سمعنا بالطاعة فارجعنا نعمل عملا صالحا إنا موقنون و المحصل أنك تراهم يجحدون اللقاء و لو تراهم إذ أحاط بهم الخزي و الذل فنكسوا رءوسهم و اعترفوا بما ينكرونه اليوم و سألوا العود إلى هاهنا و لن يعودوا.

قوله تعالى: **{وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا}** إلى آخر الآية أي لو شئنا أن نعطي كل نفس أعم من المؤمنة و الكافرة الهدى الذي يختص بها و يناسبها لأعطيناه لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافر و إرادته أن يتلبس بالهدى فيتلبس بها من طريق الاختيار و الإرادة كما شئنا في المؤمن كذلك فتلبس بالهدى باختيار منه و إرادة من دون أن ينجر إلى الإلجاء و الاضطرار فيبطل التكليف و يلغو الجزاء.

و قوله: **{وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}** أي و لكن هناك قضاء سابق مني محتوم و هو إملاء جهنم من الجنة و الناس أجمعين و هو قوله لإبليس لما امتنع من سجدة آدم و قال: **{فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}** ... **{فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}**: ص: ٨٥ ففضى أن يدخل متبعي إبليس العذاب المخلد.

و لازم ذلك أن لا يهديهم لظلمهم و فسقهم بالخروج عن زي العبودية كما قال: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** **{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ}**: التوبة: ٨٠ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: **{فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ}** إلى آخر الآية، تفریع علی قوله: **{وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي}** و النسيان ذهول صورة الشيء عن الذاكرة و يکنى به عن عدم الاعتناء بما يهم الشيء و هو المراد في الآية.

و المعنى: فإذا كان من القضاء إذاعة العذاب لمتبعي إبليس فذوقوا العذاب بسبب

عدم اعتنائكم بلقاء هذا اليوم حتى جحدتموه و لم تعملوا صالحا ثابون به فيه لأننا لم نعتن بما يهكم في هذا اليوم من السعادة و النجاة، و قوله: **{ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }** تأكيد و توضيح لسابقه أي إن الذوق الذي أمرنا به ذوق عذاب الخلد و نسيانهم لقاء يومهم هذا أعمالهم السيئة.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات **{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا}** إلى تمام الآيات الثلاث.

و فيه أخرج سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة عن علي قال: عزائم سجود القرآن الم تنزير السجدة، و حم تنزير السجدة، و النجم، و اقرأ باسم ربك الذي خلق.

و في الخصال عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إن العزائم أربع: اقرأ باسم ربك الذي خلق، و النجم، و تنزير السجدة، و حم السجدة.

و في الدر المنثور أخرج أحمد و الطبراني عن الشريد بن سويد قال: أبصر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) رجلا قد أسبل إزاره فقال له: ارفع إزارك، فقال: يا رسول الله إني أحنف تصطك ركبتي. قال: ارفع إزارك كل خلق الله حسن.

و في الفقيه: سئل الصادق (عليه السلام) عن قول الله عز و جل: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}** و عن قول الله عز و جل: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}** و عن قول الله عز و جل: **{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ}** و **{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}** و عن قول الله عز و جل: **{تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا}** و عن قوله عز و جل: **{وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ}** و قد يموت في الدنيا في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلا الله عز و جل، فكيف هذا؟

فقال: إن الله تبارك و تعالى جعل ملك الموت أعوانا من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجهم فيوتفاهم الملائكة و يتوفاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو، و يتوفاه الله تعالى من ملك الموت.

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي قال: دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على رجل من الأنصار يعودُه فإذا ملك الموت عند رأسه فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال: أبشريا محمد فإني بكل مؤمن رفيق.

واعلم يا محمد إني لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله فأقوم في جانب من الدار فأقول: والله ما لي من ذنب وإن لي لعودة و عودة الحذر الحذر و ما خلق الله من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم و ليلة خمس مرات - حتى إني لأعرف بصغيرهم و كبيرهم منهم بأنفسهم. والله يا محمد إني لا أقدر أن أقبض روح بعوضة حتى يكون الله تبارك و تعالى هو الذي يأمر بقبضه.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} قال: لو شئنا أن نجعلهم كلهم معصومين لقدرنا.

أقول: العصمة لا تنافي الاختيار فلا تنافي بين مضمون الرواية و ما قدمناه في تفسير الآية.

(كلام في كينونة الإنسان الأولي)

تقدم في تفسير أول سورة النساء كلام في هذا المعنى و كلامنا هذا كالتكلمة له.

قدمنا هناك أن الآيات القرآنية ظاهرة ظهورا قريبا من الصراحة في أن البشر الموجودين اليوم و نحن منهم ينتهون بالتناسل إلى زوج أي رجل و امرأة بعينهما و قد سمي الرجل في القرآن بآدم و هما غير متكونين من أب و أم بل مخلوقان من تراب أو طين أو صلصال أو الأرض على اختلاف تعبيرات القرآن.

فهذا هو الذي يفيد الآيات ظهورا معتدا به و إن لم تكن نصة صريحة لا تقبل التأويل ولا المسألة من ضروريات الدين نعم يمكن عد انتهاء النسل الحاضر إلى آدم ضروريا من القرآن و أما أن آدم هذا هل أريد به آدم النوعي أعني الطبيعة الإنسانية الفاشية في الأشخاص أو عدة معدودة من الأفراد هم أصول النسب و الآباء و الأمهات الأولية أو فرد إنساني واحد بالشخص؟

و على هذا التقدير هل هو فرد من نوع الإنسان تولد من نوع آخر كالقردة مثلا على طريق تطور الأنواع و ظهور الأكل من الكامل و الكامل من الناقص و هكذا أو هو فرد من الإنسان كامل بالكامل الفكري تولد من زوج من الإنسان غير المجهد بجهاز التعقل فكان مبدأ لظهور النوع الإنساني المجهد بالتعقل القابل للتكيف و انفصاله من النوع غير المجهد بذلك فالبشر الموجودون اليوم نوع كامل من الإنسان ينتهي أفرادهم إلى الإنسان الأول الكامل الذي يسمى بآدم، و ينشعب هذا النوع الكامل بالتولد تطورا من نوع آخر من الإنسان ناقص فاقد للتعقل و هو يسير القهقري في أنواع حيوانية مترتبة حتى ينتهي إلى أبسط الحيوان تجهيزا و أنقصها كمالا و إن أخذنا من هناك سائرين لم نزل نتقل من ناقص إلى كامل و من كامل إلى أكمل حتى ننتهي إلى الإنسان غير المجهد بالتعقل ثم إلى الإنسان الكامل كل ذلك في سلسلة نسبية متصلة مؤلفة من آباء و أعقاب.

أو أن سلسلة التوالد و التناسل تنقطع بالاتصال بآدم و وزوجه و هما متكونان من الأرض من غير تولد من أب و أم فليس شيء من هذه الصور ضروريا.

و كيف كان فظاهر الآيات القرآنية هو الصورة الأخيرة و هي انتهاء النسل الحاضر إلى آدم و وزوجه المتكونين من الأرض من غير أب و أم.

غير أن الآيات لم تبين كيفية خلق آدم من الأرض و أنه هل عملت في خلقه علل و عوامل خارقة للعادة؟ و هل تمت خلخته بتكوين إلهي آتي من غير مهل فتبدل الجسد المصنوع من طين بدنا عاديا ذا روح إنساني أو أنه عاد إنسانا تاما كاملا في أزمنة معتد بها يتبدل عليه فيها استعداد بعد استعداد و صورة و شكل بعد صورة و شكل حتى تم الاستعداد فنفض فيه الروح و بالجملة اجتمعت عليه من العلل و الشرائط نظير ما تجتمع على النطفة في الرحم.

و من أوضح الدليل عليه قوله تعالى: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**: آل عمران: ٥٩ فإن الآية نزلت جوابا عن احتجاج النصارى على بنوة عيسى بأنه ولد من غير أب بشري و لا ولد إلا بوالد فأبوه هو الله سبحانه، فرد في الآية بما محصله أن صفة كصفة آدم حيث خلقه الله من أديم

الأرض بغير والد يولده فلم لا يقولون بأن آدم ابن الله؟

ولو كان المراد بخلقه من تراب انتهاء خلخته كسائر المتكونين من النطف إلى الأرض كان المعنى: أن صفة عيسى ولا أب له كمثل آدم حيث تنتهي خلخته كسائر الناس إلى الأرض، ومن المعلوم أن لا خصوصية لآدم على هذا المعنى حتى يؤخذ ويقاس إليه عيسى فيفسد معنى الآية في نفسه و من حيث الاحتجاج به على التصارى.

و بهذا يظهر دلالة جميع الآيات الدالة على خلق آدم من تراب أو طين أو نحو ذلك، على المطلوب كقوله: **{إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ}**: ص: ٧١ وقوله: **{وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}**: الم السجدة: ٧.

و أما قول من قال: إن المراد بآدم هو آدم النوعي دون الشخصي بمعنى الطبيعة الإنسانية الخارجية الفاشية في الأفراد، و المراد بينوة الأفراد له تكثر الأشخاص منه بانضمام القيود إليه و قصة دخوله الجنة و إخراجها منها لمعصيته بإغواء من الشيطان تمثيل تخيلي لمكانته في نفسه و وقوفه موقف القرب ثم كونه في معرض الهبوط باتباع الهوى و طاعة إبليس.

ففيه أنه مدفوع بالآية السابقة و ظواهر كثير من الآيات كقوله: **{الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً}**: النساء: ١ فلو كان المراد بالنفس الواحدة آدم النوعي لم يبق لفرض الزوج لها محل و نظير الآية الآيات التي تفيد أن الله أدخله و زوجه الجنة و أنه و زوجه عصيا الله بالأكل من الشجرة.

على أن أصل القول بآدم النوعي مبني على قدم الأرض و الأنواع المتأصلة و منها الإنسان و أن أفرادها غير متناهية من الجانبين و الأصول العلمية تبطل ذلك بتاتا.

و أما القول بكون النسل منتها إلى أفراد معدودين كأربعة أزواج مختلفين ببياض اللون و سواده و حمرة و صفرة أو أزواج من الإنسان ناشئين بعضهم بالدنيا القديمة و بعضهم بالدنيا الحديثة و الأراضي المكشوفة أخيرا و فيها بشر قاطنون كأمريكا و أستراليا.

فمدفوع بجميع الآيات الدالة على انتهاء النسل الحاضر إلى آدم و زوجه فإن المراد بآدم فيها إما شخص واحد إنساني و إما الطبيعة الإنسانية الفاشية في الأفراد و هو آدم

النوعي و أما الأفراد المحدودون فلا يحتمل لفظ الآيات ذلك البتة.

على أنه مبني على تباين الأصناف الأربعة من الإنسان: البيض و السود و الحمر و الصفر و كون كل من هذه الأصناف نوعا برأسه ينتهي إلى زوج غير ما ينتهي إليه الآخر أو كون قارات الأرض منفصلا بعضها عن بعض انفصالا أبديا غير مسبوق بالعدم، و قد ظهر بطلان هذه الفرضيات اليوم بطلانا كاد يلحقها بالبديهيات.

و أما القول بانتهاء النسل إلى زوج من الإنسان أو أزيد انفصلا أو انفصلوا من نوع آخر هو أقرب الأنواع إليه كالقرود مثلا انفصال الأكل من الكامل تطورا.

ففيه أن الآيات السابقة الدالة على خلق الإنسان الأول من تراب من غير أب و أم تدفعه.

على أن ما أقيم عليه من الحججة العلمية قاصر عن إثباته كما سنشير إليه في الكلام على القول التالي.

و أما القول بانتهاء النسل إلى فردين من الإنسان الكامل بالكمال الفكري من طريق التولد ثم انشعابهما و انفصاليهما بالتطور من نوع آخر من الإنسان غير الكامل بالكمال الفكري ثم انقراض الأصل و بقاء الفرع المتولد منهما على قاعدة تنازع البقاء و انتخاب الأصلح.

فيدفعه قوله تعالى: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** على

التقريب المتقدم و ما في معناه من الآيات.

على أن الحججة التي أقيمت على هذا القول قاصرة عن إثباته فإنها شواهد مأخوذة من التشريح التطبيقي و أجنة الحيوان و الآثار الحفرية الدالة على التغير التدريجي في صفات الأنواع و أعضائها و ظهور الحيوان تدريجا آخذا من الناقص إلى الكامل و خلق ما هو أبسط من الحيوان قبل ما هو أشد تركيبا.

و فيه أن ظهور النوع الكامل من حيث التجهيزات الحيوية بعد الناقص زمانا لا يدل على أزيد من تدرج المادة في استكمالها لقبول الصور الحيوانية المختلفة فهي قد استعدت لظهور الحياة الكاملة فيها بعد الناقصة و الشريفة بعد الخسيسة و أما كون الكامل من الحيوان منشعبا من الناقص بالتولد و الاتصال النسبي فلا و لم يعثر هذا الفحص و البحث على غزارته و طول زمانه على فرد نوع كامل متولد من فرع نوع آخر على أن

يقف على نفس التولد دون الفرد و الفرد.

و ما وجد منها شاهدا على التغير التدريجي فإنما هو تغير في نوع واحد بالانتقال من صفة لها إلى صفة أخرى لا يخرج بذلك عن نوعيته و المدعى خلاف ذلك.

فالذي يتسلم أن نشأة الحياة ذات مراتب مختلفة بالكمال و النقص و الشرف و الخسة و أعلى مراتبها الحياة الإنسانية ثم ما يليها ثم الأمثل فالأمثل و أما أن ذلك من طريق تبدل كل نوع مما يجاوره من النوع الأكل، فلا يفيد هذا الدليل على سبيل الاستنتاج.

نعم يوجب حدسا ما غير يقيني بذلك فالقول بتبدل الأنواع بالتطور فرضية حدسية تبني عليها العلوم الطبيعية اليوم و من الممكن أن يتغير يوما إلى خلافتها بتقدم العلوم و توسع الأبحاث.

و ربما استدل على هذا القول بقوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}**: آل عمران: ٣٣ بتقريب أن الاصطفاء هو انتخاب صفوة الشيء و إنما يصدق الانتخاب فيما إذا كان هناك جماعة يختار المصطفى من بينهم و يؤثر عليهم كما اصطفى كل من نوح و آل إبراهيم و آل عمران من بين قومهم و لازم ذلك أن يكون مع آدم قوم غيره فيصطفى من بينهم عليهم، و ليس إلا البشر الأولي غير المجهز بجهاز التعقل فاصطفى آدم من بينهم فجهاز بالعقل فانتقل من مرتبة نوعيتهم إلى مرتبة الإنسان المجهز بالعقل الكامل بالنسبة إليهم ثم نسل و كثر نسله و انقرض الإنسان الأولي الناقص.

و فيه أن **{الْعَالَمِينَ}** في الآية جمع محلي باللام و هو يفيد العموم و يصدق على عامة البشر إلى يوم القيامة فهم مصطفون على جميع المعاصرين لهم و الجائين بعدهم كمثل قوله: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}** فما المانع من كون آدم مصطفى مختارا من بين أولاده ما خلا المذكورين منهم في الآية؟

و على تقدير اختصاص الاصطفاء بما بين المعاصرين و عليهم ما هو المانع من كونه مصطفى مختارا من بين أولاده المعاصرين له و لا دلالة في الآية على كون اصطفائه أول خلقته قبل ولادة أولاده.

على أن اصطفاء آدم لو كان على الإنسان الأولي كما يذكره المستدل كان ذلك بما أنه مجهز بالعقل و كان ذلك مشتركا بينه و بين بني آدم جميعا على الإنسان الأولي فكان تخصيص آدم في الآية بالذكر تخصيصا من غير مخصص.

و ربما استدل بقوله: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}** (الآية): الأعراف: ١١ بناء على أن «ثم» تدل على التراخي الزمني فقد كان للنوع الإنساني وجود قبل خلق آدم و أمر الملائكة بالسجدة له.

و فيه أن **{ثُمَّ}** في الآية للترتيب الكلامي و هو كثير الورد في كلامه تعالى على أن هناك معنى آخر أشرنا إليه في تفسير الآية في الجزء الثامن من الكتاب.

و ربما استدل بقوله: **{وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ}** الآيات و تقريبه أن الآية الأولى المتعرضة لأول خلق الإنسان تذكر خلقته الأولية من تراب التي يشترك فيها جميع الأفراد، و الآية الثالثة تذكر تسويته و نفخ الروح فيه و بالجملة كماله الإنساني و العطف بـ **{ثُمَّ}** تدل على توسط زمان معتد به بين أول خلقته من تراب و بين ظهوره بكامله.

و ليس هذا الزمان المتوسط إلا زمان توسط الأنواع الأخر التي تنتهي بتغيرها التدريجي إلى الإنسان الكامل و خاصة بالنظر إلى تنكر **{سُلَالَةٍ}** المفيد للعموم.

و فيه أن قوله: **{ثُمَّ سَوَّاهُ}** عطف على قوله **{بَدَأَ}** و الآيات في مقام بيان ظهور النوع الإنساني بالخلق و أن بدأ خلقه و هو خلقه و هو خلق آدم كان من طين ثم بدل سلالة من ماء في ظهور أولاده، ثم تمت الخلقه سواء كان فيه أو في أولاده بالتسوية و نفخ الروح.

و هذا معنى صحيح يقبل الانطباق على اللفظ و لا يلزم منه حمل قوله: **{ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}** على أنواع متوسطة بين الخلق من الطين و بين التسوية و نفخ الروح، و كون **{سُلَالَةٍ}** نكرة لا يستلزم العموم فإن إفادة النكرة للعموم إنما هو فيما إذا وقعت في سياق النفي دون الإثبات.

و قد استدل بآيات أخر مربوطة بخلق الإنسان و آدم بنحو مما مر يعلم الجواب عنها بما قدمناه فلا موجب لنقلها و إطالة الكلام بالجواب عنها.

{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ
مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى
نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمْ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا
فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ
دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا
مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ
هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا
مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَ فَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا
نَسُوقُ الْمَاءَ

إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجْ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْتَظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

(بيان)

الآيات تفرق بين المؤمنين بحقيقة معنى الإيمان و بين الفاسقين و الظالمين و تذكر لكل ما يلزمه من الآثار و التبعات ثم تنذر الظالمين بعذاب الدنيا و تأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بانتظار الفتح و عند ذلك تختم السورة.

قوله تعالى: **{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}** لما ذكر شطرا من الكلام في الكفار الذين يجحدون لقاءه و يستكبرون في الدنيا عن الإيمان و العمل الصالح أخذ في صفة الذين يؤمنون بآيات ربهم و يخضعون للحق لما ذكروا و وعظوا.

فقوله: **{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا}** حصر للإيمان بحقيقة معناه فيهم و معناه أن علامة التهيؤ للإيمان الحقيقي هو كذا و كذا.

و قوله: **{الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا}** ذكر سبحانه شيئا من أوصافهم و شيئا من أعمالهم، أما ما هو من أوصافهم فتدلهم لمقام الربوبية و عدم استكبارهم عن الخضوع لله و تسبيحه و حمده و هو قوله: **{إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا}** أي الدالة على وحدانيته في ربوبيته و ألوهيته و ما يلزمها من المعاد و الدعوة النبوية إلى الإيمان و العمل الصالح **{خَرُّوا سُجَّدًا}** أي سقطوا على الأرض ساجدين لله تدللا و استكانة **{وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}** أي نزهوه مقارنا للثناء الجميل عليه. و السجدة و التسبيح و التحميد و إن كانت من الأفعال لكنها مظاهر لصفة التذل و الخضوع لمقام الربوبية و الألوهية، و لذا أردفها بصفة تلازمها فقال: **{وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}**.

قوله تعالى: **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** هذا معرفهم من حيث أعمالهم كما أن ما في الآية السابقة كان معرفهم من حيث أوصافهم.

فقوله: **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}** التجافي التنحي والجنوب جمع جنب وهو الشق، والمضاجع جمع مضجع وهو الفراش و موضع النوم، والتجافي عن المضاجع كناية عن ترك النوم.

وقوله: **{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا}** حال من ضمير جنوبهم والمراد اشتغالهم بدعاء ربهم في جوف الليل حين تمام العيون وتسكن الأنفاس لا خوفا من سخطه تعالى فقط حتى يغشيهم اليأس من رحمة الله و لا طمعا في ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه و مكره بل يدعوونه خوفا و طمعا فيؤثرون في دعائهم أدب العبودية على ما يبعثهم إليه الهدى و هذا التجافي و الدعاء ينطبق على النوافل الليلية.

وقوله: **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}** عمل آخر لهم و هو الإنفاق لله و في سبيله.

قوله تعالى: **{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** تفریع لما لهم من الأوصاف و الأعمال يصف ما أعد الله لهم من الثواب.

و وقوع نفس و هي نكرة في سياق النفي يفيد العموم، و إضافة قرّة إلى أعين لا أعينهم تفيد أن فيما أخفي لهم قرّة عين كل ذي عين.

و المعنى: فلا تعلم نفس من النفوس أي هو فوق علمهم و تصورهم ما أخفاه الله لهم مما تقر به عين كل ذي عين جزاء في قبال ما كانوا يعملون في الدنيا.

قوله تعالى: **{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ}** الإيمان سكون عليّ خاص من النفس بالشيء و لازمه الالتزام العملي بما آمن به و الفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمرة إذا خرجت عن قشرها و مآل معناه الخروج عن زي العبودية.

و الاستفهام في الآية للإنكار، و قوله: **{لَا يَسْتَوُونَ}** نفي لاستواء الفريقين تأكيدا لما يفيدہ الإنكار السابق.

قوله تعالى: **{أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا**

يَعْمَلُونَ المأوى المكان الذي يأوي إليه ويسكن فيه الإنسان، و النزل بضمين كل ما يعد للنازل في بيت من الطعام و الشراب، ثم عمم كما قيل لكل عطية، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ** إلى آخر الآية، كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها و لذلك عقبه بقوله: **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**، و قوله: **وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ** دليل على أن المراد بالذين فسقوا هم منكرو المعاد و خطابهم و هم في النار بهذا الخطاب شماتة بهم و كثيرا ما كانوا يشمتون في الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد.

قوله تعالى: **وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** لما كان غاية إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجو و الرجوع المرجو هو الرجوع إلى الله بالتوبة و الإنابة كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف و الإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال و دون العذاب الذي بعد الموت و حينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

و المعنى: أقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أي الأقرب مثل السنين و الأمراض و القتل و نحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلهم يرجعون إلينا بالتوبة من شركهم و جحودهم.

قيل: سمي عذاب الدنيا أدنى و لم يقل: الأصغر، حتى يقابل الأكبر لأن المقام مقام الإنذار و التخويف و لا يناسبه عد العذاب أصغر، و كذا لم يقل دون العذاب الأبعد حتى يقابل العذاب الأدنى لعدم ملاءمته مقام التخويف.

قوله تعالى: **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** كأنه في مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذبون فعلة بأنهم ظالمون أشد الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين و الله منتقم منهم.

فقوله: **وَمَنْ أَظْلَمُ** إنح تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله: **إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ**، تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون و العذاب انتقام منهم، و الله منتقم من المجرمين.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}** المراد بالكتاب التوراة والمرية الشك والريب.

وقد اختلفوا في مرجع الضمير في قوله: **{مِنْ لِقَائِهِ}** ومعنى الكلمة فقيل: الضمير لموسى وهو مفعول اللقاء والتقدير فلا تكن في مرية من لقاءك موسى وقد لقيه ليلة المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السورة نازلة بعد المعراج فهو تذكرة لما قد وقع وإن كانت نازلة قبله فهو وعد منه تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه سيراه.

وقيل: الضمير لموسى والمعنى: فلا تكن في مرية من لقاءك موسى يوم القيامة.

وقيل: الضمير للكتاب والتقدير فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب.

وقيل: التقدير من لقاءك الكتاب أو من لقاء الكتاب إياك.

وقيل: الضمير لما لقي موسى من الأذى من قومه والمعنى: فلا تكن في مرية من لقاء الأذى كما لقيه موسى من قومه وأنت خير بأن الطبع السليم لا يقبل شيئاً من هذه الوجوه - على أنها لا تنفي لبيان وجه اتصال الآية بما قبلها.

ومن الممكن والله أعلم أن يرجع ضمير لقائه إليه تعالى والمراد بلقائه البعث بعناية أنه يوم يحضرون لربهم لا حجاب بينه وبينهم كما تقدم، وقد عبر عنه باللقاء قبل عدة آيات في قوله: **{بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}**، ثم عبر عنه بما في معناه في قوله: **{نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}**.

فيكون المعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب كما آتينك القرآن فلا تكن في مرية من البعث الذي ينطق به القرآن بالشك في نفس القرآن وقد أيد نزول القرآن عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) بنزول التوراة على موسى في مواضع من القرآن، ويؤيده قوله بعد: **{وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا}** إلخ.

ويمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التام إليه تعالى عند وحي القرآن أو بعضه كما في بعض الروايات، فيكون رجوعاً إلى ما في صدر السورة من قوله: **{تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَأَرِيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**، وذيل الآية أشد تأييداً لهذا الوجه من سابقه والله أعلم.

وقوله: **{وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}** أي هادياً فالمصدر بمعنى اسم الفاعل

أو بمعناه المصدرى مبالغة.

قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}** أي و جعلنا من بني إسرائيل أمة يهدون الناس بأمرنا وإنما نصبناهم أمة هداة للناس حين صبروا في الدين و كانوا قبل ذلك موقنين بآياتنا.

و قد تقدم البحث عن معنى الإمامة و هداية الإمام بأمر الله في تفسير قوله: **{قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}**: البقرة: ١٢٤ و قوله: **{وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}**: الأنبياء: ٧٣ و غير ذلك من الموارد المناسبة.

و قد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمة المنبسطة بالتوراة أنها هدى في نفسه يهدي من اتبعه إلى الحق، و أنها أنشأت في حجر تربيتها أناسا اجتباهم الله للإمامة فصاروا يهدون بأمره فهي مباركة للعمل بها و مباركة بعد العمل.

قوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** يريد اختلافهم في الدين و إنما كان ذلك بغيا بينهم كما يذكره في مواضع من كلامه كقوله: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ}** إلى أن قال **{فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}**: الجاثية: ١٧.

فالمراد بقوله: **{يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ}** القضاء الفاصل بين الحق و الباطل و المحق و المبطل و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ}** إلخ، العطف على محذوف كأنه قيل: ألم يبين لهم كذا و كذا، **{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ}** إلخ، و الهداية بمعنى التبيين أو هو مضمن معنى التبيين و لذا عدى باللام.

و قوله: **{كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ}** مشير إلى الفاعل قائم مقامه، و المعنى: أ و لم يبين لهم كثرة من أهلكتنا من القرون و الحال أنهم يمشون في مساكنهم.

و قوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ}** المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدي إلى طاعة الحق و قبوله.

قوله تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ}** إلخ، قال في المجمع: السوق الحث على السير من ساقه يسوقه،

و قال: الجزر الأرض اليابسة التي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها. انتهى.

و الزرع مصدر في الأصل و المراد به هنا المزروع.

و الآية تذكر آية أخرى من آيات الله سبحانه تدل على حسن تدبيره للأشياء و خاصة ذوي الحياة منها كالأنعام و الإنسان، و المراد بسوق الماء إلى الأرض الخالية من النبات سوق السحب الحاملة للأمطار إليها، ففي نزول ماء المطر منها حياة الأرض و خروج الزرع و اغتذاء الإنسان و الأنعام التي يسخرها و يربّيها لمقاصد حياته.

و قوله: **{أَفَلَا يُبْصِرُونَ}** تنبيه و توبيخ و تخصيص هذه الآية بالإبصار، و الآية السابقة بالسمع لما أن العلم بإهلاك الأمم الماضين إنما هو بالأخبار التي تنال من طريق السمع و أما العلم بسوق الأمطار إلى الأرض الجزر و إخراج الزرع و اغتذاء الأنعام و الإنسان فالطريق إليه حاسة البصر.

قوله تعالى: **{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ}** إلى قوله **{وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}** قال الراغب: الفتح إزالة الإغلاق و الإشكال إلى أن قال و فتح القضية فتاحا فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها، قال: **{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}** انتهى.

و قد تقدم في الآيات السابقة مما يصدق عليه الفتح بمعنى الفصل أمران: أحدهما فصل بينهم يوم القيامة، و الآخر إذاعة العذاب الأدنى أو الانتقام منهم في الدنيا و لذا فسر الفتح بعضهم بيوم القيامة فيكون معنى قولهم: **{مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** هو معنى قولهم المحكي كرارا في كلامه تعالى: **{مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}**.

و فسره بعضهم بيوم بدر فإنه لم ينفع الذين قتلوا من المشركين إيمانهم بعد القتل.

و ذكر بعضهم أن المراد به فتح مكة و لا يلائمه الجواب المذكور في قوله: **{قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}** إلا أن يقول قائل: إن إيمانهم يومئذ و قد عاندوا الحق و قاتلوا النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) سنين و جاهدوا في إطفاء نور الله لم يكن إيماننا إلا نفاقا من غير أن يدخل في قلوبهم و ينتفع به نفوسهم و قد ألزموا بالإيمان و لم ينظروا.

و يمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و بين الأمة و يكون ذلك في

آخر الزمان كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله: **{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ}** (الآية): يونس: ٤٧.

و كيف كان فالمراد بالآيتين استعجال المشركين بالفتح و الجواب أنه فتح لا ينفع حال الذين كفروا إيمانهم لأنه ظرف لا ينفع نفسا إيمانها و لا أن العذاب يمهلهم و ينظرهم.

قوله تعالى: **{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ}** أمر بالإعراض عنهم و انتظار الفتح كما أنهم ينتظرون و إنما كانوا منتظرين موته أو قتله (صلى الله عليه وآله و سلم) و بالجملة انقطاع دابر دعوته الحققة فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتى يظهر الله الحق على الباطل و المحق على المبطل.

و من هذا السياق يظهر أن المراد بالفتح الفتح الدنيوي.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قال: **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}**، قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير و يكسل الكبير.

أقول: و رواها أيضا فيه بطرق آخر موصولة و موقوفة و روى صدر الحديث الشيخ في أماليه بالإسناد عن الصادق (عليه السلام) في الآية و لفظه كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

و في الكافي بإسناده عن سليمان بن خالد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **أ لا أخبرك بالإسلام أصله و فرعه و ذروة سنامه؟ قلت: بلى جعلت فداك.** قال: **أما أصله فالصلاة و فرعه الزكاة و ذروة سنامه الجهاد.**

ثم قال: **إن شئت أخبرتك بأبواب الخير: قلت: نعم جعلت فداك.** قال: **الصوم جنة و الصدقة تذهب بالخطيئة و قيام الرجل في جوف الليل يذكر الله ثم قرأ: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}**

أقول: وروى هذا المعنى في المحاسن بإسناده عن علي بن عبد العزيز عن الصادق (عليه السلام) وفي الجمع عن الواحدي بالإسناد عن معاذ بن جبل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورواه في الدر المنثور عن الترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن معاذ عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: ذكر لنا رسول الله قيام الليل ففاضت عيناه حتى تحادرت دموعه فقال: **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}**.

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والطبراني وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة من طريق أبي صخر عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: بينما نحن عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يصف الجنة حتى انتهى.

ثم قال: فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قرأ: **{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} الآيتين**.

وفي الجمع وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: **ما من حسنة إلا ولها ثواب مبین في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها قال: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ} (الآية).**

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **ما من عمل حسن يعمله العبد إلا وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل - فإن الله عز وجل لم يبين ثوابها لعظيم خطره عنده، فقال جل ذكره: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} إلى قوله {يَعْمَلُونَ}.**

ثم قال: إن الله عز وجل كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة فإذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمن ملكا معه حلتان فينتهي إلى باب الجنة فيقول: استأذنوا لي على فلان فيقال له هذا رسول ربك على الباب فيقول لأزواجه: أي شيء ترين علي أحسن؟ فيقلن يا سيدنا والذي أباحك الجنة ما رأينا عليك أحسن من هذا الذي قد بعث إليك ربك فيتزر بواحدة ويتعطف بالأخرى فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد.

فإذا اجتمعوا تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فإذا نظروا إليه أي إلى رحمته خروا

سجدا فيقول: عبادي ارفعوا رءوسكم ليس هنا يوم سجود و لا عبادة قد رفعت عنكم المئونة فيقولون: يا ربنا و أي شيء أفضل مما أعطيتنا؟ أعطيتنا الجنة فيقول: لكم مثل ما في أيديكم سبعين مرة.

فيرجع المؤمن في كل جمعة بسبعين ضعفا مثل ما في يديه و هو قوله: **{وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}** و هو يوم الجمعة إن ليها ليلة غراء و يومها يوم أزهر فأكثروا من التسبيح و التهليل و التكبير و الثناء على الله عز و جل و الصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم).

قال: فيمر المؤمن فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى أزواجه فيقلن: و الذي أباحنا الجنة، يا سيدنا ما رأيك أحسن منك الساعة. فيقول: إني نظرت إلى نور ربي إلى أن قال: قلت جعلت فداك زدني. فقال: إن الله تعالى خلق جنة بيده و لم يرها عين و لم يطلع عليها مخلوق يفتحها الرب كل صباح فيقول: ازدادي ريحا ازدادي طيبا و هو قول الله: **{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**.

أقول: ذيل الرواية تفسير لصدرها و قوله: أي إلى رحمة ربه. من كلام الراوي.

و في الكافي بإسناده عن عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: من أطمع مؤمنا حتى يشبعه لم يدر أحد من خلق الله جل و عز ما له من الأجر في الآخرة لا ملك مقرب و لا نبي مرسل إلا الله رب العالمين.

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام): في قوله تعالى: **{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ}** قال: إن علي بن أبي طالب و الوليد بن عقبة بن أبي معيط تشاجرا فقال الفاسق وليد بن عقبة: أنا و الله أبسط منك لسانا و أحد منك سنانا و أمثل منك جثوا في الكتيبة. فقال علي (عليه السلام): اسكت إنما أنت فاسق فأنزل الله **{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ}**.

أقول: و رواه في المجمع عن الواحدي عن ابن عباس و في الدر المنثور عن كتاب الأغاني و الواحدي و ابن عدي و ابن مردويه و الخطيب و ابن عساكر عنه و أيضا عن ابن إسحاق و ابن جرير عن عطاء بن يسار و عن ابن أبي حاتم عن السدي عنه و أيضا عن ابن أبي حاتم عن ابن أبي ليلى مثله.

و في الاحتجاج عن الحسن بن علي (عليه السلام) في حديث يحاج فيه رجالا عند معاوية: **و أما أنت يا وليد بن عقبة فوالله ما ألومك أن تبغض عليا و قد جلدك في الخمر ثمانين جلدة و قتل أباك صبورا بيده يوم بدر أم كيف تسبه و قد سماه الله مؤمنا في عشر آيات من القرآن و سماك فاسقا و هو قول الله عز و جل: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ}**.

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال: سألت عبادة بن الصامت عن قول الله: **{وَلْتَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ}** فقال: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عنها فقال: هي المصائب و الأسقام و الأنصاب عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة قلت: يا رسول الله فما هي لنا؟ قال: زكاة و طهور.

و في المجمع في الرواية عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليه السلام): **أن العذاب الأدنى الدابة و الدجال.**

(٣٣) (سورة الأحزاب مدنية، و هي ثلاث و سبعون آية) (٧٣)

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَ مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ

مِنْ

نُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ
صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

(بيان)

تتضمن السورة تفاريق من المعارف و الأحكام و القصص و العبر و المواعظ و فيها قصة غزوة الخندق
و إشارة إلى قصة بني القريظة من اليهود، و سياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينة.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** أمر للنبي
(صلى الله عليه وآله و سلم) بتقوى الله و فيه تمهيد للنهي الذي بعده **{وَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ}**.

و في سياق النهي و قد جمع فيه بين الكافرين و المنافقين و نهى عن إطاعتهم كشف عن أن الكافرين
كانوا يسألونه أمرا لا يرتضيه الله سبحانه و كان المنافقون يؤيدونهم في مسألتهم و يلحون، أمرا كان الله سبحانه
بعلمه و حكمته قد قضى بخلافه و قد نزل الوحي الإلهي بخلافه، أمرا خطيرا لا يؤمن مساعدة الأسباب على
خلافه إلا أن يشاء الله فحذر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) عن إجابتهم إلى ملتسمهم و أمر بمتابعة ما
أوحى الله إليه و التوكل عليه.

و بهذا يتأيد ما ورد في أسباب النزول أن عدة من صناديد قريش بعد وقعة أحد دخلوا المدينة بأمان
من النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و سألوا النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يتركهم و آلتهم فيتركوه و
إلهه فنزلت الآيات و لم يجبهم النبي إلى ذلك و سيأتي في البحث الروائي التالي.

و بما تقدم ظهر وجه تذييل الآية بقوله: **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** و كذا تعقيب الآية بالآيتين بعدها.

قوله تعالى: **{وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}**

(الآية) عامة في حد نفسها لكنها من حيث وقوعها في سياق النهي تأمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) باتباع ما نزل به الوحي فيما يسأله الكافرون و المنافقون و أتباعه إجراؤه عملا بدليل قوله: **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}**.

قوله تعالى: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}** (الآية) كالأية السابقة في أنها عامة في حد نفسها، لكنها لوقوعها في سياق النهي السابق تدل على الأمر بالتوكل على الله فيما يأمره به الوحي و تشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر إلى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضة المخافة و الاضطراب إلا التوكل على الله سبحانه فإنه السبب الوحيد الذي لا يغلبه سبب مخالف.

قوله تعالى: **{مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}** كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين في الاعتقاد فإن القلب الواحد أي النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متنافيين و رأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقبين و ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين و يصدق بالمتناقضين و قوله: **{فِي جَوْفِهِ}** يفيد زيادة التقرير كقوله: **{وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}**: الحج: ٤٦.

قيل: الجملة توطئة و تمهيد كالتعليل لما يتلوها من إلغاء أمر الظهار و التبني فإن في الظهار جعل الزوجة بمنزلة الأم و في التبني و الدعاء جعل ولد الغير ولدا لنفسه و الجمع بين الزوجية و الأمومة و كذا الجمع بين بنوة الغير و بنوة نفسه جمع بين المتنافيين و لا يجتمعان إلا في قلبين و ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

و لا يبعد أن تكون الجملة في مقام التعليل لقوله السابق: **{لَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ}** **{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}** فإن طاعة الله و ولايته و طاعة الكفار و المنافقين و ولايتهم متنافيتان متباينتان كالتوحيد و الشرك لا يجتمعان في القلب الواحد و ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

قوله تعالى: **{وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ}** كان الرجل في الجاهلية يقول لزوجته أنت مني كظهر أمي أو ظهرك علي كظهر أمي فيشبه ظهرها بظهر أمه و كان يسمى ذلك ظهارا و يعد طلاقا لها، و قد ألغاه الإسلام.

فنفاد الآية أن الله لم يجعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن بقول ظهرك علي

كظهر أمي أمهات لكم و إذ لم يجعل ذلك فلا أثر لهذا القول و الجعل تشريعي.

قوله تعالى: **{وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ}** الأُدعياء جمع دعي و هو المتخذ ولدا المدعو ابنا و قد كان الدعاء و التبني دائرا بينهم في الجاهلية و كذا بين الأمم الراقية يومئذ كالروم و فارس و كانوا يرتبون على الدعي أحكام الولد الصليبي من التوارث و حرمة الازدواج و غيرهما و قد ألغاه الإسلام. ففاد الآية أن الله لم يجعل الذين تدعونهم لأنفسكم أبناء لكم بحيث يجري فيهم ما يجري في الأبناء الصليبيين.

قوله تعالى: **{ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}** الإشارة بقوله: **{ذَلِكُمْ}** إلى ما تقدم من الظهار و الدعاء أو إلى الدعاء فقط و هو الأظهر و يؤيده اختصاص الآية التالية بحكم الدعاء فحسب.

و قوله: **{قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ}** أي إن نسبة الدعي إلى أنفسكم ليس إلا قولاً تقولونه بأفواهكم ليس له أثر وراء ذلك فهو كناية عن انتفاء الأثر كما في قوله: **{كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا}**: المؤمنون: ١٠٠.

و قوله: **{وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}** معنى كون قوله: هو الحق أنه إن أخبر عن شيء كان الواقع مطابقاً لما أخبر به و إن أنشأ حكماً ترتب عليه آثاره و طابقتة المصلحة الواقعية.

و معنى هدايته السبيل أنه يحمل من هداه على سبيل الحق التي فيها الخير و السعادة و في الجملتين تلويح إلى أن دعوا أقوالكم و خذوا بقوله.

قوله تعالى: **{أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}** إلى آخر الآية. اللام في **{لِأَبَائِهِمْ}** للاختصاص أي ادعوهم و هم مخصوصون بأبائهم أي نسبهم إلى آبائهم و قوله: **{هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}**، الضمير إلى المصدر المفهوم من قوله: **{أَدْعُوهُمْ}** نظير قوله: **{إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}** و «أقسط» صيغة تفضيل من القسط بمعنى العدل.

و المعنى: نسبهم إلى آبائهم إذا دعوتهم لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند الله.

و قوله: **{فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ}**، المراد بعدم

علمهم آباءهم عدم معرفتهم بأعيانهم، والموالي هم الأولياء، والمعنى: وإن لم تعرفوا آباءهم فلا تنسبواهم إلى غير آبائهم بل ادعواهم بالإخوة والولاية الدينية.

وقوله: **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ}** أي لا ذنب لكم في الذي أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتهم لغير آبائهم و لكن الذي تعمدته قلوبكم ذنب أو و لكن تعمد قلوبكم بذلك فيه الذنب.

وقوله: **{وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}** راجع إلى ما أخطئ به.

قوله تعالى: **{الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}** أنفس المؤمنين هم المؤمنون فعنى كون النبي أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم: ومعنى الأولوية هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أولى منه فالمحصل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ و الكلاءة و المحبة و الكرامة و استجابة الدعوة و إنفاذ الإرادة فالنبي أولى بذلك من نفسه و لو دار الأمر بين النبي و بين نفسه في شيء من ذلك كان جانب النبي أرجح من جانب نفسه.

ففيما إذا توجه شيء من المخاطر إلى نفس النبي فليقه المؤمن بنفسه و يفده نفسه و ليكن النبي أحب إليه من نفسه و أكرم عنده من نفسه و لو دعت نفسه إلى شيء و النبي إلى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئاً و أراد النبي خلافه كان المتعين استجابة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و طاعته و تقديمه على نفسه.

و كذا النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أولى بهم فيما يتعلق بالأمر الديني أو الدينية كل ذلك لمكان الإطلاق في قوله: **{الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}**.

و من هنا يظهر ضعف ما قيل: إن المراد أنه أولى بهم في الدعوة فإذا دعاهم إلى شيء و دعتهم أنفسهم إلى خلافه كان عليهم أن يطيعوه و يعصوا أنفسهم، فتكون الآية في معنى قوله: **{وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ}**: النساء: ٥٩ و قوله: **{وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}**: النساء: ٦٤ و ما أشبه ذلك من الآيات و هو مدفوع بالإطلاق.

و كذا ما قيل إن المراد أن حكمه فيهم أنفذ من حكم بعضهم على بعض كما في قوله: **{فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ}**: النور: ٦١ و يتول إلى أن ولايته على المؤمنين فوق ولاية بعضهم على بعض المدلول عليه بقوله: **{الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}**: براءة: ٧١.

و فيه أن السياق لا يساعد عليه.

وقوله: **{وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ}** جعل تشريعي أي أنهن منهم بمنزلة أمهاتهم في وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما سيأتي التصريح به في قوله: **{وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا}**.

فالتنزيل إنما هو في بعض آثار الأمومة لا في جميع الآثار كالتوارث بينهن وبين المؤمنين والنظر في وجوههن كالأمهات وحرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم و كصيرورة آبائهن وأمهاتهن أجدادا وجدات وإخوتهن وأخواتهن أخوالا وخالات للمؤمنين.

قوله تعالى: **{وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ}** إِنْخ، الأرحام جمع رحم وهي العضو الذي يحمل النطفة حتى تصير جنينا فيتولد، وإذ كانت القرابة النسبية لازمة الانتباه إلى رحم واحدة عبر عن القرابة بالرحم فسمي ذوو القرابة أولي الأرحام.

والمراد بكون أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، الأولوية في التوارث، وقوله: **{فِي كِتَابِ اللَّهِ}** المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة، وقوله: **{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ}** مفضل عليه والمراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم، والمعنى: وذوو القرابة بعضهم أولى ببعض من المهاجرين وسائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالمواخاة الدينية، وهذه الأولوية في كتاب الله وربما احتتم كون قوله: **{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ}** بيانا لقوله: **{وَأُولُوا الْأَرْحَامِ}**.

والآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاتة في الدين.

وقوله: **{إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا}** الاستثناء منقطع، والمراد بفعل المعروف إلى الأولياء الوصية لهم بشيء من التركة، وقد حد شرعا بثلث المال فما دونه، وقوله: **{كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}** أي حكم فعل المعروف بالوصية مسطور في اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة.

قوله تعالى: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}** إضافة الميثاق إلى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوة مشعر بذلك فالميثاق

المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبيون و هو غير الميثاق المأخوذ من عامة البشر الذي يشير إليه في قوله: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ}:** الأعراف: ١٧٢.

وقد ذكر أخذ الميثاق من النبيين في موضع آخر و هو قوله: **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا}:** آل عمران: ٨١.

والآية المبحوث عنها وإن لم تبين ما هو الميثاق المأخوذ منهم وإن كانت فيها إشارة إلى أنه أمر متعلق بالنبوة لكن يمكن أن يستفاد من آية آل عمران أن الميثاق مأخوذ على وحدة الكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه كما في قوله: **{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}:** الأنبياء: ٩٢ و قوله: **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}:** الشورى: ١٣.

وقد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمي خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال: **{وَمِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ}:** ومعنى العطف إخراجهم من بينهم وتخصيصهم بالذكر كأنه قيل: وإذا أخذنا الميثاق منكم أيها الخمسة و من باقي النبيين.

ولم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلا لعظمة شأنهم ورفعة مكانهم فإنهم أولوا عزم وأصحاب شرائع و كتب و قد عددهم على ترتيب زمانهم: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم (عليه السلام)، لكن قدم ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو آخرهم زمانا لفضله و شرفه و تقدمه على الجميع.

وقوله: **{وَ أَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا}:** تأكيد و تغليظ للميثاق نظير قوله: **{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}:** هود: ٥٨.

قوله تعالى: **{لَيْسَ سَأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}:** اللام في **{لَيْسَ سَأَلَ}** للتعليل أو للغاية و هو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله: **{وَ إِذْ أَخَذْنَا}:** وقوله: **{وَ أَعَدَّ}:** معطوف على ذلك المحذوف، و التقدير فعل ذلك أي أخذ الميثاق

ليتمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم و أعد للكافرين عذابا أليما.

و لم يقل: و ليعد للكافرين عذابا، إشارة أن عذابهم ليس من العلل الغائية لأخذ الميثاق وإنما النقص من ناحيتهم و الخلف من قبلهم.

و أما سؤال الصادقين عن صدقهم فقيل: المراد بالصادقين الأنبياء و سؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أمهم و كأنه مأخوذ من قوله تعالى: **{يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ}**: المائدة: ١٠٩.

و قيل: المراد سؤال الصادقين في توحيد الله و عدله و الشرائع عن صدقهم أي عما كانوا يقولون فيه و قيل: المراد سؤال الصادقين في أقوالهم عن صدقهم في أفعالهم، و قيل: المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أ هو وجه الله أو غيره؟ إلى غير ذلك من الوجوه و هي كما ترى.

و التأمل فيما يفيد قوله: **{لَيْسَ سَأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ}** يرشد إلى خلاف ما ذكره، ففرق بين قولنا: سألت الغني عن غناه و سألت العالم عن علمه، و بين قولنا: سألت زيدا عن ماله أو عن علمه، فالتبادر من الأولين أي طالبتة أن يظهر غناه و أن يظهر علمه، و من الآخرين أي طالبتة أن يخبرني هل له مال أو هل له علم؟ أو يصف لي ماله من المال أو من العلم.

و على هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما في باطنهم من الصدق في مرتبة القول و الفعل و هو عملهم الصالح في الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق إليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن في نفوسهم و هذا في الدنيا لا في الآخرة فأخذ الميثاق في نشأة أخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الذر **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ}** الآيات.

و بالجملة الآيتان من الآيات المنبئة عن عالم الذر المأخوذ فيه الميثاق و تذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء (عليه السلام) و ترتب شأنهم و عملهم في الدنيا على ذلك في ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه.

و لمكان هذا التعميم ذكر عاقبة أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين

و الكلام في الميثاق المأخوذ منهم فكأنه قيل: أخذنا ميثاقا غليظا من النبيين أن تثفق كلمتهم على دين واحد يبلغونه ليسأل الصادقين و يطالبهم بالتكليف و الهداية إظهار صدقهم في الاعتقاد و العمل ففعلوا فقدروا لهم الثواب و أعد للكافرين عذابا أليما.

و من هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله: **{لَيْسَ سَلَّ الصَّادِقِينَ}** إلخ، و ذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له و إن كان أخذه منه تعالى بوساطة من الملائكة المصحح لقوله: **{أَخَذْنَا} و {وَأَخَذْنَا}** فالمطالب لصدق الصادقين و المعد لعذاب الكافرين بالحقيقة هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر.

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ}** الآيات نزلت في أبي سفيان بن حرب و عكرمة بن أبي جهل و أبي الأعور السلمي قدموا المدينة و نزلوا على عبد الله بن أبي بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) ليكلموه فقاموا و قام معهم عبد الله بن أبي و عبد الله بن سعيد بن أبي سرح و طعمة بن أبيرق فدخلوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فقالوا: يا محمد ارفض ذكر آلهتنا اللات و العزى و مناة و قل: إن لها شفاعة لمن عبدها و ندعك و ربك. فشق ذلك على رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم). فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم، فقال: **إني أعطيتهم الأمان و أمر فأخرجوا من المدينة و نزلت الآية {وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ}** من أهل مكة أبا سفيان و أبا الأعور و عكرمة **{وَالْمُنَافِقِينَ}** ابن أبي و ابن سعيد و طعمة.

أقول: و روي إجمال القصة في الدر المنثور عن جرير عن ابن عباس، و روي أسباب أخر لنزول الآيات لكنها أجنبية غير ملائمة لسياق الآيات فأضربنا عنها.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَمَا جَعَلْ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ}**: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: كان سبب ذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) لما تزوج بخديجة بنت خويلد خرج إلى سوق عكاظ في تجارة و رأى زيدا يباع و رآه غلاما كيسا حصينا فاشتراه فلما نبئ رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) دعاه إلى الإسلام فأسلم و كان يدعى زيد مولى محمد.

فلما بلغ حارثة بن شراحيل الكلبي خبر ولده زيد قدم مكة و كان رجلا جليلا فأتى أبا طالب فقال: يا أبا طالب إن ابني وقع عليه السبي و بلغني أنه صار إلى ابن أخيك تسأله إما أن يبيعه و إما أن يفاديه و إما أن يعتقه.

فكلم أبو طالب رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فقال رسول الله: هو حر فليذهب حيث شاء فقام حارثة فأخذ بيد زيد فقال له: يا بني الحق بشرفك و حسبك، فقال زيد: لست أفارق رسول الله، فقال له أبوه: فتدع حسبك و نسبك و تكون عبدا لقريش؟ فقال زيد: لست أفارق رسول الله ما دمت حيا، فغضب أبوه فقال: يا معشر قريش اشهدوا أني قد برئت منه و ليس هو ابني، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): اشهدوا أن زيدا ابني أرثه و يرثني. فكان زيد يدعى ابن محمد - و كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يحبه و سماه زيد الحب.

فلما هاجر رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) إلى المدينة زوجه زينب بنت جحش و أبطأ عنه يوما فأتى رسول الله منزله يسأل عنه فإذا زينب جالسة وسط حجرتها يستحق طيها بفهر لها فدفع رسول الله الباب و نظر إليها و كانت جميلة حسنة فقال: سبحان الله رب النور و تبارك الله أحسن الخالقين، ثم رجع رسول الله إلى منزله و وقعت زينب في قلبه موقعا عجيبا.

و جاء زيد إلى منزله فأخبرته زينب بما قال رسول الله فقال لها زيد: هل لك أن أطلقك حتى يتزوج بك رسول الله؟ فقالت: أخشى أن تطلقني و لا يتزوجني رسول الله. فجاء زيد إلى رسول الله فقال: بأبي أنت و أمي يا رسول الله أخبرني زينب بكذا و كذا فهل لك أن أطلقها حتى تتزوجها؟ فقال له رسول الله: لا اذهب و اتق الله و أمسك عليك زوجك، ثم حكى الله فقال: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا زَوَّجْنَا كَهَا} إلى قوله {وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} فزوجه الله من فوق عرشه.

فقال المنافقون: يحرم علينا نساء أبنائنا و يزوج امرأة ابنه زيد فأنزل الله في هذا {وَ مَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ} إلى قوله {يَهْدِي السَّبِيلَ}.

أقول: و روى قريبا منه مع اختلاف ما في الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد و أبو داود و ابن مردويه عن جابر عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أنه كان يقول: **أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأبما رجل مات و ترك ديناً فالي، و من ترك مالا فهو لورثته.**

أقول: و في معناه روايات أخر من طرق الشيعة و أهل السنة.

و فيه أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و النسائي عن بريدة قال: غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) ذكرت علياً فتنقصته فرأيت وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) تغير و قال: **يا بريدة أ لست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه.**

و في الاحتجاج عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في حديث طويل قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يقول: **أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. من كنت أولى به من نفسه فأنت أولى به من نفسه و علي بين يديه في البيت.**

أقول: و رواه في الكافي بإسناده عن جعفر عنه (صلى الله عليه وآله و سلم) و الأحاديث في هذا المعنى من طرق الفريقين فوق حد الإحصاء.

و في الكافي بإسناده عن حنان قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): **أي شيء للهوالي؟ فقال: ليس لهم من الميراث إلا ما قال الله عز و جل: {إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا}.**

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قيل: **يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال: و آدم بين الروح و الجسد.**

أقول: و هو بلفظه مروى بطرق مختلفة عنه (صلى الله عليه وآله و سلم) و معناه كون الميثاق مأخوذاً في نشأة غير هذه النشأة و قبلها.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ٢٧]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرًا ① إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ② هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ③ وَ
إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ④ وَإِذْ قَالَتِ
طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا
عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ⑤ وَ لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ آقْطَارِهَا ثُمَّ سُلِوا الْفِتْنَةَ
لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ⑥ وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَ كَانَ
عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ⑦ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا
قَلِيلًا ⑧ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَا يَجِدُونَ
لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا ⑨ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَابِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ
إِلَيْنَا وَ لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ⑩ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً
عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ⑪

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ
عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا
وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ
قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
فَرِيقًا تَفْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَ
كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

(بيان)

قصة غزوة الخندق و ما عقبها من أمر بني قريظة و وجه اتصالها بما قبلها ما فيها من ذكر حفظ العهد

و نقضه.

قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ }** إنلخ، تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم و صرف جنود المشركين عنهم و قد كانوا جنودا مجندة من شعوب و قبائل شتى كغطفان و قريش و الأحابيش و كنانة و يهود بني قريظة و النضير أحاطوا بهم من فوقهم و من أسفل منهم فسلط الله عليهم الريح و أنزل ملائكة يخذلونهم.

و هو قوله: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ } ظرف للنعمة أو لثبوتها { جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ }** من طوائف كل واحدة منهم جند كغطفان و قريش و غيرها **{ فَأَرْسَلْنَا }** بيان للنعمة و هو الإرسال المتفرع على مجيئهم **{ عَلَيْهِمْ رِيحًا }** و هي الصبا و كانت باردة في ليل شاتية **{ وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا }** و هي الملائكة لخذلان المشركين **{ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا }**.

قوله تعالى: **{ إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ }** إنلخ الجاءون من فوقهم و هو الجانب الشرقي للمدينة غطفان و يهود بني قريظة و بني النضير و الجاءون من أسفل منهم و هو الجانب الغربي لها قريش و من انضم إليهم من الأحابيش و كنانة فقوله: **{ إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ }** عطف بيان لقوله: **{ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ }**.

و قوله: **{ إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ }**، عطف بيان آخر لقوله: **{ إِذْ جَاءَتْكُمْ }** إنلخ، و زيغ الأبصار ميلها و القلوب هي الأنفس و الحناجر جمع حنجر و هو جوف الحلقوم.
و الوصفان أعني زيغ الأبصار و بلوغ القلوب الحناجر ككيتان عن كمال غشيان الخوف لهم حتى حولهم إلى حال المحتضر الذي يزيغ بصره و تبلغ روحه الحلقوم.

و قوله: **{ وَ تَطَّنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا }** أي يظن المنافقون و الذين في قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول: إن الكفار سيغلبون و يستولون على المدينة، و بعضهم يقول: إن الإسلام سينمحق و الدين سيضيع، و بعضهم يقول: إن الجاهلية ستعود كما كانت، و بعضهم يقول: إن الله غرهم و رسوله إلى غير ذلك من الظنون.

قوله تعالى: **{ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا }** هنالك إشارة بعيدة إلى زمان أو مكان و المراد الإشارة إلى زمان مجيء الجنود و كان شديدا عليهم

لغاية بعيدة، و الابتلاء الامتحان، و الزلزلة و الزلزال الاضطراب، و الشدة القوة و تختلفان في أن الغالب على الشدة أن تكون محسوسا بخلاف القوة، قيل: و لذلك يطلق القوي عليه تعالى دون الشديد.

و المعنى في ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون و اضطربوا خوفا اضطرابا شديدا.

قوله تعالى: **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}** الذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان من المؤمنين و هم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر، و إنما سمي المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام.

و الغرور حمل الإنسان على الشر بإراءته في صورة الخير و الاغترار احتماله له. قال الراغب: يقال: غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أريد، و الغرة بكسر الغين غفلة في اليقظة. انتهى.

و الوعد الذي يعدونه غرورا من الله و رسوله لهم بقريئة المقام هو وعد الفتح و ظهور الإسلام على الدين كله و قد تكرر في كلامه تعالى كما ورد أن المنافقين قالوا: يعدنا محمد أن يفتح مدائن كسرى و قيصر و نحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء.

قوله تعالى: **{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا}** يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينة الرسول بعد الهجرة ثم المدينة، و المقام بضم الميم الإقامة، و قولهم: **{لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا}** أي لا وجه لإقامتكم هاهنا قبال جنود المشركين فالغلبة لهم لا محالة فارجعوا ثم أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال عاطفا على قوله: قالت طائفة: **{وَإِسْتَأْذِنُ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ}** أي من المنافقين و الذين في قلوبهم مرض **{الَّتِي}** في الرجوع **{يَقُولُونَ}** استئذانا **{إِنَّ بَيْوتَنَا عَوْرَةٌ}** أي فيها خلل لا يأمن صاحبها دخول السارق و زحف العدو **{وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ}** أي ما يريدون بقولهم هذا **{إِلَّا فِرَارًا}**.

قوله تعالى: **{وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سِيلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّتْ بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}** ضمائر الجمع للمنافقين و المرضى القلوب و الضمير في **{دَخَلَتْ}** للبيوت و معنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولا عليهم، و الأقطار جمع قطر و هو الجانب، و المراد بالفتنة بقريئة المقام الردة و الرجعة من الدين و المراد بسؤالها

طلبها منهم، و التلبث التأخر.

و المعنى: و لو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها و هم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم مسئولهم و ما تأخروا بالردة إلا يسيرا من الزمان بمقدار الطلب و السؤال أي إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشدة و البأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا}** اللام للقسم، و قوله: **{لَا يُولُونَ الدُّبَارَ}** أي لا يفرون عن القتال و هو بيان للعهد و لعل المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان بالله و رسوله و ما جاء به رسوله و مما جاء به: الجهاد الذي يحرم الفرار فيه و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: **{قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا}** إذ لا بد لكل نفس من الموت لأجل مقضي محتوم لا يتأخر عنه ساعة و لا يتقدم عليه فالفرار لا يؤثر في تأخير الأجل شيئاً.

و قوله: **{وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا}** أي و إن نفعكم الفرار فتعتم بتأخر الأجل فرضاً لا يكون ذلك التمتع إلا تمتعاً قليلاً أو في زمان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محالة.

قوله تعالى: **{قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا}** كانت الآية السابقة تنبئهم على أن حياة الإنسان مقضي مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف و في هذه الآية تنبيه - على أن الشر و الخير تابعان لإرادة الله محضاً لا يمنع عن نفوذها سبب من الأسباب و لا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر إلى إرادته تعالى و القرار على أمره بالتوكل عليه.

و لما كانت قلوبهم مرضى أو مشغولة بكفر مستبطن عدل عن أمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بتكليمهم إلى تكليم نفسه فقال: **{وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا}**.

قوله تعالى: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ}** إلى قوله **{يَسِيرًا}** التعويق التثييط و الصرف، و هلم اسم فعل بمعنى أقبل، و لا يثنى و لا يجمع في لغة الحجاز، و البأس الشدة و الحرب، و أشعة جمع شحيح بمعنى البخيل، و الذي يغشى عليه هو الذي أخذته

الغشوة فغابت حواسه وأخذت عيناه تدوران، والسلق بالفتح فالسكون الضرب و الطعن.

و معنى الآيتين: إن الله يعلم الذين يثبطون منكم الناس ويصرفونهم عن القتال وهم المنافقون ويعلم الذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أو ضعفة الإيمان تعالوا وأقبلوا ولا يحضرون الحرب إلا قليلا بخلاء عليكم بنفوسهم.

فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون إليك من الخوف نظرا لا إرادة لهم فيه ولا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشي عليه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوكم وطعنوكم بالسنة حداد قاطعة حال كونهم بخلاء على الخير الذي نلتموه.

أولئك لم يؤمنوا ولم يستقر الإيمان في قلوبهم وإن أظهروه في ألسنتهم فأبطل الله أعمالهم وأحبطها و كان ذلك على الله يسيرا.

قوله تعالى: **{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا}** إلى آخر الآية، أي يظنون من شدة الخوف أن الأحزاب و هم جنود المشركين المتحزبون على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يذهبوا بعد **{وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ}** مرة ثانية بعد ذهابهم وتركهم المدينة **{يُودُّوْا}** ويحبوا **{أَنْتَهُمْ بَادُونَ}** أي خارجون من المدينة إلى البدو **{فِي الْأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ}** وأخباركم **{وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ}** و لم يخرجوا منها بادين **{مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا}** أي و لا كثير فائدة في لزومهم إياكم و كونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلا قليلا لا يعتد به.

قوله تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}** الأسوة القدوة و هي الاقتداء و الاتباع، و قوله: **{فِي رَسُولِ اللَّهِ}** أي في مورد رسول الله و الأسوة التي في مورده هي تأسيهم به و اتباعهم له و التعبير بقوله: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ}** الدال على الاستقرار و الاستمرار في الماضي إشارة إلى كونه تكليفا ثابتا مستمرا.

و المعنى: و من حكم رسالة الرسول و إيمانكم به أن تتأسوا به في قوله و فعله و أنتم ترون ما يقاسيه في جنب الله و حضوره في القتال و جهاده في الله حق جهاده.

و في الكشاف: فإن قلت: فما حقيقة قوله: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}**؟ و قرئ أسوة بالضم. قلت: فيه وجهان: أحدهما أنه في نفسه أسوة حسنة

أي قدوة و هو المؤتى أى المقتدى به كما تقول: فى البىضة عشرون منا حديد أى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد. و الثانى: أن فىه خصلة من حقها أن يؤتى بها و تتبع و هى المواسة بنفسه انتهى و أول الوجهين قريب مما قدمناه.

و قوله: **{لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}** بدل من ضمير الخطاب فى **{لَكُمْ}** للدلالة على أن التأسى برسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) خصلة جميلة زاكية لا يتصف بها كل من تسمى بالإيمان، و إنما يتصف بها جمع ممن تلبس بحقيقة الإيمان فكان يرجو الله و اليوم الآخر أى تعلق قلبه بالله فآمن به و تعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحا و مع ذلك ذكر الله كثيرا فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبي فى أفعاله و أعماله.

و قيل: قوله: **{لَمَنْ كَانَ}** إلخ، صلة لقوله: **{حَسَنَةً}** أو صفة له للمنع عن الإبدال من ضمير الخطاب و مآل الوجوه الثلاثة بحسب المعنى واحد.

قوله تعالى: **{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}**، و وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب و نزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم و تبصرهم فى الإيمان و تصديقهم لله و لرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض من الارتياب و سئى القول، و بذلك يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم بالله و رسوله.

و قوله: **{قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}** الإشارة بهذا إلى ما شاهدوه مجردا عن سائر الخصوصيات، كما فى قوله: **{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي}**: الأنعام: ٧٨.

و الوعد الذى أشاروا إليه قيل: هو ما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذى وعدهم.

و قيل: إنهم كانوا قد سمعوا قوله تعالى فى سورة البقرة: **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}**: البقرة: ٢١٤ فتحققوا

أنهم سيصيبهم ما أصاب الأنبياء والمؤمنين بهم من الشدة والمحنة التي تزلزل القلوب وتدهش النفوس فلها رأوا الأحزاب أيقنوا أنه من الوعد الموعود وأن الله سينصرهم على عدوهم.

والحق هو الجمع بين الوجهين نظرا إلى جمعهم بين الله ورسوله في الوعد إذ قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله.

وقوله: **{وَوَدَّعَدْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}** شهادة منهم على صدق الوعد، وقوله: **{وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}** أي إيماننا بالله ورسوله وتسلينا لأمر الله بنصرة دينه والجهاد في سبيله.

قوله تعالى: **{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}** قال الراغب: النحب النذر المحكوم بوجوبه، يقال: قضى فلان نحبه أي وفى بنذره قال تعالى: **{فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ}**، ويعبر بذلك عن مات كقولهم: قضى أجله واستوفى أكله وقضى من الدنيا حاجته. انتهى.

وقوله: **{صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}** أي حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا ينفروا إذا لاقوا العدو، ويشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن في الآية محاذاة لقوله السابق في المنافقين والضعفاء الإيمان: **{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ}** كما أن في الآية السابقة محاذاة لما ذكر سابقا من ارتياب القوم وعدم تسليمهم لأمر الله.

وقوله: **{فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ}** إلخ، أي منهم من قضى أجله بموت أو قتل في سبيل الله ومنهم من ينتظر ذلك وما بدلوا شيئا مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلا.

قوله تعالى: **{لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}** اللام للغاية وما تتضمنه الآية غاية لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين والمؤمنين.

فقوله: **{لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ}** المراد بالصادقين المؤمنين وقد ذكر صدقهم قبل، والباء في **{بِصِدْقِهِمْ}** للسببية أي ليجزي المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم.

وقوله: **{وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنِ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}** أي و ليعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم و ذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إن الله كان غفورا رحیما.

و فی الآیة من حیث كونها بیان غاية نکتة لطيفة هی أن المعاصي ربما كانت مقدمة للسعادة و المغفرة لا بما أنها معاص بل لكونها سائقة للنفس من الظلمة و الشقوة إلى حیث تتوحش النفس و تثبه فتتوب إلى ربها و تنتزع عن معاصيها و ذنوبها فيتوب الله علیها فی الغایة.

قوله تعالى: **{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}** الغیظ الغم و الحنق و المراد بالخیر ما كان یعده الكفار خیرا و هو الظفر بالنبي (صلى الله علیه وآله و سلم) و المؤمنین.

و المعنى: و رد الله الذین كفروا مع غمهم و حنقهم و الحال أنهم لم ینالوا ما كانوا یتمنونه و كفى الله المؤمنین القتال فلم یقاتلوا و كان الله قویا على ما یرید عزیزا لا یغلب.

قوله تعالى: **{وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ}** إلى قوله **{قَدِيرًا}** المظاهرة المعاونة، و الصیاصی جمع صیصیة و هی الحصن الذی یمتنع به و لعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنین یصعدون بروج الحصون و یشرفون منها و من أعالی الجدران على أعدائهم فی خارجها و محاصریهم.

و المعنى: **{وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ}** أي عاونوا المشركین و هم بنو قریظة **{مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** و هم اليهود **{مِنْ صَيَاصِيهِمْ}** و حصونهم **{وَ قَدَفَ}** و ألقى **{فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}** و الخوف **{فَرِيقًا تَقْتُلُونَ}** و هم الرجال **{وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا}** و هم الذراری و النساء **{وَ أَوْرَثَكُمْ}** أي و ملککم بعدهم **{أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا}** و هی أرض خیر أو الأرض التي أفاء الله مما لم یوجف علیها بخیل و لا ركب، و أما تفسیرها بأنها كل أرض ستفتح إلى یوم القیامة أو أرض مكة أو أرض الروم و فارس فلا یلائمه سیاق الآتین **{وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}**.

(بحث روائی)

فی المجمع ذکر محمد بن کعب القرظی و غیره من أصحاب السیر قالوا: كان من

حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب في جماعة من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعواهم إلى حرب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقالوا: إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم.

فقلت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول فديننا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله فيهم **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحُبِّ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}** إلى قوله **{وَكَفَىٰ بِيحْتِمَاءِ سَعِيرًا}** فسر قريشا ما قالوا ونشطوا لما دعواهم إليه فأجمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان فدعواهم إلى حرب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخبروهم أنهم سيكونون عليه وأن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم.

فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في فزارة والحارث بن عوف في بني مرة ومسعر بن جبلة الأشجعي فيمن تابعه من الأشجع وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد - فأقبل طليحة فيمن اتبعه من بني أسد وهما حليفان أسد و غطفان و كتب قريش إلى رجال من بني سليم فأقبل أبو الأعور السلمي فيمن اتبعه من بني سليم مددا لقريش.

فلما علم بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ضرب الخندق على المدينة و كان الذي أشار إليه سلمان الفارسي و كان أول مشهد شاهده سلمان مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يومئذ حر قال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمون حتى أحكموه.

فما ظهر من دلائل النبوة في حفر الخندق ما رواه أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن كثير بن عبد الله بن عمر بن عوف المزني قال: حدثني أبي عن أبيه قال: خط رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعا بين عشرة فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي و كان رجلا قويا فقال الأنصار: سلمان منا، وقال المهاجرون: سلمان منا، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **سلمان**

منا أهل البيت.

قال عمرو بن عوف: فكنتم أنا و سلمان و حذيفة بن اليمان و النعمان بن مقرن

و ستة من الأنصار نقطع أربعين ذراعا، فحفرنا حتى إذا بلغنا الثرى أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة فكسرت حديدنا و شقت علينا فقلنا: يا سلمان ارق إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخبره عن الصخرة، فأما أن نعدل عنها فإن المعدل قريب وإما أن يأمرنا فيه بأمره فإننا لا نحب أن نجاوز خطه، فرقي سلمان حتى أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو مضروب عليه قبة فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء من الخندق مدورة فكسرت حديدنا و شقت علينا حتى ما يحك فيها قليل و لا كثير فمرنا فيها بأمرك فهبط رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع سلمان في الخندق و أخذ المعول و ضرب بها ضربة فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتها يعني لابتي المدينة حتى لكان مصباحا في جوف ليل مظلم فكبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تكبيرة -فتح فكبر المسلمون ثم ضرب ضربة أخرى فلمعت برقة أخرى ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى.

فقال سلمان: بأبي أنت و أمي يا رسول الله ما هذا الذي أرى؟ فقال: أما الأولى فإن الله عز و جل فتح علي بها اليمن - و أما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام و المغرب و أما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق فاستبشر المسلمون بذلك و قالوا: الحمد لله موعد صادق.

قال: و طلعت الأحزاب فقال المؤمنون: هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله، و قال المنافقون: ألا تعجبون؟ يحدثكم و يعدكم الباطل و يخبركم أنه يبصر في يثرب قصور الحيرة و مدائن كسرى و أنها تفتح لكم و أتم تحفرون الخندق و لا تستطيعون أن تبرزوا.^١

و مما ظهر فيه أيضا من آيات النبوة ما رواه أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن عبد الواحد بن أيمن الخزومي قال حدثني، أيمن الخزومي قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: كما يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كدية و هي الجبل فقلنا: يا رسول الله إن كدية عرضت فيه فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رشوا عليها ماء ثم قام و أتاها و بطنه معصوب الحجر^٢ من الجوع فأخذ المعول أو المسحاة فسمى ثلاثا - ثم ضرب فعادت كثيبا^٣

١ أي تقضوا حاجتكم بالتخلي.

٢ الحجر حصى الإنسان و هو ما دون الإبط إلى الكشح.

٣ أي تلا من الرمل.

أهيل فقلت: ائذن لي يا رسول الله إلى المنزل ففعل فقلت للمرأة هل عندك من شيء؟ فقالت: عندي صاع من شعير و عناق فطحنت الشعير فعجنته و ذبحت العناق و سلختها و خلّيت بين المرأة و بين ذلك.

ثم أتيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فجلست عنده ساعة ثم قلت: ائذن لي يا رسول الله ففعل فأتيت المرأة فإذا العجين و اللحم قد أمكنا فرجعت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت: **إن عندنا طعيما لنا فقم يا رسول الله أنت و رجالان من أصحابك فقال: و كم هو؟ فقلت: صاع من شعير و عناق فقال للمسلمين جميعا: قوموا إلى جابر فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله فقلت: جاء بالخلق إلى صاع شعير و عناق.**

فدخلت على المرأة و قلت قد افتضحت جاءك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالخلق أجمعين فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ قلت: نعم. فقالت: الله و رسوله أعلم قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عني غما شديدا.

فدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: خذي و دعيني من اللحم فجعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يثرد و يفرق اللحم ثم يحم هذا و يحم هذا فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين و يعود التنور و القدر أملاً ما كانا.

ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **كلي و أهدي - فلم نزل نأكل و نهدي قومنا أجمع أوردته البخاري في الصحيح.**

قالوا: و لما فرغ رسول الله من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف^٢ و الغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم و من تابعهم من بني كنانة و أهل تهامة، و أقبلت غطفان و من تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد، و خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و المسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع^٣ في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هناك عسكره و الخندق بينه و بين القوم و أمر بالذراري و النساء فرفعوا في الآطام^٤

١ الأثني من أولاد المعز.

٢ مكان خارج المدينة.

٣ جبل بالمدينة.

٤ حصون لأهل المدينة.

وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة و كان قد وادع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على قومه وعاهده على ذلك فلما سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه. فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه يا كعب افتح لي فقال: ويحك يا حيي إنك رجل مشثوم، إني قد عاهدت محمداً ولست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا. قال: ويحك افتح لي حتى أكلهمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: إن أغلقت دوني إلا على جشيشة تكره أن أكل منها معك.

فأحفظ الرجل ففتح له فقال: ويحك يا كعب جئتكم بعز الدهر و بجر طام^٢ جئتكم بقريش على قادتها و ساداتها و بغطفان على ساداتها و قادتها قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً و من معه. فقال كعب: جئتني و الله بذل الدهر بجهام^٣ قد أهرق ماءه يردد و يبرق و ليس فيه شيء فدعني و محمداً و ما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقا و وفاء.

فلم يزل حيي بكعب يفتل منه في الذروة^٤ و الغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهدا و ميثاقا لئن رجعت قريش و غطفان و لم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده - و برىء مما كان عليه فيما بينه و بين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس أحد بني عبد الأشهل و هو يومئذ سيد الأوس و سعد بن عبادة أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج و هو يومئذ سيد الخزرج - و معهما عبد الله بن رواحة و خوات بن جبير فقال: انطلقوا حتى تنظروا أ حق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن

١ أحفظ الرجل: أغضبه.

٢ الطام: البحر العظيم.

٣ السحاب الذي لا ماء فيه.

٤ الذروة و الغارب أعلى الشيء و أصله مثل مأخوذ من فتل ذروة البعير المصعب و غاربه لوضع الخطام في أنفه.

كان حقا فالحنوا لنا لحننا نعرفه و لا تفتوا أعضاد الناس و إن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس.

و خرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم. قالوا: لا عقد بيننا و بين محمد و لا عهد، فشاتمهم سعد بن عبادة و شاتموه، و قال سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمهم فإن ما بيننا و بينهم أعظم من المشاتمة.

ثم أقبلوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و قالوا: عضل و القارة لغدر عضل و القارة بأصحاب رسول الله خبيب بن عدي و أصحابه أصحاب الرجيع فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، و عظم عند ذلك البلاء و اشتد الخوف و أتاهم عدوهم من فوقهم و من أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن و ظهر النفاق من بعض المنافقين.**

فأقام رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و أقام المشركون عليه بضعا و عشرين ليلة - لم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبال إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود أخو بني عامر بن لوي و عكرمة بن أبي جهل و ضرار بن الخطاب و هبيرة بن أبي وهب و نوفل بن عبد الله قد تلبسوا للقتال و خرجوا على خيولهم حتى مروا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيئوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان؟ ثم أقبلوا تعنقاً بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فقالوا: و الله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيولهم فاقترحوها فجالت بهم في السبخة بين الخندق و سلع و خرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي منها اقتحموا - و أقبلت الفرسان نحوهم.

و كان عمرو بن عبد ود فارس قريش و كان قد قاتل يوم بدر حتى ارتث و أثبته الجراح و لم يشهد أحدا - فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مشهده، و كان يعد بألف فارس و كان يسمى فارس يليل لأنه أقبل في ركب من قريش حتى إذا كانوا يليل و هو واد قريب من بدر عرضت لهم بنو بكر في عدد فقال لأصحابه: امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر حتى منعهم أن يصلوا إليه فعرف بذلك.

و كان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المذاد و كان أول من طفره عمرو و أصحابه فقيل في ذلك.

عمرو بن عبد كان أول فارس * جزع المذاد و كان فارس يليل**

و ذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبد ود كان ينادي: من يبارز؟ فقام علي و هو مقنع في الحديد فقال:

أنا له يا نبي الله، فقال: إنه عمرو اجلس. و نادى عمرو: أ لا رجل؟ و هو يؤنبهم و يقول: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟ و قام علي فقال: **أنا له يا رسول الله.** ثم نادى الثالثة فقال:

و لقد بححت عن النداء * بجمعكم هل من مبارز؟**

و وقفت إذ جبن المشجع * موقف البطل المناجز**

إن السباحة و الشجاعة في * الفتى خير الغرائز**

فقام علي فقال: **يا رسول الله أنا له، فقال: إنه عمرو، فقال: و إن كان عمرا فاستأذن رسول الله (صلى**

الله عليه وآله و سلم) فأذن له .

قال ابن إسحاق: فمشى إليه و هو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك * مجيب صوتك غير عاجز**

ذونية و بصيرة * والصدق منجي كل فائز**

إني لأرجو أن أقيم * عليك نائحة الجنائز**

من ضربة نجلاء يبقى * ذكرها عند الهزاهز**

قال له عمرو: من أنت؟ قال: **أنا علي.** قال: ابن عبد مناف؟ قال: **أنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب**

بن هاشم بن عبد مناف. فقال: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك فأني أكره أن أهريق دمك.

فقال علي: **لكني و الله ما أكره أن أهريق دمك.** فغضب عمرو و نزل و سل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو

علي مغضبا فاستقبله علي بدرقته فضربه عمرو بالدرقة ففقدها و أثبت فيها السيف و أصاب رأسه فشجه، و

ضربه علي على حبل العاتق فسقط.

وفي رواية حذيفة: وتسيف على رجله بالسيف من أسفل فوقع على قفاه وثارَت بينهما عِجاجة فسمع علي يكبر فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **قتله والذي نفسي بيده فكان أول من ابتدر العجاج عمرو بن الخطاب** وقال: يا رسول الله قتله فجز على رأسه وأقبل نحو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووجهه يتهلل.

قال حذيفة: فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **أبشريا علي فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد لرحم عملك بعملهم وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلا وقد دخله وهن بقتل عمرو، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو.**

و عن الحاكم أبي القاسم أيضا بالإسناد عن سفيان الثوري عن زبيد الثاني عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: كان يقرأ **{وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}** بعلي.

و خرج أصحابه منزهين حتى طفرت خيولهم الخندق و تبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبد العزى جوف الخندق فجعلوا يرمونه بالحجارة فقال لهم: قتلة أجمل من هذه ينزل بعضكم أقاتله فقتله الزبير بن العوام، و ذكر ابن إسحاق: أن عليا طعنة في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق.

و بعث المشركون إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبي: هو لكم لا تأكل ثمن الموتى، و ذكر علي أبياتا منها:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه * ونصرت رب محمد بصواب**

فضربته وتركته متجدلا * كالجدع بين دكادك ورواب**

و عفت عن أثوابه لو أنني * كنت المقطر بزني أثوابي**

قال ابن إسحاق: و رمى حنان بن قيس بن العرفة سعد بن معاذ بسهم و قال: خذها و أنا ابن العرفة فقطع أكله فقال سعد: عرف الله وجهك في النار اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا - فأبقي لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهد من قوم آذوا رسولك و كذبوه وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا و بينهم فاجعله لي شهادة و لا تمتني حتى تفر عيني من بني قريظة.

قال: و جاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت و لم يعلم بي أحد من قومي ففرني بأمرك فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **إنما أنت فينا**

رجل واحد نخذل عنا ما استطعت فأثما الحرب خدعة.

فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة فقال لهم: إني لكم صديق، والله ما أنتم وقريش و غطفان من محمد بمنزلة واحدة إن البلد بلدكم و به أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم و إنما قریش و غطفان بلادهم غيرها و إنما جاءوا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها و إن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم و خلوا بينكم و بين الرجل و لا طاقة لكم به فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم تستوثقون به أن لا يبرحوا حتى يناجزوا محمدا. فقالوا له: قد أشرت برأي.

ثم ذهب فأتى أبا سفيان و أشراف قریش فقال: يا معشر قریش إنكم قد عرفتم ودي إياكم و فراقى محمدا و دينه و إني قد جئتكم بنصيحة فاكتموا علي. فقالوا: نفعل ما أنت عندنا بمتهم. قال: تعلمون أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم و بين محمد فبعثوا إليه أنه لا يرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم و ندفعهم إليك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك. فقال: بلى فإن بعثوا إليكم يسألونك نفرا من رجالكم فلا تعطوهم رجلا واحدا و احذروا.

ثم جاء غطفان و قال: يا معشر غطفان إني رجل منكم، ثم قال لهم ما قال لقریش.

فلما أصبح أبو سفيان و ذلك يوم السبت في شوال سنة خمس من الهجرة بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قریش أن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر اليهود إن الكراع و انخف قد هلكا و إنا لسنا بدار مقام فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه.

فبعثوا إليه أن اليوم السبت و هو يوم لا نعمل فيه شيئا و لسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا و تدعونا حتى نناجز محمدا.

فقال أبو سفيان: و الله لقد حذرنا هذا نعيم فبعث إليهم أبو سفيان: أنا لا نعطيكم رجلا واحدا فإن شئتم أن تخرجوا و تقاتلوا و إن شئتم فاقعدوا، فقالت اليهود: هذا و الله الذي قال لنا نعيم. فبعثوا إليهم أنا و الله لا نقاتل حتى تعطونا رهنا، و خذل الله بينهم و بعث سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين.

قال محمد بن كعب قال حذيفة بن اليمان و الله لقد رأيتنا يوم الخندق و بنا من الجهد و الجوع و الخوف ما لا يعلمه إلا الله و قام رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يصلي ما شاء الله من الليل ثم قال: **ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنة.** قال حذيفة: فوالله ما قام منا أحد مما بنا من الخوف و الجهد و الجوع، فلما لم يقم أحد دعاني فلم أجد بدا من إجابته. قلت: لبيك قال: اذهب نجياً بخبر القوم و لا تحدثن شيئاً حتى ترجع.

قال: و أتيت القوم فإذا ريح الله و جنوده تفعل بهم ما تفعل ما يستمسك لهم بناء و لا تثبت لهم نار و لا يطمئن لهم قدر فإني لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله ثم قال: يا معشر قريش لينظر أحدكم من جلسه؟ قال حذيفة: فبدأت بالذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان.

ثم عاد أبو سفيان براحلته فقال: يا معشر قريش و الله ما أنتم بدار مقام هلك الخلف و الحافر و أخلفتنا بنو قريظة و هذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء ثم عجل فركب راحلته و إنها لمعقولة ما حل عقالها إلا بعد ما ركبها.

قال: قلت في نفسي: لو رميت عدو الله و قتلته كنت قد صنعت شيئاً فوترت قوسي - ثم وضعت السهم في كبد القوس و أنا أريد أن أرميه فأقتله فذكرت قول رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) لا تحدثن شيئاً حتى ترجع. قال فحطت القوس ثم رجعت إلى رسول الله و هو يصلي فلما سمع حسي فرج بين رجله فدخلت تحته، و أرسل على طائفة من مرطاة افرقع و سجد ثم قال: ما الخبر؟ فأخبرته.

و عن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) حين أجلى عنه الأحزاب: **الآن نغزوهم و لا يغزوننا فكان كما قال فلم يغزهم قريش بعد ذلك و كان هو يغزوهم حتى فتح الله عليهم مكة.**

أقول: هذا ما أورده الطبرسي في مجمع البيان، من القصة أوردها ملخصاً و روى القمي في تفسيره، قريباً منه و أورده في الدر المنثور، في روايات متفرقة.

و في المجمع، أيضاً روى الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال:

لما انصرف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الخندق ووضع عنه الأمانة واغتسل واستحم تبدي له جبريل فقال: عذيرك من محارب ألا أراك أن قد وضعت عنك الأمانة وما وضعناها بعد.

فوثب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فزعا فعزم على الناس أن لا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس واختصم الناس فقال بعضهم: إن رسول الله عزم علينا أن لا نصلي حتى نأتي قريظة فإنما نحن في عزمة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فليس علينا إثم، وصلى طائفة من الناس احتسابا وتركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس فصلوها حين جاءوا بني قريظة احتسابا فلم يعنف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واحدا من الفريقين.

وذكر عروة أنه بعث علي بن أبي طالب على المقدم ودفع إليه اللواء وأمره أن ينطلق حتى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل وخرج رسول الله على آثارهم فمر على مجلس من الأنصار في بني غنم ينتظرون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فزعموا أنه قال: مر بكم الفارس أنفا فقالوا: مر بنا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج - فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ليس ذلك بدحية ولكنه جبرائيل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب.

قالوا: و سار علي حتى إذا دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرجع حتى لقي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالطريق فقال: يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث قال: **أظنك سمعت لي منهم أذى؟** فقال: نعم يا رسول الله فقال: **لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا، فلها دنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من حصونهم قال: يا إخوة القردة والخنازير! هل أنزاكم الله وأنزل بكم نعمته؟** فقالوا: يا أبا لقاسم ما كنت جهولا.

وحاصرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نحسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت قريش و غطفان فلها أيقنوا أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلا لا ثلاثا نخذوا أيها شئتم قالوا: ما هن؟

قال: نبايع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دماءكم وأموالكم ونساءكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيت علي هذا فهلوا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد رجلاً مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمننا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً يهمننا وإن ظهر لنجدن النساء والأبناء. فقالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير في العيش بعدهم.

قال: فإن أبيت علي هذه فإن الليلة ليلة السبت وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنوا فيها فانزلوا فلعلنا نصيب منهم غرة. فقالوا: نفسد سبتنا؟ ونحدث فيه ما أحدث من كان قبلنا فأصابهم ما قد علمت من المسخ؟ فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

قال الزهري: وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين سأله أن يحكم فيهم رجلاً: اختاروا من شئتم من أصحابي، فاخترنا سعد بن معاذ فرضي بذلك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بسلاحهم فجعل في قبته وأمر بهم فكتفوا وأوثقوا وجعلوا في دار أسامة، وبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى سعد بن معاذ فجاء به فحكم فيهم بأن يقتل مقاتلوهم وتسبى ذراريهم ونسأؤهم وتغنم أموالهم وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال للأنصار: إنكم ذو عقار وليس للمهاجرين عقار، فكبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل، وفي بعض الروايات: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة وأرقعة جمع رقيق اسم سماء الدنيا.

فقتل رسول الله مقاتليهم، وكانوا فيما زعموا: ستمائة مقاتل، وقيل: قتل منهم أربعمائة وخمسين رجلاً وسبى سبعمائة وخمسين، وروي أنهم قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إرسالا: يا كعب ما ترى يصنع بنا؟ فقال كعب: أفي كل موطن تقولون؟ ألا ترون أن الداعي لا ينزع ومن يذهب منكم لا يرجع هو والله القتل.

و أتى يحيى بن أخطب عدو الله عليه حلة فاخيتية قد شقها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة لئلا يسلبها مجموعة يدها إلى عنقه بحبل، فلما بصر برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: أما والله ما لمت نفسي على عداوتك و لكنه من يخذل الله يخذل ثم قال: يا أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب الله و قدرة ملحمة كتبت على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه.

ثم قسم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نساءهم و أبناءهم و أموالهم على المسلمين و بعث بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصاري فابتاع بهم خيلا و سلاحا، قالوا: فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فرجعه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد.

و روي عن جابر بن عبد الله قال: جاء جبرائيل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: **من هذا العبد الصالح الذي مات فتحت له أبواب السماء و تحرك له العرش فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فإذا سعد بن معاذ قد قبض.**

أقول: و روى القصة القمي في تفسيره، مفصلة و فيه: فأخرج كعب بن أسيد مجموعة يدها إلى عنقه فلما نظر إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال له: يا كعب أ ما نفعك وصية ابن الحواس الحبر الذكي الذي قدم عليكم من الشام فقال: تركت الخمر و الخمير و جئت إلى البئوس و التور لنبي يبعث مخرجه بمكة و مهاجرته في هذه البحيرة يجتزي بالكسيرات و التميرات، و يركب الحمار العربي، في عينيه حمرة، و بين كتفيه خاتم النبوة، يضع سيفه على عاتقه، لا يبالي من لاقى منكم، يبلغ سلطانه منقطع الخف و الحافر فقال قد كان ذلك يا محمد و لو لا أن اليهود يعيرونني أني جزعت عند القتل لآمنت بك و صدقتك و لكني على دين اليهود عليه أحيا و عليه أموت. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): قدموه و اضربوا عنقه فضربت.

و فيه أيضا: فقتلهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في البردين بالغداة و العشي في ثلاثة أيام و كان يقول: اسقوهم العذب و أطعموهم الطيب و أحسنوا أسارهم حتى قتلهم كلهم فأنزل الله عز و جل فيهم: **{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ؛}** إلى قوله **{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا.}**

و في المجمع: روى أبو القاسم الحسكاني عن عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن علي (عليه السلام) قال: **فينا نزلت {رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} فَأَنَا وَاللَّهُ الْمُنْتَظَرُ مَا بَدَلت تَبْدِيلًا.**

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣٥]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرَدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ
أَسْرَحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَ إِن كُنْتُمْ تُرَدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الَّتِي أَخْرَجَ فِيهَا اللَّهُ أَعَدَّ
لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴿٢٩﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ
لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴿٣٠﴾ وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ
صَالِحاً نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ
إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴿٣٢﴾ وَ قَرْنَ فِي
بُيُوتِكُنَّ وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَ أَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَ آتِينَ الزَّكَاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً ﴿٣٣﴾ وَ أَذْكَرْنَ مَا يُتْلَى فِي
بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ
الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْقَانِتِينَ

وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِئِينَ وَالصَّابِئَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

(بيان)

آيات راجعة إلى أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تأمره أولاً: أن ينبئن أن ليس هن من الدنيا
وزينتها إلا العفاف والكفاف إن اخترن زوجية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ثم تخاطبن ثانياً: أنهن
واقفات في موقف صعب على ما فيه من العلو والشرف فإن اتقين الله يؤتبن أجرهن مرتين وإن أتبن بفاحشة
مبينة يضاعف هن العذاب ضعفين ويأمرهن بالعفة ولزوم بيوتهن من غير تبرج والصلاة والزكاة وذكر ما
يتلى في بيوتهن من الآيات والحكمة ثم يعد مطلق الصالحين من الرجال والنساء وعدا بالمغفرة والأجر
العظيم.

قوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُمْ }** إلى تمام الآيتين، سياق الآيتين يلوح أن أزواج النبي أو بعضهن
كانت لا ترتضي ما في عيشتهم في بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الضيق والظنك فاشتكت إليه
ذلك واقترحت عليه أن يسعدهن في الحياة بالتوسعة فيها وإيتائهن من زينتها.

فأمر الله سبحانه نبيه أن يخبرهن بين أن يفارقه وهن ما يردن وبين أن يبقى عنده وهن ما هن
عليه من الوضع الموجود.

وقد ردد أمرهن بين أن يردن الحياة الدنيا وزينتها وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة، و
هذا التردد يدل أولاً: أن الجمع بين سعة العيش وصفائها بالتمتع من الحياة وزينتها وزوجية النبي (صلى الله
عليه وآله وسلم) والعيشة في بيته مما لا يجتمعان.

وثانيا: أن كلا من طرفي التردد مقيد بما يقابل الآخر، والمراد بإرادة الحياة الدنيا وزينتها جعلها هي الأصل سواء أريدت الآخرة أو لم يرد، والمراد بإرادة الحياة الآخرة جعلها هي الأصل في تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياة الدنيا ونيلت الزينة و صفاء العيش أو لم يكن شيء من ذلك.

ثم الجزء أعني نتيجة اختيارهن كلا من طرفي التردد مختلف فلهن على تقدير اختيارهن الحياة الدنيا وزينتها بمفارقة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يطلقهن و يتمتعن جمعاء من مال الدنيا، و على تقدير بقائهن على زوجية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و اختيار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقاً بل بشرط الإحسان و العمل الصالح.

و يتبين بذلك أن ليس لزوجة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من حيث هي زوجية كرامة عند الله سبحانه وإنما الكرامة لزوجيته المقارنة للإحسان و التقوى و لذلك لما ذكر ثانيا علو منزلتهن قيده أيضا بالتقوى فقال: **{لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ}** و هذا كقوله في النبي و أصحابه: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا}** إلى أن قال **{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا}** حيث مدحهم عامة بظواهر أعمالهم أولا ثم قيد وعدهم الأجر العظيم بالإيمان و العمل الصالح.

و بالجملة فإطلاق قوله: **{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ}**: الحجرات: ١٠ على حاله غير منتقض بكرامة أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلك.

فقوله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ}** أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يبلغ الآيتين أزواجه و لازمه أن يطلقهن و يتمتعن إن اخترن الشق الأول و يبقين على زوجيته إن اخترن الله و رسوله و الدار الآخرة.

و قوله: **{إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا}** إرادة الحياة الدنيا و زينتها كناية بقرينة المقابلة عن اختيارها و تعلق القلب بتمتعها و الإقبال عليها و الإعراض عن الآخرة.

و قوله: **{فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعُنَّ وَأُسَرِّحُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}** قال في الكشاف: أصل تعال أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطاً ثم كثرت حتى استوت في

استعماله الأمكنة، و معنى تعالين أقبلن بإرادتك و اختياركن لأحد أمرين و لم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول: أقبل يخاصمني و ذهب يكلمني و قام يهددني. انتهى.

و التمتع إعطاؤهن عند التطليق مالا يتمتعن به و التسريح هو التطليق و السراح الجميل هو الطلاق من غير خصومة و مشاجرة بين الزوجين.

و في الآية أبحاث فقهية أوردتها المفسرون و الحق أن ما تضمنه من الأحكام الشخصية خاصة بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و لا دليل من جهة لفظها على شموله لغيره و تفصيل القول في الفقه.

و قوله: **{وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ}** فقد تقدم أن المقابلة بين هذه الجملة و بين قوله: **{إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا}** إلخ، تفيد كلا منهما بخلاف الأخرى و عدمها، فعنى الجملة: و إن كنتن تردن و تخترن طاعة الله و رسوله و سعادة الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش و الحرمان من زينة الحياة الدنيا و هي مع ذلك كفاية عن البقاء في زوجية النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و الصبر على ضيق العيش و إلا لم يصح اشتراك الإحسان في الأجر الموعود و هو ظاهر.

فالمعنى: و إن كنتن تردن و تخترن البقاء على زوجية النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و الصبر على ضيق العيش فإن. الله هياً لكن أجراً عظيماً بشرط أن تكن محسنات في أعمالكن مضافاً إلى إرادتك الله و رسوله و الدار الآخرة فإن لم تكن محسنات لم يكن لكن إلا خسران الدنيا و الآخرة جميعاً.

قوله تعالى: **{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}** إلخ، عدل عن مخاطبة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فيهن إلى مخاطبتن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف و زيادة التوكيد، و الآية و التي بعدها تقرير و توضيح بنحو لما يستفاد من قوله: **{فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا}** إثباتاً و نفيًا.

فقوله: **{مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ}** الفاحشة الفعلة البالغة في الشناعة و القبح و هي الكبيرة كإيذاء النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و الاقتراء و الغيبة و غير ذلك، و الميمنة هي الظاهرة.

و قوله: **{يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}** أي حال كونه ضعفين و الضعفان المثلان

و يؤيد هذا المعنى قوله في جانب الثواب بعد: **{نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ}** فلا يعبأ بما قيل إن المراد بمضاعفة العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثة أمثاله بتقريب أن مضاعفة العذاب زيادته وإذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثة أمثاله.

و ختم الآية بقوله: **{وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}** للإشارة إلى أنه لا مانع من ذلك من كرامة الزوجية و نحوها إذ لا كرامة إلا للتقوى و زوجية النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى و أما مع المعصية فلا تزيد إلا بعدا و وبالآ.

قوله تعالى: **{وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ}** إلخ، القنوت الخضوع، و قيل: الطاعة و قيل: لزوم الطاعة مع الخضوع، و الاعتاد التهيئة، و الرزق الكريم مصداقه الجنة.

و المعنى: و من يخضع منكن لله و رسوله أو لزم طاعة الله و رسوله مع الخضوع و يعمل عملا صالحا نعطاها أجرها مرتين أي ضعفين و هيأنا لها رزقا كريما و هي الجنة.

و الالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله: **{نُؤْتِيهَا}** و **{أَعْتَدْنَا}** للإيدان بالقرب و الكرامة، خلاف البعد و الخزي المفهوم من قوله: **{يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}**.

قوله تعالى: **{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}** إلخ، الآية تنفي مساواتهن لسائر النساء إن اتقين و ترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهي و الأمر متفرعة على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله: **{فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}** **{وَقَرْنَ}** **{وَلَا تَبَرَّجْنَ}** إلخ، و هي خصال مشتركة بين نساء النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و سائر النساء.

فتصدير الكلام بقوله: **{لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ}** ثم تفريع هذه التكاليف المشتركة عليه، يفيد تأكد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل: لستن كغيركن فيجب عليكن أن تبالغن في امتثال هذه التكاليف و تحتطن في دين الله أكثر من سائر النساء.

و تؤيد بل تدل على تأكد تكاليفهن مضاعفة جزائهن خيرا و شرا كما دلت عليها الآية السابقة فإن مضاعفة الجزاء لا تنفك عن تأكد التكليف.

و قوله: **{فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}** بعد ما بين علو

منزلتهن و رفعة قدرهن لمكانهن من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و شرط في ذلك التقوى فبين أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نهان عن الخضوع في القول و هو ترقيق الكلام و تليينه مع الرجال بحيث يدعو إلى الريبة و ثير الشهوة فيطمع الذي في قلبه مرض و هو فقدان قوة الإيمان التي تردعه عن الميل إلى الفحشاء.

و قوله: **{وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا}** أي كلاما معمولا مستقيما يعرفه الشرع و العرف الإسلامي و هو القول الذي لا يشير بلحنه إلى أزيد من مدلوله معرى عن الإيماء إلى فساد و ريبة.

قوله تعالى: **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}** إلى قوله **{وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}** «قرن» من قريقر إذا ثبت و أصله اقرن حذف إحدى الرائين أو من قاريقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهن في بيوتهن و لزومهن لها، و التبرج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها. و الجاهلية الأولى الجاهلية قبل البعثة فالمراد الجاهلية القديمة، و قول بعضهم: إن المراد به زمان ما بين آدم و نوح (عليه السلام) ثمان مائة سنة، و قول آخرين إنها ما بين إدريس و نوح، و قول آخرين زمان داود و سليمان و قول آخرين إنه زمان ولادة إبراهيم، و قول آخرين إنه زمان الفترة بين عيسى (عليه السلام) و محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أقوال لا دليل يدل عليها.

و قوله: **{وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}** أمر بامثال الأوامر الدينية و قد أفرد الصلاة و الزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين في العبادات و المعاملات ثم جمع الجميع في قوله: **{وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}**.

و طاعة الله هي امثال تكاليفه الشرعية و طاعة رسوله فيما يأمر به و ينهى بالولاية المجعولة له من عند الله كما قال: **{الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}**.

قوله تعالى: **{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}** كلمة **{إِنَّمَا}** تدل على حصر الإرادة في إذهاب الرجس و التطهير و كلمة أهل البيت سواء كان مجرد الاختصاص أو مدحا أو نداء يدل على اختصاص إذهاب الرجس و التطهير بالمخاطبين بقوله: **{عَنْكُمْ}**، ففي الآية في الحقيقة قصران قصر الإرادة في إذهاب الرجس و التطهير و قصر إذهاب الرجس و التطهير في أهل البيت.

و ليس المراد بأهل البيت نساء النبي خاصة لمكان الخطاب الذي في قوله: **{عَنْكُمْ}** و لم يقل: عنكن فأما أن يكون الخطاب لهن و لغيرهن كما قيل: إن المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام و هم المتقون لقوله تعالى: **{إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ}** أو أهل مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) أو أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و هم الذين يصدق عليهم عرفاً أهل بيته من أزواجه و أقربائه و هم آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل علي أو النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و أزواجه، و لعل هذا هو المراد مما نسب إلى عكرمة و عروة أنها في أزواج النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) خاصة.

أو يكون الخطاب لغيرهن كما قيل: إنهم أقرباء النبي من آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل علي. و على أي حال فالمراد بإذهاب الرجس و التطهير مجرد التقوى الديني بالاجتناب عن النواهي و امتثال الأوامر فيكون المعنى أن الله لا ينتفع بتوجيه هذه التكليف إليكم وإنما يريد إذهاب الرجس عنكم و تطهيركم على حد قوله: **{مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ}**: المائة: ٦ و هذا المعنى لا يلائم شيئاً من معاني أهل البيت السابقة لمنافاته البينة للاختصاص المفهوم من أهل البيت لعمومه لعامة المسلمين المكلفين بأحكام الدين.

و إن كان المراد بإذهاب الرجس و التطهير التقوى الشديد البالغ و يكون المعنى: أن هذا التشديد في التكليف المتوجهة إليكن أزواج النبي و تضعيف الثواب و العقاب ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس و يطهركم و يكون من تعميم الخطاب لهن و لغيرهن بعد تخصيصه بهن، فهذا المعنى لا يلائم كون الخطاب خاصاً بغيرهن و هو ظاهر و لا عموم الخطاب لهن و لغيرهن فإن الغير لا يشاركهن في تشديد التكليف و تضعيف الثواب و العقاب.

لا يقال: لم لا يجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجهاً إليهن مع النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و تكليفه شديد كتكليفهن.

لأنه يقال: إنه (صلى الله عليه وآله و سلم) مؤيد بعصمة من الله و هي موهبة إلهية غير مكتسبة بالعمل فلا معنى لجعل تشديد التكليف و تضعيف الجزاء بالنسبة إليه مقدمة أو سبباً لحصول

التقوى الشديد له امتنانا عليه على ما يعطيه سياق الآية و لذلك لم يصرح بكون الخطاب متوجها إليهن مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقط أحد من المفسرين وإنما احتملناه لتصحيح قول من قال: إن الآية خاصة بأزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وإن كان المراد إذهاب الرجس و التطهير بإرادته تعالى ذلك مطلقا لا بتوجيه مطلق التكليف و لا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادة مطلقة لإذهاب الرجس و التطهير لأهل البيت خاصة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافيا لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة التشريعية أو التكوينية.

و بهذا الذي تقدم يتأيد ما ورد في أسباب النزول أن الآية نزلت في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و علي و فاطمة و الحسنين (عليه السلام) خاصة لا يشاركونهم فيها غيرهم.

و هي روايات جملة تزيد على سبعين حديثا يروى ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة و عائشة و أبي سعيد الخدري و سعد و وائلة بن الأسقع و أبي الحمراء و ابن عباس و ثوبان مولى النبي و عبد الله بن جعفر و علي و الحسن بن علي (عليه السلام) في قريب من أربعين طريقا.

و روتها الشيعة عن علي و السجاد و الباقر و الصادق و الرضا (عليه السلام) و أم سلمة و أبي ذر و أبي ليل و أبي الأسود الدؤلي و عمرو بن ميمون الأودي و سعد بن أبي وقاص في بضع و ثلاثين طريقا.

فإن قيل: إن الروايات إنما تدل على شمول الآية لعلي و فاطمة و الحسنين (عليه السلام) و لا ينافي ذلك شمولها لأزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما يفيد وقوع الآية في سياق خطابهم.

قلنا: إن كثيرا من هذه الروايات و خاصة ما رويت عن أم سلمة و في بيتها نزلت الآية تصرح باختصاصها بهم و عدم شمولها لأزواج النبي و سيجيء الروايات و فيها الصحاح.

فإن قيل: هذا مدفوع بنص الكتاب على شمولها لمن كوقوع الآية في سياق خطابهم.

قلنا: إنما الشأن كل الشأن في اتصال الآية بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصة في نزول الآية وحدها، و لم يرد حتى في رواية واحدة نزول هذه الآية في ضمن آيات نساء النبي و لا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآية بأزواج

النبي كما ينسب إلى عكرمة و عروة، فالآية لم تكن بحسب النزول جزءا من آيات نساء النبي و لا متصلة بها وإنما وضعت بينها إما بأمر من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو عند التأليف بعد الرحلة، ويؤيده أن آية **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}** على انسجامها و اتصالها لو قدر ارتفاع آية التطهير من بين جملها، فوقع آية التطهير من آية **{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}** كموقع آية **{الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا}** من آية محرمات الأكل من سورة المائدة، و قد تقدم الكلام في ذلك في الجزء الخامس من الكتاب.

و بالبناء على ما تقدم تصوير لفظة أهل البيت اسما خاصا في عرف القرآن بهؤلاء الخمسة و هم النبي و علي و فاطمة و الحسنان (عليه السلام) لا يطلق على غيرهم، و لو كان من أقربائه الأقربين و إن صح بحسب العرف العام إطلاقه عليهم.

و الرجس بالكسر فالسكون صفة من الرجاسة و هي القذارة، و القذارة هيئة في الشيء توجب التجنب و التنفر منها، و تكون بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير، قال تعالى: **{أَوْ لَحْمِ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ}**: الأنعام: ١٤٥ و بحسب باطنه و هو الرجاسة و القذارة المعنوية كالشرك و الكفر و أثر العمل السيئ، قال تعالى: **{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ}**: التوبة: ١٢٥ و قال: **{وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}**: الأنعام: ١٢٥.

و أيا ما كان فهو إدراك نفساني و أثر شعوري من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيئ و إذهاب الرجس و اللام فيه للجنس إزالة كل هيئة خبيثة في النفس تخطئ حق الاعتقاد و العمل فتنتطبق على العصمة الإلهية التي هي صورة علمية نفسانية تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد و سيئ العمل.

على أنك عرفت أن إرادة التقوى أو التشديد في التكاليف لا تلائم اختصاص الخطاب في الآية بأهل البيت، و عرفت أيضا أن إرادة ذلك لا تناسب مقام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من العصمة.

فمن المتعين حمل إذهاب الرجس في الآية على العصمة و يكون المراد بالتطهير في قوله: **{وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيرًا}** و قد أكد بالمصدر إزالة أثر الرجس بإيراد ما يقابله

بعد إذهاب أصله، و من المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد والعمل، ويكون المراد بالإرادة أيضا غير الإرادة التشريعية لما عرفت أن الإرادة التشريعية التي هي توجيه التكليف إلى المكلف لا تلائم المقام أصلا.

و المعنى: أن الله سبحانه تستمر إرادته أن يخصصكم بموهبة العصمة بإذهاب الاعتقاد الباطل و أثر العمل السيئ عنكم أهل البيت و إيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم و هي العصمة.

قوله تعالى: **{وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}** ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد و التشديد الذي في الآيات فيكون بمنزلة الوصية بعد الوصية بامثال ما وجه إليهن من التكليف، و في قوله **{فِي بُيُوتِكُنَّ}** تأكيد آخر.

و المعنى: و احفظن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله و الحكمة و ليكن منكن في بال حتى لا تغفلن و لا تتخطين مما خط لكم من المسير.

و أما قول بعضهم: إن المراد و اشكرن الله إذ صيركن في بيوت يتلى فيهن القرآن و السنة فبعيد من السياق و خاصة بالنظر إلى قوله في ذيل الآية: **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا}**.

قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}** إلخ، الإسلام لا يفرق بين الرجال و النساء في التلبس بكرامة الدين و قد أشار سبحانه إلى ذلك إجمالا في مثل قوله: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}**: الحجرات: ١٣ ثم صرح به في مثل قوله: **{أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ}**: آل عمران: ١٩٥ ثم صرح به تفصيلا في هذه الآية.

فقوله: **{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}** المقابلة بين الإسلام و الإيمان تفيد مغايرتهما نوعا من المغايرة و الذي يستفاد منه نحو مغايرتهما قوله تعالى: **{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنَّ قَوْلُوا اسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}**

إلى أن قال **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}**: الحجرات: ١٥ يفيد أولاً أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل و ظاهر الجوارح والإيمان أمر قلبي. وثانياً: أن الإيمان الذي هو أمر قلبي اعتقاد وإذعان باطني بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح.

فالإسلام هو التسليم العملي للدين بإتيان عامة التكليف و المسلمون و المسلمات هم المسلمون لذلك و الإيمان هو عقد القلب على الدين، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح و المؤمنون و المؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم و لا عكس.

و قوله: **{وَالْقَائِتِينَ وَالْقَائِتَاتِ}** القنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع و قوله: **{وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ}** الصادق مطابقة ما يخبر به الإنسان أو يظهره، للواقع. فهم صادقون في دعواهم صادقون في قولهم صادقون في وعدهم.

و قوله: **{وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ}** فهم متلبسون بالصبر عند المصيبة و النائبة و بالصبر على الطاعة و بالصبر عن المعصية، و قوله: **{وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ}** الخشوع تذلل باطني بالقلب كما أن الخضوع تذلل ظاهري بالجوارح.

و قوله: **{وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ}** و الصدقة إنفاق المال في سبيل الله و منه الزكاة الواجبة، و قوله: **{وَالصَّامِينَ وَالصَّامِيَاتِ}** بالصوم الواجب و المندوب، و قوله: **{وَالخَافِضِينَ فُرُوجَهُمْ وَالخَافِضَاتِ}** أي لفروجهن و ذلك بالتجنب عن غير ما أحل الله لهم، و قوله: **{وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ}** أي الله كثيراً حذف لظهوره و هم الذين يكثرون من ذكر الله بلسانهم و جنانهم و يشمل الصلاة و الحج.

و قوله: **{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِماً}** التنكير للتعظيم.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ}** كان سبب نزولها أنه لما رجع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من غزوة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق قلن أزواجه أعطنا ما أصبت فقال لهن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قسمته بين المسلمين على ما أمر الله عز و جل

فغضبن من ذلك، و قلن: لعلك ترى أنك إن طلقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا؟

فأنف الله عز و جل لرسوله فأمره أن يعزلهن فاعتزلهن رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) في مشربة أم إبراهيم تسعة و عشرين يوماً حتى حضن و طهرن ثم أنزل الله عز و جل هذه الآية و هي آية التخيير فقال: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ}** إلى قوله **{أَجْرًا عَظِيمًا}** فقامت أم سلمة أول من قامت فقالت: قد اخترت الله و رسوله فقمي كلهن فعانقنه و قلن مثل ذلك الحديث.

أقول: و روي ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنة و فيها أن أول من اختارت الله و رسوله منهن عائشة.

و في الكافي بإسناده عن داود بن سرحان عن أبي عبد الله (عليه السلام): أن زينب بنت جحش قالت: يرى رسول الله إن خلى سبيلنا أن لا نجد زوجا غيره و قد كان اعتزل نساء تسعة و عشرين ليلة فلما قالت زينب الذي قالت بعث الله جبرائيل إلى محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) فقال: **{قُلْ لِأَزْوَاجِكَ}** الآيتين كتبتهما فقلن: بل نختار الله و رسوله و الدار الآخرة.

و فيه بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته عن رجل خير امرأته فاخترت نفسها بانت؟ قال: لا. إنما هذا شيء كان لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) خاصة أمر بذلك ففعل، و لو اخترن أنفسهن لطلقهن و هو قول الله عز و جل: **{قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}**.

و في المجمع روى الواحدي بالإسناد عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) جالسا مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها: هل لك أن أجعل بيني و بينك رجلا؟ قالت: نعم.

فأرسل إلى عمر فلما أن دخل عليهما قال لها: تكلمي، فقالت: يا رسول الله تكلم و لا تقل إلا حقا فرفع عمر يده فوجأ وجهها ثم رفع يده فوجأ وجهها.

فقال له النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): كف فقال عمر: يا عدوة الله النبي لا يقول إلا حقا و الذي بعثه بالحق، لو لا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتني فقام النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فصعد

إلى غرفة فمكث فيها شهرا لا يقرب شيئا من نسائه يتغدى و يتعشى فيها فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

وفي الخصال عن الصادق (عليه السلام) قال: تزوج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بخمس عشرة امرأة و دخل بثلاث عشر امرأة منهن، و قبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بهما فعمرة و سنا. و أما الثلاث عشرة اللاتي دخل بهن فأولهن خديجة بنت خويلد ثم سودة بنت زمعة ثم أم سلمة و اسمها هند بنت أبي أمية ثم أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر ثم حفصة بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة بن الحارث أم المساكين، ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيب رملة بنت أبي سفيان ثم ميمونة بنت الحارث ثم زينب بنت عميس ثم جويرية بنت الحارث ثم صفية بنت حيي بن أخطب و التي وهبت نفسها للنبي خولة بنت حكيم السلمي .

و كان له سريتان يقسم لهما مع أزواجه مارية القبطية و ريحانة الخندفية.

و التسع اللاتي قبض عنهن عائشة و حفصة و أم سلمة و زينب بنت جحش و ميمونة بنت الحارث و أم حبيب بنت أبي سفيان و جويرية و سودة و صفية. و أفضلهن خديجة بنت خويلد ثم أم سلمة ثم ميمونة.

و في الجمع: في قوله: **{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَاْتِ مِنْكُنَّ}** الآيتين: روى محمد بن أبي عمير عن إبراهيم بن عبد الحميد عن علي بن عبد الله بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين (عليه السلام): أنه قال رجل إنكم أهل بيت مغفور لكم. قال: فغضب و قال: نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله في أزواج النبي من أن نكون كما تقول إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر و لمسيئنا ضعفين من العذاب.

و في تفسير القمي مسندا عن أبي عبد الله عن أبيه (عليه السلام): في هذه الآية **{وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}** قال: أي ستكون جاهلية أخرى.

أقول: و هو استفادة لطيفة.

و في الدر المنثور أخرج الطبراني عن أم سلمة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لفاطمة: اثبني بزوجك و ابنه فجاءت بهم فألقى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهم كساء فديكا ثم وضع يده عليهم ثم قال: اللهم إن هؤلاء أهل محمد و في لفظ آل محمد فاجعل صلواتك

و بركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي و قال: إنك على خير.
أقول: و رواه في غاية المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن أم سلمة.

و فيه أخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي **{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}** و في البيت سبعة جبريل و ميكائيل و علي و فاطمة و الحسن و الحسين و أنا على باب البيت.

قلت: يا رسول الله أ لست من أهل البيت؟ قال: **إنك على خير إنك من أزواج النبي.**

و فيه أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن أم سلمة زوج النبي: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) كان بيته على منامة له عليه كساء خيري فجاءت فاطمة بيرمة فيها خزيرة فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **ادعي زوجك و ابنك حسنا و حسينا فدعتهم فينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.**

فأخذ النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بفضلة إزاره فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء و أوما بها إلى السماء ثم قال: **اللهم هؤلاء أهل بيتي و خاصتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا، قالها ثلاث مرات.**

قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي في الستر فقلت: يا رسول الله و أنا معكم؟ فقال: إنك إلى خير مرتين.
أقول: و روى الحديث في غاية المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن أم سلمة و كذا عن تفسير الثعلبي.

و فيه أخرج ابن مردويه و الخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: كان يوم أم سلمة أم المؤمنين فنزل جبريل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) بهذه الآية **{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}** قال: فدعا رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) بحسن و حسين و فاطمة و علي فضمهم إليه و نشر عليهم الثوب، و الحجاب على أم سلمة مضروب، ثم

قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا، قالت أم سلمة: فأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك وإنك على خير.

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **نزلت هذه الآية في خمسة في وفي علي وفاطمة وحسن وحسين {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.**

أقول: ورواه أيضا في غاية المرام عن الثعلبي في تفسيره.

وفيه أخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت: في بيتي نزلت: **{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ}** وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بكساء كان عليه ثم قال: **هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا.**

وفي غاية المرام عن الحميدي قال: الرابع والستون من المتفق عليه من الصحيحين عن البخاري ومسلم من مسند عائشة عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبة عن عائشة قالت: خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: **{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.**

أقول: والحديث مروى عنها بطرق مختلفة.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما دخل علي بفاطمة جاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أربعين صباحا إلى بابها يقول: **السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته الصلاة رحمة الله {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم.**

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: شهدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول: **السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.**

أقول: ورواه أيضا عن الطبراني عن أبي الحمراء ولفظه: رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

يأتي باب علي و فاطمة ستة أشهر فيقول: **{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ}** (الآية). وأيضا عن ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء ولفظه: حفظت من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلا أتى إلى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال: **الصلاة الصلاة {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ}** (الآية).

ورواه أيضا عن ابن أبي شيبعة وأحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس ولفظه: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: **الصلاة يا أهل البيت الصلاة {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}**.

أقول: و الروايات في هذه المعاني من طرق أهل السنة كثيرة و كذا من طرق الشيعة، و من أراد الاطلاع عليها فليراجع غاية المرام للبحراني و العباقي.

و في غاية المرام عن الحموي بإسناده عن يزيد بن حيان قال: دخلنا على زيد بن أرقم فقال: خطبنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: **ألا إني تركت فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله عز وجل من اتبعه كان على هدى و من تركه كان على ضلالة، ثم أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاث مرات .**

قلنا: من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا أهل بيته عصبته الذين حرموا الصدقة بعده آل علي و آل عباس و آل جعفر و آل عقيل.

و فيه أيضا عن مسلم في صحيحة بإسناده عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **إني تارك فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى و من تركه كان على ضلالة، قلنا: من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا أيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أهلها و قومها. أهل بيته أصله و عصبته الذين حرموا الصدقة بعده.**

أقول: فسر البيت بالنسب كما يطلق عرفا على هذا المعنى، يقال: بيوتات العرب بمعنى الأنساب، لكن الروايات السابقة عن أم سلمة و غيرها تدفع هذا المعنى و تفسر أهل البيت بعلي و فاطمة و ابنيهما (عليه السلام).

و في الجمع قال مقاتل بن حيان: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع

زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا.

فأتت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة و خسار، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): **و مم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} إنلخ.**

أقول: وفي روايات أخر أن القائلة هي أم سلمة.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَا مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾}

(بيان)

الآيات أعني قوله: **{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ} إلى قوله {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}** في قصة تزوج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بزوج مولاه زيد الذي كان قد اتخذه ابنا، ولا يبعد أن تكون الآية الأولى أعني قوله: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ}** (الآية)، مرتبطة بالآيات التالية كالتوطئة لها.

قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}** إنح، يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع إلى أعمال العباد أو تصرفه في شأن من شئونهم بواسطة رسول من رسله، وقضاء رسوله هو الثاني من القسمين وهو التصرف في شأن من شئون الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له بمثل قوله: **{الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}**.

فقضاؤه (صلى الله عليه وآله وسلم) قضاء منه بولايته وقضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره، ويشهد سياق قوله: **{إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا}** حيث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء الله ورسوله معا، على أن المراد بالقضاء التصرف في شئون الناس دون الجعل التشريعي المختص بالله.

وقوله: **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ}** أي ما صح ولا يحق لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاءوا وقوله: **{إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا}** ظرف لنفي الاختيار. وضميرا الجمع في قوله: **{لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}** للمؤمن والمؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين والمؤمنات لوقوعهما في حيز النفي ووضع الظاهر موضع المضمرة حيث قيل: **{مِنْ أَمْرِهِمْ}** ولم يقل: أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشا توهم الخيرة وهو انتساب الأمر إليهم.

والمعنى: ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله ورسوله بالتصرف في

أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه إليهم و كونه أمرا من أمورهم فيختاروا منه غير ما قضى الله و رسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله و رسوله.

و الآية عامة لكنها لوقوعها في سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجيء من قوله: **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ}** (الآية)، حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بزوج زيد و تعبيره بأنها كانت زوج ابنه المدعوله بالتبني و سيجيء في البحث الروائي بعض ما يتعلق بالمقام.

قوله تعالى: **{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ}** إلى آخر الآية المراد بهذا الذي أنعم الله عليه و أنعم النبي عليه زيد بن حارثة الذي كان عبدا للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ثم حرره و اتخذه ابنا له و كان تحته زينب بنت جحش بنت عممة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أتى زيد النبي فاستشاره في طلاق زينب فهناه النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) عن الطلاق ثم طلقها زيد فتزوجها النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و نزلت الآيات.

فقوله: **{أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ}** أي بالهداية إلى الإيمان و تحييه إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و قوله: **{وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}** أي بالإحسان إليه و تحريره و تخصيصه بنفسك، و قوله: **{أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ}** كناية عن الكف عن تطليقها، و لا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها.

و قوله: **{وَ تَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}** أي مظهره **{وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}** ذيل الآيات أعني قوله: **{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}** دليل على أن خشيته (صلى الله عليه وآله و سلم) الناس لم تكن خشية على نفسه بل كان خشية في الله فأخفى في نفسه ما أخفاه استشعارا منه أنه لو أظهره عابه الناس و طعن فيه بعض من في قلبه مرض فأثر ذلك أثرا سيئا في إيمان العامة، و هذا الخوف كما ترى ليس خوفا مذموما بل خوف في الله هو في الحقيقة خوف من الله سبحانه.

و قوله: **{وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}** الظاهر في نوع من العتاب ردع عن نوع من خشية الله و هي خشيته عن طريق الناس و هداية إلى نوع آخر من خشيته تعالى و أنه كان من الحري أن يخشى الله دون الناس و لا يخفي ما في نفسه ما الله مبيده و هذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتزوج زوج زيد الذي كان تبناه

ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين في التزوج بأزواج الأديعاء وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يخفيه في نفسه إلى حين مخافة سوء أثره في الناس فأمنه الله ذلك بعبابه عليه نظير ما تقدم في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}** إلى قوله **{وَأَلَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ}** (الآية).

فظاهر العتاب الذي يلوح من قوله: **{وَتَخَشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}** مسوق لانتصاره وتأيد أمره قبال طعن الطاعنين ممن في قلوبهم مرض نظير ما تقدم في قوله: **{عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ}**: التوبة: ٤٣.

ومن الدليل على أنه انتصار وتأيد في صورة العتاب قوله بعد: **{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا}** حيث أخبر عن تزويجه إياها كأنه أمر خارج عن إرادة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واختياره ثم قوله: **{وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}**.

فقوله: **{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا}** متفرع على ما تقدم من قوله: **{وَ تَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}** وقضاء الوطر منها كناية عن الدخول والتمتع، وقوله: **{لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا}** تعليل للتزويج ومصلحة للحكم، وقوله: **{وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}** مشير إلى تحقق الوقوع وتأكيده للحكم.

ومن ذلك يظهر أن الذي كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يخفيه في نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواها وحبه الشديد لها وهي بعد مزوجة كما ذكره جمع من المفسرين واعتدروا عنه بأنها حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فإن فيه أولا: منع أن يكون بحيث لا يقوى عليه التربية الإلهية، وثانيا: أنه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانها وإخفائه في نفسه فلا مجوز في الإسلام لذكر حلائل الناس والتشبيب بهن.

قوله تعالى: **{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرْجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ}** إلخ، الفرض هو التعيين والاسهام يقال: فرض له كذا أي عينه له وأسهمه به، وقيل: هو في المقام بمعنى الإباحة والتجويز، والحرج الكلفة والضيق، والمراد بنفي الحرج نفي سببه وهو المنع عما فرض له.

والمعنى: ما كان على النبي من منع فيما عين الله له أو أباح الله له حتى يكون عليه حرج في ذلك.

وقوله: **{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ}** اسم موضوع موضع المصدر فيكون مفعولا مطلقا و التقدير سن الله ذلك سنة، والمراد بالذين خلوا من قبل هم الأنبياء و الرسل الماضون بقريئة قوله بعد: **{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ}** إلخ.

وقوله: **{وَوَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا}** أي يقدر من عنده لكل أحد ما يلائم حاله و يناسبها، و الأنبياء لم يمنعوا مما قدره الله و أباحه لغيرهم حتى يمنع النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من بعض ما قدر و أبيض. قوله تعالى: **{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}** إلخ، الموصول بيان للموصول المتقدم أعني قوله: **{الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ}**.

والخشية هي تأثر خاص للقلب عن المكروه و ربما ينسب إلى السبب الذي يتوقع منه المكروه، يقال: خشيت أن يفعل بي فلان كذا أو خشيت فلانا أن يفعل بي كذا، و الأنبياء يخشون الله و لا يخشون أحدا غيره لأنه لا مؤثر في الوجود عندهم إلا الله.

و هذا غير الخوف الذي هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الاتقاء عملا سواء كان معه تأثر قلبي أو لا فإنه أمر عملي ربما ينسب إلى الأنبياء كقوله تعالى حكاية عن موسى (عليه السلام): **{فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ}**: الشعراء: ٢١ و قوله في النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): **{وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً}**: الأنفال: ٥٨ و هذا هو الأصل في معنى الخوف و الخشية و ربما استعملا كالمترادفين.

و مما تقدم يظهر أن الخشية منفية عن الأنبياء (عليه السلام) مطلقا و إن كان سياق قوله: **{يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ}** إلخ، يلوح إلى أن المنفي هو الخشية في تبليغ الرسالة. على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية في أمر التبليغ مستوعبة لجميع أعمالهم.

وقوله: **{وَوَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}** أي محاسبا يحاسب على الصغيرة و الكبيرة فيجب أن يخشى و لا يخشى غيره.

قوله تعالى: **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ}** إلخ، لا شك في أن الآية مسوقة لدفع اعتراضهم على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بأنه تزوج زوج ابنة و محصل الدفع أنه ليس أبا زيد و لا أبا أحد من الرجال الموجودين في زمن الخطاب حتى يكون

تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا بزوج ابنه فالخطاب في قوله: **{مِنْ رِجَالِكُمْ}** للناس الموجودين في زمن نزول الآية، والمراد بالرجال ما يقابل النساء والولدان ونفي الأبوة نفي تكويني لا تشريعي ولا يتضمن الجملة شيئا من التشريع.

والمعنى: ليس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا منه بزوج ابنه و زيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطبيقه ليس تزوجا بزوج الابن حقيقة وأما تبنيه زيدا فإنه لا يترتب عليه شيء من آثار الأبوة والبنوة وما جعل أدياءكم أبناءكم.

وأما القاسم والطيب والطاهر وإبراهيم فإنهم أبناءه حقيقة لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالا حتى ينتقض الآية وكذا الحسن والحسين وهما ابنا رسول الله فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبض قبل أن يبلغا حد الرجال.

ومما تقدم ظهر أن الآية لا تقتضي نفي أبوته (صلى الله عليه وآله وسلم) للقاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذا للحسين لما عرفت أنها خاصة بالرجال الموجودين في زمن النزول على نعت الرجولية.

وقوله: **{وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}** الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع والقالب بمعنى ما يطبع به وما يقبل به والمراد بكونه خاتم النبيين أن النبوة اختتمت به (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا نبي بعده. وقد عرفت فيما مر معنى الرسالة والنبوة وأن الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله إلى الناس والنبي هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين وحقائقه ولازم ذلك أن يرتفع الرسالة بارتفاع النبوة فإن الرسالة من أنباء الغيب، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة.

ومن هنا يظهر أن كونه (صلى الله عليه وآله وسلم) خاتم النبيين يستلزم كونه خاتما للرسول.

وفي الآية إيماء إلى أن ارتباطه (صلى الله عليه وآله وسلم) وتعلقه بكم تعلق الرسالة والنبوة وأن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه.

وقوله: **{وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}** أي ما بينه لكم إنما كان بعلمه.

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسبا و كانت امرأة فيها حدة فأنزل الله **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ}** (الآية) كلها.

أقول: وفي معناها روايات أخر.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط و كانت أول امرأة هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالت إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده فنزلت.

أقول: و الروايتان أشبه بالتطبيق منهما بسبب النزول.

وفي العيون: في باب مجلس الرضا (عليه السلام) عند المأمون مع أصحاب الملل في حديث يجب فيه عن مسألة علي بن الجهم في عصمة الأنبياء.

قال: وأما محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) و قول الله عز و جل: **{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}** فإن الله عز و جل عرف نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أسماء أزواجه في دار الدنيا و أسماء أزواجه في الآخرة و أنهن أمهات المؤمنين و أحد من سمي له زينب بنت جحش و هي يومئذ تحت زيد بن حارثة فأخفى (صلى الله عليه وآله وسلم) اسمها في نفسه و لم يیده لكيلا يقول أحد من المنافقين: أنه قال في امرأة في بيت رجل: إنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنين و خشي قول المنافقين .

قال الله عز و جل: **{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}** يعني في نفسك (الحديث).

أقول: و روي ما يقرب منه فيه عنه (عليه السلام) في جواب مسألة المأمون عنه في عصمة الأنبياء.

وفي الجمع في قوله تعالى: **{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}** قيل: إن الذي أخفاه في نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه و أن زيدا سيطلقها فلما جاء زيد و قال له: أريد أن أطلق زينب قال له: أمسك عليك زوجك، فقال

سبحانه: لم قلت: أمسك عليك زوجك و قد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ و روي ذلك عن علي بن الحسين (عليه السلام).

و في الدر المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخاري و الترمذي و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فجعل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يقول: اتق الله و أمسك عليك زوجك فنزلت: **{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}**.

قال أنس: فلو كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) كاتما شيئاً لكتّم هذه الآية، فتزوجها رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) (الحديث).

أقول: و الروايات كثيرة في المقام و إن كان كثير منها لا يخلو من شيء و في الروايات: ما أولم رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) على امرأة من نسائه ما أولم على زينب ذبح شاة و أطعم الناس الخبز و اللحم، و في الروايات أنها كانت تفتخر على سائر نساء النبي بثلاث أن جدها و جد النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) واحد فإنها كانت بنت أميمة بنت عبد المطلب عممة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و أن الذي زوجها منه هو الله سبحانه و أن السفير جبريل.

و في المجمع في قوله تعالى: **{وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ}**: و صح- الحديث عن جابر بن عبد الله عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قال: **إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكلها و حسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها و نظر إليها فقال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة.** قال (صلى الله عليه وآله و سلم): فأنا **موضع اللبنة ختم بي الأنبياء:** أورده البخاري و مسلم في صحيحهما.

أقول: و روى هذا المعنى غيرهما كالترمذي و النسائي و أحمد و ابن مردويه عن غير جابر كأبي سعيد و أبي هريرة.

و في الدر المنثور أخرج ابن الأنباري في المصاحف عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: كنت أقرئ الحسن و الحسين فربي علي بن أبي طالب و أنا أقرئهما فقال لي: أقرئهما و خاتم النبيين بفتح التاء.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٤١ الى ٤٨]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾}

(بيان)

آيات تدعو المؤمنين إلى الذكر والتسبيح و تبشرهم و تعدهم الوعد الجميل و تخاطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بصفاته الكريمة و تأمره أن يبشر المؤمنين و لا يطيع الكافرين و المنافقين، و يمكن أن يكون القبيلان مختلفين في النزول زمانا.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} الذكر ما يقابل النسيان و هو توجيه الإدراك نحو المذكور و أما التلطف بما يدل عليه من أسمائه و صفاته فهو بعض مصاديق الذكر.

قوله تعالى: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} التسبيح هو التنزيه و هو مثل الذكر لا يتوقف على اللفظ و إن كان التلطف بمثل سبحان الله بعض مصاديق التسبيح.

و البكرة أول النهار و الأصيل آخره بعد العصر و تقييد التسبيح بالبكرة و الأصيل

لما فيهما من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه وتنزيهه من التغير والتحول و كل نقص طار، ويمكن أن يكون البكرة و الأصيل معا كناية عن الدوام كالليل و النهار في قوله: **{يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ}**: حم السجدة: ٣٨.

قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}** المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب إليه و لذلك قيل: إن الصلاة من الله الرحمة و من الملائكة الاستغفار و من الناس الدعاء لكن الذي نسب من الصلاة إلى الله سبحانه في القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصة بالمؤمنين و هي التي تترتب عليها سعادة العقبي و الفلاح المؤبد و لذلك علل تصليته عليهم بقوله: **{لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}**.

و قد رتب سبحانه في كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم و على ذكرهم له ذكره لهم فقال: **{نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ}**: التوبة: ٦٧ و قال: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}**: البقرة: ١٥٢ و تصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمة فإن ذكروه كثيرا و سبحوه بكرة و أصيلا صلى عليهم كثيرا و غشيهم بالنور و أبعدهم من الظلمات.

و من هنا يظهر أن قوله: **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ}** إلخ، في مقام التعليل لقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا}** و تفيد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيرا ذكرتم برحمته كثيرا و بالغ في إخراجكم من الظلمات إلى النور و يستفاد منه أن الظلمات إنما هي ظلمات النسيان و الغفلة و النور نور الذكر.

و قوله: **{وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}** وضع الظاهر موضع المضمرة، أعني قوله: **{بِالْمُؤْمِنِينَ}** و لم يقل: و كان بكم رحيمًا، ليدل به على سبب الرحمة و هو وصف الإيمان.

قوله تعالى: **{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا}** ظاهر السياق أن **{تَحِيَّتُهُمْ}** مصدر مضاف إلى المفعول أي إنهم يحيون - بالبناء للمفعول - يوم يلقون ربهم من عند ربهم و من ملائكته بالسلم أي إنهم يوم اللقاء في أمن و سلام لا يصيبهم مكروه و لا يمسه عذاب.

و قوله: **{وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا}** أي و هيأ الله لهم ثوابا جزيلا.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا}** شهادته (صلى الله عليه وآله و سلم)

على الأعمال أن يتحملها في هذه النشأة و يؤديها يوم القيامة و قد تقدم في قوله: **{لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}**: البقرة: ١١٢ و غيره من آيات الشهادة أنه (صلى الله عليه وآله و سلم) شهيد الشهداء.

و كونه مبشرا و نذيرا تبشيره المؤمنين المطيعين لله و رسوله بثواب الله و الجنة و إنذاره الكافرين و العاصين بعذاب الله و النار.

قوله تعالى: **{وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجًا مُنِيرًا}** دعوته إلى الله هي دعوته الناس إلى الإيمان بالله وحده، و لازمه الإيمان بدين الله و تقيد الدعوة بإذن الله يجعلها مساوقة للبعثة.

و كونه (صلى الله عليه وآله و سلم) سراجا منيرا هو كونه بحيث يهتدي به الناس إلى سعادتهم و ينجون من ظلمات الشقاء و الضلالة فهو من الاستعارة، و قول بعضهم: إن المراد بالسراج المنير القرآن و التقدير ذا سراج منير تكلف من غير موجب.

قوله تعالى: **{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا}**، الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممن يأخذه و قد وصف الله عطاءه فقال: **{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}**: الأنعام: ١٦٠ و قال: **{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}**: ق: ٣٥ فبين أنه يعطي من الثواب ما لا يقابل العمل و هو الفضل و لا دليل في الآية يدل على اختصاصه بالآخرة.

قوله تعالى: **{وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعَا أَذَاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}** إنح، تقدم معنى طاعة الكافرين و المنافقين في أول السورة.

و قوله: **{وَدَعَا أَذَاهُمْ}** أي اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به و الدليل على هذا المعنى قوله: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}** أي لا تستقل بنفسك في دفع أذاهم بل اجعل الله وكيلا في ذلك و كفى بالله وكيلا.

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **ما من شيء إلا**

وله حد ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حد ينتهي إليه فرض الله عز وجل الفرائض فمن أداهن فهو حدهن وشهر رمضان فمن صامه فهو حده والحج فمن حج فهو حده إلا الذكر فإن الله عز وجل لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حدا ينتهي إليه ثم تلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} فقال: لم يجعل الله له حدا ينتهي إليه.

قال: وكان أبي كثير الذكر لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله و آكل معه الطعام وإنه ليذكر الله و لقد كان يحدث القوم ما يشغله ذلك عن ذكر الله و كنت أرى لسانا لازقا بحنكه يقول: لا إله إلا الله.

و كان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا و من كان لا يقرأ منا أمره بالذكر، و البيت الذي يقرأ فيه القرآن و يذكر الله عز وجل فيه يكثر بركته و يحضره الملائكة و يهجره الشياطين و يضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب لأهل الأرض و البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن و لا يذكر الله يقل بركته و يهجره الملائكة و يحضره الشياطين.

و قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أ لا أخبركم بخير أعمالكم أرفعها في درجاتكم و أزكاها عند مليكم و خير لكم من الدينار و الدرهم و خير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم و يقتلوكم؟ فقالوا: بلى. قال: ذكر الله عز وجل كثيرا.

ثم قال: جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال: أكثرهم لله ذكرا.

و قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من أعطي لسانا ذاكرا فلقد أعطي خير الدنيا و الآخرة.

و قال في قوله تعالى: {وَلَا تَمُنُّنَّ تَسْتَكْبِرُ} قال: لا تستكثر ما عملت من خير الله.

و فيه بإسناده عن أبي المعزى رفعه قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): من ذكر الله في السر فقد ذكر الله كثيرا إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية و لا يذكرونه في السر فقال الله عز وجل: {يُرَاؤُنَ النَّاسَ وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا}.

أقول: و هو استفادة لطيفة.

و في الخصال عن زيد الشحام قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): ما ابتلي المؤمن

بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يجرهما. قيل: وما هي؟ قال: المواساة في ذات يده، و الإنصاف من نفسه، و ذكر الله كثيرا. أما إني لا أقول: سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر و إن كان منه و لكن ذكر الله عند ما أحل له و ذكر الله عند ما حرم عليه.

و في الدر المنثور أخرج أحمد و الترمذي و البيهقي عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيرا. قلت: يا رسول الله و من الغازي في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار و المشركين حتى ينكسر و يختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل درجة منه.

و في العلل بإسناده عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده الحسن بن علي (عليه السلام) قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فسأله أعلمهم فيما سأله فقال: لأي شيء سميت محمدا و أحمد و أبا القاسم و بشيرا و نذيرا و داعيا؟ فقال (صلى الله عليه وآله و سلم): أما الداعي فإني أدعو الناس إلى دين ربي عز و جل، و أما النذير فإني أنذر بالنار من عصائي، و أما البشير فإني أبشر بالجنة من أطاعني (الحديث).

و في تفسير القمي: في قوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ} إلى قوله {وَدَعُ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} أنها نزلت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٩ الى ٦٢]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ بَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَ بَنَاتِ خَالِكَ وَ بَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا

خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿٥٠﴾ تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى
إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَايَتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا
يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ
لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ
إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ
لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا
سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ
أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً ﴿٥٣﴾
إِنْ تُبَدُّوا شَيْئاً أَوْ يُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا
أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيداً ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

(بيان)

تتضمن الآيات أحكاماً متفرقة بعضها خاصة بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و أزواجه و بعضها عامة.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} المراد بنكاحهن العقد عليهن بالنكاح، و بالمس الدخول، و بالتمتع إعطاؤهن شيئاً من المال يناسب شأنهن و حالهن و التسريح بالجميل لإطلاقهن من غير خصومة و خشونة.

و المعنى: إذا طلقتم النساء بعد النكاح و قبل الدخول فلا عدة لهن للطلاق و يجب

تمتعهن بشيء من المال و السراح الجميل.

و الآية مطلقة تشمل ما إذا فرض لهن فريضة المهر و ما إذا لم يفرض فيقيدها قوله: **{وَأِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ}**: البقرة: ٢٣٧ و تبقى حجة فيما لم يفرض لهن فريضة.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}** إلى آخر الآية، يذكر سبحانه لنبية (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإحلال سبعة أصناف من النساء: الصنف الأول ما في قوله: **{أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}** و المراد بالأجور المهور، و الثاني ما في قوله: **{وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ}** أي من يملكه من الإماء الراجعة إليه من الغنائم و الأنفال، و تقييد ملك اليمين بكونه مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله: **{اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}** للتوضيح لا للاحتراز.

و الثالث و الرابع ما في قوله: **{وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ}** قيل: يعني نساء قریش، و الخامس و السادس ما في قوله: **{وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ}** قيل: يعني نساء بني زهرة، و قوله: **{اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ}** قال في المجمع: هذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل.

و السابع ما في قوله: **{وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا}** و هي المرأة المسلمة التي بذلت نفسها للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمعنى أن ترضى أن يتزوج بها من غير صداق و مهر فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها، و قوله: **{خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}** إيذان بأن هذا الحكم أي حلية المرأة للرجل ببذل النفس من خصائصه لا يجري في المؤمنين، و قوله بعده: **{قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}** تقرير لحكم الاختصاص.

و قوله: **{لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ}** تعليل لقوله في صدر الآية: **{إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ}** أو لما في ذيلها من حكم الاختصاص و الأول أظهر و قد ختمت الآية بالمغفرة و الرحمة.

قوله تعالى: **{تُرْجَى مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ}** إلخ، الإرجاء التأخير و التباعد، و هو كناية عن الرد، و الإيواء: الإسكان في المكان و هو كناية عن القبول و الضم إليه.

و السياق يدل على أن المراد به أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) على خيرة من قبول من وهبت نفسها له أو رده.

وقوله: **{وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ}**، الابتغاء هو الطلب أي ومن طلبتها من اللاتي عزلتها ولم تقبلها فلا إثم عليك ولا لؤم أي يجوز لك أن تضم إليك من عزلتها ورددتها من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لك بعد العزل والرد.

ويمكن أن يكون إشارة إلى أن له (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقسم بين نسائه وأن يترك القسم فيؤخر من يشاء منهن ويقدم من يشاء ويعزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل وهو أوفق لقوله بعده: **{وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَذْنِي}** أي أقرب **{أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُنَّ}** أي يسرن **{وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}** وذلك لسرور المتقدمة بما قسمت له ورجاء المتأخرة أن تتقدم بعد.

وقوله: **{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا}** أي يعلم مصالح عباده ولا يعاجل في العقوبة.

وفي الآية أقوال مختلفة أخر والذي أوردناه هو الأوفق لوقوعها في سياق سابقها متصلة بها وبه وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت (عليه السلام) كما سيجيء.

قوله تعالى: **{لَا يَجُلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}** إنح، ظاهر الآية لو فرضت مستقلة في نفسها غير متصلة بما قبلها تحريم النساء له (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا من خيرهن فاخترن الله ونفي جواز التبديل بهن يؤيد ذلك.

لكن لو فرضت متصلة بما قبلها وهو قوله: **{إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ}** إنح، كان مدلولها تحريم ما عدا المعدودات وهي الأصناف الستة التي تقدمت.

وفي بعض الروايات عن بعض أئمة أهل البيت (عليه السلام) أن المراد بالآية محرمات النساء المعدودة في قوله: **{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ}** (الآية): النساء: ٢٣.

فقوله: **{لَا يَجُلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ}** أي من بعد اللاتي اخترن الله ورسوله وهي التسعة على المعنى الأول أو من بعد من عددناه في قولنا: **{إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ}** على المعنى الثاني أو من بعد المحللات وهي المحرمات على المعنى الثالث.

وقوله: **{وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}** أي أن تطلق بعضهن وتزوج مكانها

من غيرهن، وقوله: **{إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ}** يعني الإمام وهو استثناء من قوله في صدر الآية **{لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ}**.

وقوله: **{وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا}** معناه ظاهر وفيه تحذير عن المخالفة.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ}** - إلى قوله - **{مِنَ الْحَقِّ}** بيان لأدب الدخول في بيوت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقوله: **{إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ}** استثناء من النهي، وقوله: **{إِلَىٰ طَعَامٍ}** متعلق بالإذن، وقوله: **{غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاءً}** أي غير منتظرين لورود إناء الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطيلوا المكث في انتظار الطعام وبيئته قوله: **{وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ}** - أي أكلتم - **{فَانْتَشِرُوا}**، وقوله: **{وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ}** عطف على قوله: **{غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاءً}** وهو حال بعد حال، أي غير ما كثر في حال انتظار الإناء قبل الطعام ولا في حال الاستئناس لحديث بعد الطعام.

وقوله: **{إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ}** تعليل للنهي أي لا تمكثوا كذلك لأن مكثكم ذلك كان يتأذى منه النبي فيستحيي منكم أن يسألكم الخروج وقوله: **{وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}** أي من بيان الحق لكم وهو ذكر تأذيه والتأديب بالأدب اللائق.

قوله تعالى: **{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}**، ضمير **{سَأَلْتُمُوهُنَّ}** لأزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسؤالهن متاعا كناية عن تكليمهن لحاجة أي إذا مست الحاجة إلى تكليمكم أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فكلوهن من وراء حجاب، وقوله: **{ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}** بيان لمصلحة الحكم.

قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا}** إنلخ، أي ليس لكم إيذاؤه بمخالفة ما أمرتم في نسائه وفي غير ذلك وليس لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم أي نكاحكم أزواجه من بعده كان عند الله عظيما، وفي الآية إشعار بأن بعضهم ذكر ما يشير إلى نكاحهم أزواجه بعده وهو كذلك كما سيأتي في البحث الروائي الآتي.

قوله تعالى: **{إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}** معناه ظاهر و هو في الحقيقة تنبيه تهديدي لمن كان يؤذي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو يذكر نكاح أزواجه من بعده.

قوله تعالى: **{لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ}** إلى آخر الآية ضمير **{عَلَيْهِنَّ}** لنساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، و الآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب و قد استثنى الآباء و الأبناء و الإخوان و أبناء الإخوان و أبناء الأخوات و هؤلاء محارم، قيل: و لم يذكر الأعمام و الأخوال لأنهم من الممكن أن يصفوهم لأبنائهم.

و استثنى أيضا نساءهن و إضافة النساء إلى ضميرهن يلوح إلى أن المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كما مر في قوله تعالى: **{أَوْ ذِي سَابِقِ إِهْتِنَانٍ}** النور: ٣١ و استثنى أيضا ما ملكت أيمنهن من العبيد و الإماء.

و قوله: **{وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً}** فيه تأكيد الحكم و خاصة من جهة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في **{أَتَقِينَ اللَّهَ}**.

قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}** قد تقدم أن أصل الصلاة الانعطاف فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافا مطلقا لم يقيد في الآية بشيء دون شيء و كذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتركية و الاستغفار و هي من المؤمنين الدعاء بالرحمة. و في ذكر صلته تعالى و صلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أن في صلاة المؤمنين له اتباعا لله سبحانه و ملائكته و تأكيدا للنهي الآتي.

و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنة أن طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالى أن يصلي عليه و آله.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً}** من المعلوم أن الله سبحانه منزه من أن يناله الأذى و كل ما فيه وصمة النقص و الهوان فذكره مع الرسول و تشريكه في إيدائه تشريف للرسول و إشارة إلى أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضا بالسوء إذ ليس للرسول بما أنه رسول إلا ربه فن قصد ربه. فقد قصد ربه.

وقد أوعدهم باللعن في الدنيا والآخرة واللعن هو الإبعاد من الرحمة والرحمة الخاصة بالمؤمنين هي الهداية إلى الاعتقاد الحق وحقيقة الإيمان، ويتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمة في الدنيا تحريمه عليه جزاء لعمله فيرجع إلى طبع القلوب كما قال: **{لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}**: المائدة: ١٣ و قال: **{وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}**: النساء: ٤٦ و قال: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ}**: سورة محمد: ٢٣.

و أما اللعن في الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب فيها و قد قال تعالى: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}**: المطففين: ١٥.

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم أي في الآخرة عذابا مهينا و وصف العذاب بالمهين لأنهم يقصدون باستكبارهم في الدنيا إهانة الله و رسوله فقبلوا في الآخرة بعذاب يهينهم.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}** تنبيذ إيذائهم بغير ما اكتسبوا لأن إيذائهم بما اكتسبوا كما في القصاص و الحد و التعزير لا إثم فيه.

و أما إيذاؤهم بغير ما اكتسبوا و من دون استحقاق فيعده سبحانه احتمالا للبهتان و الإثم المبين، و البهتان هو الكذب على الغير يواجهه به، و وجه كون الإيذاء من غير اكتساب بهتاناً أن المؤذي إنما يؤذي لسبب عنده يعده جرما له يقول: لم قال كذا؟ لم فعل كذا؟ و ليس بجرم فيبيته عند الإيذاء بنسبة الجرم إليه مواجهة و ليس بجرم.

و كونه إثما مبينا لأن الافتراء و البهتان مما يدرك العقل كونه إثما من غير حاجة إلى ورود النهي عنهما شرعا.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ}** إنح، الجلابيب جمع جلباب و هو ثوب تشتمل به المرأة فيغطي جميع بدنها أو الخمار الذي تغطي به رأسها و وجهها.

و قوله: **{يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ}** أي يتسترن بها فلا تظهر جيوبهن و صدورهن للناظرين.

و قوله: **{ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ}** أي ستر جميع البدن أقرب إلى أن

يعرفن أنهم أهل الستر و الصلاح فلا يؤذین أي لا يؤذین أهل الفسق بالتعرض لهم.

وقيل: المعنى ذلك أقرب من أن يعرفن أنهم مسلمات حرائر فلا يتعرض لهم بحسبان أنهم إماء أو من غير المسلمات من الكآيات أو غيرهن و الأول أقرب.

قوله تعالى: **{لَيْنٌ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ}** إنح، الانتهاء عن الشيء الامتناع و الكف عنه، و الإرجاف إشاعة الباطل للاغتمام به و إلقاء الاضطراب بسببه، و الإغراء بالفعل التحريض عليه.

و المعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون و الذين في قلوبهم مرض عن الإفساد و الذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنحرضنك عليهم ثم يجاورونك في المدينة بسبب نفيم عنها إلا زمانا قليلا و هو ما بين صدور الأمر و فعلية إجرائه.

قوله تعالى: **{مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا}** الثقف إدراك الشيء و الظفر به، و الجملة حال من المنافقين و من عطف عليهم أي حال كونهم ملعونين أيما وجدوا أخذوا و بولغ في قتلهم فعمهم القتل.

قوله تعالى: **{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}** السنة هي الطريقة المعمولة التي تجري بطبعها غالبا أو دائما.

يقول سبحانه هذا النكال الذي أوعدنا به المنافقين و من يحذو حذوهم من النفي و القتل الذريع هي سنة الله التي جرت في الماضين فكلها بالغ قوم في الإفساد و إلقاء الاضطراب بين الناس و تبادوا و طغوا في ذلك أخذناهم كذلك و لن تجد لسنة الله تبديلا فتجري فيكم كما جرت في الأمم من قبلكم.

(بحث روائي)

في الفقيه روى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز و جل: **{ثُمَّ طَلَفْتُمُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُمْ وَسَرَّحُوهُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا}** قال: متعوهن أي أجموهن بما قدرتم عليه من معروف

فإنهن يرجعن بكآبة ووحشة وهم عظيم و شماتة من أعدائهن فإن الله كريم يستحيي و يحب أهل الحياء
إن أكرمكم أشدكم إكراما لحلالهم.

وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام): **في رجل طلق امرأته قبل أن يدخل بها.**
قال: عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئا وإن لم يكن فرض لها فليمتعها على نحو ما يمتع به مثلها من النساء.
أقول: و الروايات في هذا المعنى كثيرة و هي مبنية على تخصيص الآية بآية البقرة كما تقدم في تفسير الآية.
وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن حبيب بن ثابت قال: جاء رجل إلى علي بن الحسين فسأله عن
رجل قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق قال: **ليس بشيء بدأ الله بالنكاح قبل الطلاق فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**
إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ}.

أقول: و رواه في المجمع عن حبيب بن ثابت عنه (عليه السلام).

و فيه أخرج ابن ماجة و ابن مردويه عن المسور بن مخرمة عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قال: **لا**
طلاق قبل نكاح و لا عتق قبل ملك.

أقول: و روي مثله عن جابر و عائشة عنه (صلى الله عليه وآله و سلم).

وفي الكافي بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر (عليه السلام) و بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله
(عليه السلام): في قول الله عز و جل: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ} كم أحل له من النساء؟ قال: ما شاء**
من شيء.

و فيه بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت: **{لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ**
تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}؟ فقال: **لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) أن ينكح ما شاء من بنات عمه و بنات**
عماته و بنات خاله و بنات خالاته و أزواجه اللاتي هاجرن معه .

و أحل له أن ينكح من عرض المؤمنين بغير مهر و هي الهبة و لا تحل الهبة إلا لرسول الله (صلى الله عليه
وآله و سلم) فأما لغير رسول الله فلا يصلح نكاح إلا بمهر و ذلك معنى قوله تعالى: **{وَأَمْرًا مُمِئَةً إِنَّ وَهَبْتَ نَفْسَهَا**
لِلنَّبِيِّ}.

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد و ابن أبي شيبه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الطبراني عن
علي بن الحسين: في قوله: **{وَأَمْرًا مُمِئَةً} هي أم شريك الأزدية التي وهبت نفسها للنبي (صلى الله عليه وآله و**
سلم) .

أقول: وروي أنها خولة بنت الحكيم و أنها ليلي بنت الخطيم و أنها ميمونة، و الظاهر أن الواهبة نفسها عدة من النساء.

و في الكافي مسندا عن محمد بن قيس عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت: يا رسول الله إن المرأة لا تختب الزوج و أنا امرأة أيم لا زوج لي منذ دهر و لا ولد فهل لك من حاجة؟ فإن تك فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني. فقال لها رسول الله خيرا و دعا لها.

ثم قال: يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيرا فقد نصرني رجالكم و رغبت في نساؤكم. فقالت لها حفصة: ما أقل حياءك و أجراك و أنهمك للرجال. فقال رسول الله: كفي عنها يا حفصة فإنها خير منك رغبت في رسول الله و ملتها و عبتها.

ثم قال للمرأة: انصرفي رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك في و تعرضك لمحبي و سروري و سيأتيك أمري إن شاء الله، فأنزل الله عز و جل **{وَأَمْرًا مُمِينَةً إِنَّ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}** قال: فأحل الله عز و جل هبة المرأة نفسها للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و لا يحل ذلك لغيره.

و في الجمع و قيل: إنها لما وهبت نفسها للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قالت عائشة: ما بال النساء يبذلن أنفسهن بلا مهر؟ فنزلت الآية، فقالت عائشة: ما أرى الله إلا يسارع في هواك، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **فإنك إن أطعت الله سارع في هواك.**

و في الجمع في قوله تعالى: **{تُرْجَى مَنِ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَ تُرْوَى إِلَيْكَ مَنِ تَشَاءُ}** قال أبو جعفر و أبو عبد الله (عليه السلام): **من أرجى لم ينكح و من آوى فقد نكح.**

و في الكافي بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر (عليه السلام): في قول الله عز و جل: **{لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ}** فقال: **إنما عني به لا يحل لك النساء التي حرم الله عليك في هذه الآية {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خَالَاتُكُمْ}** إلى آخرها.

و لو كان الأمر كما يقولون كان قد أحل لكم ما لم يحل له لأن أحدكم يستبدل كلما أراد و لكن الأمر ليس كما يقولون إن الله عز و جل أحل لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن ينكح من النساء ما أراد إلا ما حرم في هذه الآية في سورة النساء.

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق علي بن زيد عن الحسن:
في قوله: **{وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}** قال: قصره الله على نسائه التسع اللاتي مات عنهن.

قال علي فأخبرت علي بن الحسين فقال: **لو شاء تزوج غيرهن.** و لفظ عبد بن حميد فقال: بل كان له
أيضا أن يتزوج غيرهن.

و في تفسير القمي: و أما قوله عز و جل **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ}**
فإنه لما أن تزوج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بزینب بنت جحش و كان يحبها فأولم و دعا أصحابه
فكان أصحابه إذا أكلوا يحبون أن يتحدثوا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، و كان يحب أن يخلو
مع زینب فأنزل الله عز و جل. **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ}** و ذلك أنهم
كانوا يدخلون بلا إذن فقال عز و جل: **{إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ}** إلى قوله **{مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}**.

أقول: و روي تفصيل القصة عن أنس بطرق مختلفة.

و في الدر المنثور أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان قال: نزل حجاب رسول الله على نسائه في ذي
القعدة سنة خمس من الهجرة.

أقول: و رواها أيضا ابن سعد عن أنس و فيه: أن السنة كانت مبتنى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و
سلم) بزینب.

و فيه في قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا}** (الآية): أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: بلغنا أن
طلحة بن عبيد الله قال: أ يحبنا محمد عن بنات عمنا و يتزوج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن
نساءه من بعده فنزلت الآية.

أقول: و قد وردت بذلك عدة من الروايات و في بعضها أنه كان يريد عائشة و أم سلمة.

و في ثواب الأعمال عن أبي المعزى عن أبي الحسن (عليه السلام) في حديث قال: قلت: **ما معنى**
صلاة الله و صلاة ملائكته و صلاة المؤمن؟ قال: صلاة الله رحمة من الله، و صلاة الملائكة تزكية منهم له، و
صلاة المؤمنين دعاء منهم له.

و في الخصال عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث الأربعمئة قال: **صلوا على محمد**

و آل محمد فإن الله تعالى يقبل دعاءكم عند ذكر محمد و دعاءكم و حفظكم إياه إذا قرأتم **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** فصلوا عليه في الصلاة كنتم أو في غيرها.

و في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق و ابن أبي شيبة و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و ابن مردويه عن كعب بن عجرة قال: قال رجل: **يا رسول الله أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: قل: اللهم صل على محمد و على آل محمد كما صليت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد و على آل محمد كما باركت على إبراهيم و آل إبراهيم إنك حميد مجيد.**

أقول: و قد أورد ثمانى عشرة حديثا غير هذه الرواية تدل على تشريك آل النبي معه في الصلاة روتها أصحاب السنن و الجوامع عن عدة من الصحابة منهم ابن عباس و طلحة و أبو سعيد الخدري و أبو هريرة و أبو مسعود الأنصاري و بريدة و ابن مسعود و كعب بن عجرة و علي (عليه السلام) و أما روايات الشيعة فهي فوق حد الإحصاء.

و فيه أخرج أحمد و الترمذي عن الحسن بن علي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) قال: **البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي.**

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ وَ بَنَاتِكُمْ وَ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ}** فإنه كان سبب نزولها أن النساء كن يخرجن إلى المسجد و يصلين خلف رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فإذا كان الليل و خرجن إلى صلاة المغرب و العشاء الآخرة يقعد الشباب لهن في طريقهن فيؤذونهن و يتعرضون لهن فأنزل الله: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}** (الآية).

و في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو داود و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية **{يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ}** خرج نساء الأنصار كأن علي رءوسهن الغربان من أكسية سود يلبسناها.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{لَيْنٌ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ}** نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون برسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) إذا خرج في بعض غزواته يقولون: قتل و أسر فيغتم المسلمون لذلك و يشكون إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فأنزل الله عز و جل في ذلك **{لَيْنٌ لَمْ يَنْتَهِ}** إلى قوله **{إِلَّا قَلِيلًا}** أي نأمرك بإخراجهم من المدينة إلا قليلا.

{مَلْعُونِينَ أَيُّنَمَا تُقِفُوا أَخِذُوا وَقْتِكُمْ بِتَقِيْلًا} و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال:
{مَلْعُونِينَ} فوجبت عليهم اللعنة بعد اللعنة بقول الله.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٧٣]

{يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ
قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا
أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنَّهُمْ لَعْنَا كَبِيرًا
﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا
﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يُغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ
الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أشفقنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾
لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمَشْرِكِينَ وَ الْمَشْرِكَاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ
الْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾}

(بيان)

آيات تذكر شأن الساعة و بعض ما يجري على الكفار من عذابها و تأمر المؤمنين بالقول السديد و تعدهم عليه و عدا جميلا ثم تختتم السورة بذكر الأمانة.

قوله تعالى: **{يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}** تذكر الآية سؤال الناس عن الساعة و إنما كانوا يريدون أن يقدر لهم زمن وقوعها و أنها قريبة أو بعيدة كما يومئ إليه التعبير عنها بالساعة فأمر أن يجيبهم بقصر العلم بها في الله سبحانه و على ذلك جرت الحال كلما ذكرت في القرآن.

و قوله: **{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}** زيادة في الإبهام و ليعلموا أن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) مثل غيره في عدم العلم بها و ليس من الستر الذي أسره إليه و ستره من الناس.

قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا}** لعن الكفار إبعادهم من الرحمة، و الإعداد التهيئة، و السعير النار التي أشعلت فالتبت، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}** الفرق بين الولي و النصير أن الولي يلي بنفسه تمام الأمر و المولى عليه بمعزل، و النصير يعين المنصور على بعض الأمر و هو إتمامه فالولي يتولى الأمر كله و النصير يتصدى بعضه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **{يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ}** تقلب و جوههم في النار تحولها لحال بعد حال فتصفر و تسود و تكون كالحة أو انتقالها من جهة إلى جهة لتكون أبلغ في مس العذاب كما يفعل باللحم المشوي.

و قولهم: **{يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ}** كلام منهم على وجه التحسر و التمني.

قوله تعالى: **{وَ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا}** السادة جمع سيد و هو - على ما في المجمع - المالك المعظم الذي يملك تدبير السواد الأعظم و هو المجمع الأكثر، و الكبراء جمع كبير و لعل المراد به الكبير سنا فالعامة تطيع و تقلد أحد رجلين إما سيد القوم و إما أسنهم.

قوله تعالى: **{رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}** الضعفان المثلان

وإنما سألوهم ضعفي العذاب لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، ولذلك أيضا سألوهم لعن الكبير.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}** نهي عن أن يكونوا كبعض بني إسرائيل فيعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء وليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل وإن كان منها عنه بل قوله: **{فَبَرَّاهُ اللَّهُ}** يشهد بأنه كان إيذاء من قبيل التهمة و الاقتراء المحوج في رفعه إلى التبرئة والتنزيه.

ولعل السكوت عن ذكر ما آذوا به موسى (عليه السلام) يؤيد ما ورد في الحديث أنهم قالوا: ليس لموسى ما للرجال فبرأه الله من قولهم و سيوافيك.

وأوجه ما قيل في إيذائهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه إشارة إلى قصة زيد و زينب، وإن يكن كذلك فمن إيذائه (صلى الله عليه وآله وسلم) ما في كثير من روايات القصة من سردها على نحو لا يناسب ساحة قدسه.

وقوله: **{وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}** أي ذا جاه و منزلة و الجملة مضافا إلى اشتغالها على التبرئة إجمالا تعلق تبرئته تعالى له و للآية و ما بعدها نوع اتصال بالآيات الناهية عن إيذاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}**، السديد من السداد و هو الإصابة و الرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقة الواقع و عدم كونه لغوا أو ذا فائدة غير مشروعة كالنميمة و غير ذلك فعلى المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلم به و أن لا يكون لغوا أو يفسد به إصلاح.

قوله تعالى: **{يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}** رتب على ملازمة القول السديد إصلاح الأعمال و مغفرة الذنوب و ذلك أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول و لغو الحديث و الكلام الذي يترتب عليه فساد، و يرسوخ هذه الصفة فيها تنقطع طبعا عن الفحشاء و المنكر و اللغو في الفعل و عند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ما ضيعه من عمره في موبقات الذنوب إن كان قد ابتلي بشيء من ذلك و كفى بالندم توبة.

و يحفظه الله فيما بقي من عمره عن اقتحام المهلكات وإن رام شيئاً من صغائر الذنوب غفر الله له
فقد قال الله تعالى: **{إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}**: النساء: ٣١ فملازمة القول
السديد تسوق الإنسان إلى صلاح الأعمال و مغفرة الذنوب بإذن الله.

و قوله: **{وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً}** وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة و
الاجتناب عن جميع المناهي بترتيب الفوز العظيم على طاعة الله ورسوله.

و بذلك تحتّم السورة في معناها في الحقيقة لأن طاعة الله ورسوله هي الكلمة الجامعة بين جميع الأحكام
السابقة، من واجبات و محرمات و الآيات التاليتان كالمتمم لمعنى هذه الآية.

قوله تعالى: **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}** إلى قوله **{غَفُورًا رَحِيمًا}** الأمانة أيا ما كانت شيء يودع عند الغير ليحفظ عليه
ثم يرده إلى من أودعه، فهذه الأمانة المذكورة في الآية شيء أتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته و
استقامته ثم يرده إليه سبحانه كما أودعه.

و يستفاد من قوله: **{لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ}** إلخ، أنه أمر يترتب على حمله النفاق و الشرك
و الإيمان، فينقسم حاملوه باختلاف كيفية حملهم إلى منافق و مشرك و مؤمن.

فهو لا محالة أمر مرتبط بالدين الحق الذي يحصل بالتلبس به و عدم التلبس به النفاق و الشرك و
الإيمان.

فهل هو الاعتقاد الحق و الشهادة على توحده تعالى أو مجموع الاعتقاد و العمل بمعنى أخذ الدين الحق
بتفاصيله مع الغض عن العمل به، أو التلبس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التلبس بواحد
من هذه الأمور.

و ليست هي الأول أعني التوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرها من شيء توحده تعالى و تسبح
بحمده، و قد قال تعالى: **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}**: إسرائ: ٤٤ و الآية تصرح بإبائها عنه.

و ليست هي الثاني أعني الدين الحق بتفاصيله فإن الآية تصرح بجمل الإنسان كائنا من كان من مؤمن وغيره له و من البين أن أكثر من لا يؤمن لا يحمله و لا علم له به، و بهذا يظهر أنها ليست بالثالث و هو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلا.

و ليست هي الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرها ناطقة بالتوحيد فعلا متلبسة به.

و ليست هي الكمال الحاصل من أخذ دين الحق و العلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق و العلم بالتكاليف الدينية نفاق و لا شرك و لا إيمان و لا يستعقب سعادة و لا شقاء وإنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق و التلبس بالعمل.

فبقي أنها الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد و العمل الصالح و سلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادة إلى أوج الإخلاص الذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره و هو الولاية الإلهية.

فالمراد بالأمانة الولاية الإلهية و بعرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسة إليها و المراد بجملها و الإباء عنه وجود استعدادها و صلاحية التلبس بها و عدمه، و هذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآية فالسماوات و الأرض و الجبال على ما فيها من العظمة و الشدة و القوة فاقدة لاستعداد حصولها فيها و هو المراد بإبائهن عن حملها و إشفاقهن منها.

لكن الإنسان الظلوم الجهول لم يَأْب و لم يشفق من ثقلها و عظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل و عظم الخطر فتعقب ذلك أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانة و عدمه بالخيانة إلى منافق و مشرك و مؤمن بخلاف السماوات و الأرض و الجبال فما منها إلا مؤمن مطيع.

فإن قلت: ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملا لا يتحملة لثقله و عظم خطره السماوات و الأرض و الجبال على عظمتها و شدتها و قوتها و هو يعلم أنه أضعف من أن يطيق حملة وإنما حملة على قبولها ظلمه و جهله و أجرأه عليه غروره و غفلته عن عواقب الأمور فما تحميلة الأمانة باستدعائه لها ظلما و جهلا إلا كتقليد مجنون ولاية عامة يأبى قبولها العقلاء و يشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله و عدم استقامة فكره.

قلت: الظلم و الجهل في الإنسان و إن كانا بوجه ملاك اللوم و العتاب فهما بعينهما مصحح حملة الأمانة و الولاية الإلهية فإن الظلم و الجهل إنما يتصف بهما من كان من شأنه الاتصاف بالعدل و العلم فالجبال مثلا لا تتصف بالظلم و الجهل فلا يقال: جبل ظالم أو جاهل لعدم صحة اتصافه بالعدل و العلم و كذلك السماوات و الأرض لا يحمل عليها الظلم و الجهل لعدم صحة اتصافها بالعدل و العلم بخلاف الإنسان. و الأمانة المذكورة في الآية و هي الولاية الإلهية و كمال صفة العبودية إنما تحصل بالعلم بالله و العمل الصالح الذي هو العدل و إنما يتصف بهذين الوصفين أعني العلم و العدل الموضوع القابل للجهل و الظلم فكون الإنسان في حد نفسه و بحسب طبعه ظلوما جهولا هو المصحح لحمل الأمانة الإلهية فافهم ذلك.

فمعنى الآيتين 'يناظر بوجه معنى قوله تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}**: التين: ٥٦.

فقوله تعالى: **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ}** أي الولاية الإلهية و الاستكمال بحقائق الدين الحق علما و عملا و عرضها هو اعتبارها مقيسة إلى هذه الأشياء.

و قوله: **{عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ}** أي هذه المخلوقات العظيمة التي خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال: **{الْحَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}**: المؤمن: ٥٧ و قوله: **{فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا}** إباؤها عن حملها و إشفاقها منها عدم اشتغالها على صلاحية التلبس و تجافيا عن قبولها و في التعبير بالحمل إيماء إلى أنها ثقيلة ثقلا لا يحتملها السماوات و الأرض و الجبال.

و قوله: **{وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ}** أي اشتمل على صلاحيتها و التهيؤ للتلبس بها على ضعفه و صغر حجمه **{إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}** أي ظلما لنفسه جاهلا بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة و الهلاك الدائم.

و بمعنى أدق لكون الإنسان خاليا بحسب نفسه عن العدل و العلم قابلا للتلبس بما

يفاض عليه من ذلك و الارتقاء من حضيض الظلم و الجهل إلى أوج العدل و العلم.

و الظلوم و الجهول وصفان من الظلم و الجهل معناهما من كان من شأنه الظلم و الجهل نظير قولنا: فرس شمس و دابة جموح و ماء طهور أي من شأنها ذلك كما قاله الرازي أو معناهما المبالغة في الظلم و الجهل كما ذكر غيره، و المعنى مستقيم كيفما كانا.

و قوله: **{لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}** اللام للغاية أي كانت عاقبة هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات و ذلك أن الخائن للأمانة يتظاهر في الأغلب بالصلاح و الأمانة و هو النفاق و قليلا ما يتظاهر بالخيانة لها و لعل اعتبار هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين و المنافقات في الآية على المشركين و المشركات.

و قوله: **{وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً}** عطف على **{لِيُعَذِّبَ}** أي و كان عاقبة ذلك أن يتوب الله على المؤمنين و المؤمنات، و التوبة من الله هي رجوعه إلى عبده بالرحمة فيرجع إلى الإنسان إذا آمن به و لم يخن بالرحمة و يتولى أمره و هو ولي المؤمنين فيهديه إليه بالستر على ظلمه و جهله و تحليته بالعلم النافع و العمل الصالح لأنه غفور رحيم.

فإن قلت: ما هو المانع من جعل الأمانة بمعنى التكليف و هو الدين الحق و كون الحمل بمعنى الاستعداد و الصلاحية و الإباء هو فقدته و العرض هو اعتبار القياس فيجري فيه حينئذ جميع ما تقدم في بيان الانطباق على الآية.

قلت: نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمة لحصول الولاية الإلهية و تحقق صفة العبودية الكاملة فهي المعروضة بالحقيقة و المطلوبة لنفسها.

و الالتفات في قوله: **{لِيُعَذِّبَ اللَّهُ}** من التكلم إلى الغيبة و الإتيان باسم الجلالة للدلالة على أن عواقب الأمور إلى الله سبحانه لأنه الله.

و وضع الظاهر موضع المضمرة في قوله: **{وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}** للإشعار بكمال العناية في حقهم و الاهتمام بأمرهم.

و لهم في تفسير الأمانة المذكورة في الآية أقوال مختلفة:

فقيل: المراد بها التكليف الموجبة طاعتها دخول الجنة و معصيتها دخول النار و المراد بعرضها على السماوات و الأرض و الجبال اعتبارها بالنسبة إلى استعدادها و إباؤها

عن حملها وإشفاقهن منها عدم استعدادهن لها، وحمل الإنسان لها استعدادها، والكلام جار مجرى التمثيل.

وقيل: المراد بها العقل الذي هو ملاك التكليف و مناط الثواب والعقاب.

وقيل: هي قول لا إله إلا الله.

وقيل: هي الأعضاء فالعين أمانة من الله يجب حفظها وعدم استعمالها إلا فيما يرتضيه الله تعالى، وكذلك السمع واليد والرجل والفرج واللسان.

وقيل: المراد بها أمانات الناس والوفاء بالعهود.

وقيل: المراد بها معرفة الله بما فيها وهذا أقرب الأقوال من الحق يرجع بتقريب ما إلى ما قدمنا.

وكذلك اختلف في معنى عرض الأمانة عليها على أقوال:

منها: أن العرض بمعناه الحقيقي غير أن المراد بالسموات والأرض والجبال أهلها فعرضت على أهل السماء من الملائكة وبين لهم أن في خيانتها الإثم العظيم فأبوها وخافوا حملها وعرض على الإنسان فلم يمتنع.

ومنها: أنه بمعناه الحقيقي وذلك أن الله لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهما وقال لها: إني فرضت فريضة و خلقت جنة لمن أطاعني فيها ونارا لمن عصاني فيها فقلن: نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثوابا ولا عقابا و لما خلق آدم عرض عليه ذلك فاحتمله و كان ظلوما لنفسه جهولا بوخامة عاقبته.

ومنها: أن المراد بالعرض المعارضة والمقابلة، ومحصل الكلام أنا قابلنا بهذه الأمانة السماوات والأرض والجبال فكانت هذه أرحم وأثقل منها.

ومنها أن الكلام جار مجرى الفرض والتقدير والمعنى: أنا لو قدرنا أن السماوات والأرض والجبال فهما، وعرضنا عليها هذه الأمانة لأبين حملها وأشفقن منها لكن الإنسان تحملها.

وبالمراجعة إلى ما قدمناه يظهر ما في كل من هذه الأقوال من جهات الضعف والوهن فلا تغفل.

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث قال: ولا يلعن الله مؤمنا قال الله عز وجل: **{إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا}**.

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام): **أن بني إسرائيل كانوا يقولون: ليس لموسى ما للرجال، و كان موسى إذا أراد الاغتسال ذهب إلى موضع لا يراه فيه أحد فكان يوما يغتسل على شط نهر وقد وضع ثيابه على صخرة فأمر الله الصخرة فتباعدت عنه حتى نظر بنو إسرائيل إليه فعلهوا أن ليس كما قالوا فأنزل الله **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى}** (الآية).**

وفي المجمع: و اختلفوا فيما أودى به موسى على أقوال:

أحدها: أن موسى و هارون صعدا الجبل فمات هارون فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته فأمر الله الملائكة فحملته حتى مروا به على بني إسرائيل و تكلمت الملائكة بموته حتى عرفوا أنه قد مات و برأه الله من ذلك عن علي و ابن عباس .

و ثانيها: أن موسى كان حيا ستيرا يغتسل وحده فقالوا: ما يستتر منا إلا لعيب في جلده إما برص و أما أدرة فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر فمر الحجر بثوبه فطلبه موسى فرآه بنو إسرائيل عريانا كأحسن الرجال خلقا فبرأه الله مما قالوا. رواه أبو هريرة مرفوعا.

أقول: و روى الرواية الأولى في الدر المنثور، أيضا عن ابن مسعود و الثانية أيضا عن أنس و ابن عباس.

و في الدر المنثور أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال: ما جلس رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) على هذا المنبر قط إلا تلا هذه الآية: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}**.

أقول: وروي ما يقرب منه أيضا عن عائشة و أبي موسى الأشعري و عروة.

و في نهج البلاغة: ثم أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها إنها عرضت على السماوات المبنية و الأرض المدحوة و الجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول و لا أعرض و لا أعلى و لا أعظم منها و لو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لأمتنع و لكن أشفقن من العقوبة، و عقلن ما جهل من هو أضعف منهن و هو الإنسان إنه كان ظلوما جهولا.

و في الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار عن رجل عن أبي عبد الله (عليه السلام): في قول الله عز و جل: **{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ}** (الآية)، قال: **هي ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام).**

أقول: المراد بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ما كان هو أول فاتح لبابه من هذه الأمة و هو كون الإنسان، بحيث يتولى الله سبحانه أمره بمجاهدته فيه بإخلاص العبودية له دون الولاية بمعنى المحبة أو بمعنى الإمامة و إن كان ظاهر بعض الروايات ذلك بنوع من الجري و الانطباق.

(٣٤) (سورة سبأ مكية، و هي أربع و خمسون آية) (٥٤)

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي آخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ

الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ دُشَانًا نُخَسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾

(بيان)

تتكلم السورة حول الأصول الثلاثة أعني الوجدانية و النبوة و البعث فتذكرها و تذكر ما لمنكريها من
الاعتراض فيها و الشبه التي ألقوها ثم تدفعها بوجوه الدفع من حكمة و موعظة و مجادلة حسنة و تهتم ببيان
أمر البعث أكثر من غيره فتذكره في مفتتح الكلام ثم تعود إليه بعد عودة إلى محتتمه.
و هي مكية بشهادة مقاصد آياتها على ذلك.

قوله تعالى: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** إنخ، المطلوب بيان البعث و الجزاء بيانا
لا يعتره شك بالإشارة إلى الحجمة التي ينقطع بها الخصم و الأساس الذي يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم
ملكه تعالى لكل شيء من كل جهة حتى يصح له أي تصرف أراد فيها من إبداء و رزق و إماتة و إحياء
بالإعادة و جزاء، و ثانيهما كمال علمه تعالى بالأشياء من جميع جهاتها علما لا يطرأ عليه عزوب و زوال حتى
يعيد كل من أراد و يجزيه على ما علم من أعماله خيرا أو شرا.

و قد أشير إلى أول الأمرين في الآية الأولى التي نحن فيها و إلى الثانية في الآية الثانية و بذلك يظهر
أن الآيتين تمهيد لما في الآية الثالثة و الرابعة.

فقوله: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}** ثناء عليه على ملكه المنبسط على كل شيء
بحيث له أن يتصرف في كل شيء بما شاء و أراد.

و قوله: **{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي أَلْ آخِرَةِ}** تخصيص الحمد بالآخرة لما أن الجملة الأولى تتضمن الحمد في الدنيا فإن
النظام المشهود في السماوات و الأرض نظام دنيوي كما يشهد به قوله تعالى: **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ
السَّمَاوَاتُ}** إبراهيم: ٤٨.

و قوله: **{ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ }** ختم الآية بالاسمين الكريمين للدلالة على أن تصرفه في نظام الدنيا ثم تعقيبه بنظام الآخرة مبني على الحكمة والخبرة فبحكمته عقب الدنيا بالآخرة وإلا لغت الخلقة وبطلت ولم يتميز المحسن من المسيء كما قال: **{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا }** إلى أن قال **{ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }**: ص: ٢٨، وبخبرته يحشرهم ولا يغادر منهم أحدا ويجزي كل نفس بما كسبت.

والخبير من أسماء الله الحسنى مأخوذة من الخبرة وهي العلم بالجزئيات فهو أخص من العليم.

قوله تعالى: **{ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا }** الولوج مقابل الخروج والعروج مقابل النزول و كان العلم بالولوج والخروج والنزول والعروج كناية عن علمه بحركة كل متحرك و فعله و اختتام الآية بقوله: **{ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ }** كان فيه إشارة إلى أن له رحمة ثابتة و مغفرة ستصيب قوما بإيمانهم.

قوله تعالى: **{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ }** إلخ، يذكر إنكارهم لإتيان الساعة وهي يوم القيامة وهم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه و علمه بكل شيء و لا مورد للارتياب في إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلا عن إنكار إتيانها و لذلك أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يجيب عن قولهم بقوله: **{ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ }** أي الساعة.

ولما كان السبب العمدة في إنكارهم هو اختلاط الأشياء و منها أبدان الأموات بعضها ببعض و تبدل صورها تبديلا بعد تبدل بحيث لا خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تميز بعضها من بعض أشار إلى دفع ذلك بقوله: **{ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ }** أي لا يفوت «عن علمه **{ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ }**».

و قوله: **{ وَ لَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }** تعميم لعلمه لكل شيء و فيه مع ذلك إشارة إلى أن للأشياء كائنة ما كانت ثبوتا في كتاب مبين لا تتغير و لا تتبدل و إن زالت رسومها عن صفحة الكون و قد تقدم بعض الكلام في الكتاب المبين في سورة الأنعام و غيرها.

قوله تعالى: **{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}** اللام في **{لِيَجْزِيَ}** للتعليل و هو متعلق بقوله: **{لَتَأْتِيَنَّكُمْ}** و في قوله: **{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}** نوع محاذاة لقوله السابق: **{وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}**.

و في الآية بيان أحد السببين لقيام الساعة و هو أن يجزي الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالمغفرة و الرزق الكريم و هو الجنة بما فيها و السبب الأخير ما يشير إليه قوله: **{وَأَلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}** إنح.

قوله تعالى: **{وَأَلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}** السعي الجد في المشي و المعاجزة المبالغة في الإعجاز و قيل: المسابقة و الكلام مبني على الاستعارة بالكناية كان الآيات مسافة يسرون فيها سيرا حثيثا ليعجزوا الله و يسبقوه و الرجز كالرجس القذر و لعل المراد به العمل السيئ فيكون إشارة إلى تبدل العمل عذابا ألما عليهم أو سببا لعذابهم، و قيل: الرجز هو سيء العذاب.

و في الآية تعريض للكفار الذين يصرون على إنكار البعث.

قوله تعالى: **{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ}** الموصول الأول فاعل يرى و الموصول الثاني مفعوله الأول و الحق مفعوله الثاني و المراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله و بآياته، و بالذي أنزل إليه القرآن النازل إليه (صلى الله عليه وآله و سلم).

و جملة **{وَيَرَى}** إنح، استئناف متعرض لقوله السابق: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** أو حال من فاعل كفروا، و المعنى: أولئك يقولون: لا تأتينا الساعة و ينكرونه جهلا، و العلماء بالله و آياته يرون أن هذا القرآن النازل إليك المخبر بأن الساعة آتية هو الحق.

و قوله: **{وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** معطوف على الحق أي و يرون القرآن يهدي إلى صراط من هو عزيز لا يغلب على ما يريد محمود يثنى على جميع أفعاله لأنه لا يفعل مع عزته إلا الجميل و هو الله سبحانه، و في التوصيف بالعزيز الحميد مقابلة لما وصفهم به في قوله: **{الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}**.

قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُتَّبِعُكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ}**

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ كلام منهم وارد مورد الاستهزاء يعرفون فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعضهم لبعض بالقول بالمعاد.

والتمزيق التقطيع والتفريق، وكونهم في خلق جديد استقرارهم فيه أي تجديد خلقهم بإحيائهم بعد موتهم ووجودهم ثانيا بعد عدمهم، وقوله: **{إِذَا مُزِّقْتُمْ}** ظرف لقوله: **{إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}**.

والمعنى: وقال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لإنذاره إياهم بالبعث والجزاء: هل ندلكم على رجل والمراد به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ينبئكم و يخبركم أنكم ستستقرون في خلق جديد ويتجدد لكم الوجود إذا فرقت أبدانكم كل التفريق وقطعت بحيث لا يتميز شيء منها من شيء.

قوله تعالى: **{أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ}** إنح، الاستفهام للتعجب فإن القول ببعث الأجساد بعد فناءها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلا لتلبيس الأمر على الناس وإضلالهم لينال بعض ما عندهم وإلا فكيف يلتبس فيه الأمر على عاقل، ولهذا رددوا الأمر بين الافتراء والجنة في الاستفهام والمعنى: أ هو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوه بما بدا له من غير فكر مستقيم.

وقوله: **{بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ}** رد لقولهم وإضراب عن التردد الذي أتوا به مستفهمين، ومحصله أن ذلك ليس افتراء على الله ولا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرون في عذاب سيظهر لهم وقد أبعدهم ذلك عن الحق فكانوا في ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلك أن يعقلوا الحق و يدعنوا به.

و وضع الموصول موضع الضمير في قوله: **{بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}** للدلالة على أن علة وقوعهم فيما وقعوا فيه من العذاب والضلal عدم إيمانهم بالآخرة.

قوله تعالى: **{أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نُحْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ}** إنح، وعظ وإنذار لهم باستعظام ما اجترءوا عليه من تكذيب آيات الله والاستهزاء برسوله فالمراد بقوله: **{مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}** إحاطة السماء والأرض بهم من بين أيديهم ومن خلفهم فأبصارهم وجدوا سماء تظلمهم وأرضا تقلهم لا مفر لهم منهما.

و قوله: **{إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ}** أي إذ أحاط بهم الأرض و السماء و هما مدبرتان بتدبيرنا منقادتان مسخرتان لنا أن نشأ نخسف بهم الأرض فهلكهم أو نسقط عليهم قطعة من السماء فهلكهم فما لهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل؟

و قوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}**، أي فيما ذكر من إحاطة السماء و الأرض و كونهما مدبرتين لله سبحانه أن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآية لكل عبد منيب، راجع إلى ربه بالطاعة، فهو لاء لا يستهينون بهذه الأمور و لا يجترءون على تكذيب هذه الآيات إلا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابة إلى ربهم و رجوعا إلى طاعته.

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ١٠ الى ٢١]

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ أَنْ إِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ⑪ وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوَاحُهَا شَهْرٌ وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ⑫ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلٍ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَ قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ⑬ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ

الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ
 اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
 ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا
 الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا
 لِيَالِي وَآيَامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَا لَهُمْ
 كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ
 وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

(بيان)

تشير الآيات إلى نبذة من قصص داود و سليمان إذ آتاهما الله من فضله إذ أنعم على داود
 بتسخير الجبال و الطير معه و تليين الحديد له، و سخر لسليمان الريح غدوها شهر و رواحها شهر و سخر
 الجن يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل و غيرها و أمرهما بالعمل الصالح شكرا و كانا عبيد
 شكورين.

ثم إلى قصة سبأ حيث أنعم عليهم بجنتين عن اليمين و الشمال ليعيشوا فيها عيشا

رغدا فكفروا بالنعمة و أعرضوا عن الشكر فأرسل عليهم سيل العرم و بدل جنتهم جنتين دون ذلك و قد كان عمر بلادهم فكفروا فجعلهم أحاديث و مزقهم كل ممزق، كل ذلك لكفرهم النعمة و إعراضهم عن الشكر و لا يجازى إلا الكفور.

وجه اتصال القصص على ما تقدم من حديث البعث أن الله هو المدبر لأمر عباده و هم مغمورون في أنواع نعمه و للنعمة على المنعم عليه الشكر على نعمته و عليه أن يميز بين الشاكرين لنعمته و الكافر بها و إذ لا ميز في هذه النشأة فهناك نشأة أخرى يتميز فيها الفريقان فالبعث لا مفر عنه.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ}** الفضل العطية و التأويب الترجيع من الأوب بمعنى الرجوع و المراد به ترجيع الصوت بالتسبيح بدليل قوله فيه في موضع آخر: **{إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُثِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}**: ص: ١٩ و الطير معطوف على محل الجبال و منه يظهر فساد قول بعضهم: إن الأوب بمعنى السير و أن الجبال كانت تسير معه حيثما سار.

و قوله: **{يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}** بيان للفضل الذي أوتي داود و قد وضع فيه الخطاب الذي خوطبت به الجبال و الطير فسخرتا به موضع نفس التسخير الذي هو العطية و هو من قبيل وضع السبب موضع المسبب و المعنى: سخرنا الجبال له تتوب معه و الطير، و هذا هو المتحصل من تسخير الجبال و الطير له كما يشير إليه قوله: **{إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُثِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}**: ص: ١٩ و قوله: **{وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ}** أي و جعلناه لنا له على ما به من الصلابة.

قوله تعالى: **{أَنْ إِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ}** إنخ، السابغات جمع سابغة و هي الدرع الواسعة، و السرد نسج الدرع، و تقديره الاقتصاد فيه بحيث تتناسب حلقة أي اعمل دروعا واسعة و أجعلها متناسبة الحلق، و جملة **{أَنْ إِعْمَلْ}** إنخ، نوع تفسير لا لأنه الحديد له.

و قوله: **{وَ إِعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** معنى الجملة في نفسها ظاهر و هي لوقوعها في سياق بيان إيتاء الفضل و عد النعم تفيد معنى الأمر بالشكر كأنه قيل:

و قلنا اشكر النعم أنت و قومك بالعمل الصالح.

قوله تعالى: **{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ}** إنخ، أي و سخرنا لسليمان الريح مسير غدو تلك الريح و هو أول النهار إلى الظهر مسير شهر و رواح تلك الريح و هو من الظهر إلى آخر النهار مسير شهر أي أنها تسير في يوم مسير شهرين.

و قوله: **{وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ}** الإسالة إفعال من السيلان بمعنى الجريان و القطر النحاس أي و أذنا له القطر فسالت كالعين الجارية.

قوله: **{وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ}**، أي و جمع من الجن بدليل قوله بعد: **{يَعْمَلُونَ لَهُ}** يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له **{وَمَنْ يَنْعُغْ}** أي ينخرف **{عَنْ أَمْرِنَا}** و لم يطع سليمان **{نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ}** ظاهر السياق أن المراد به عذاب النار في الدنيا دون الآخرة، و في لفظ الآية دلالة على أن المسخر له كان بعض الجن لا جميعهم.

قوله تعالى: **{يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلٍ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ}** إنخ، المحارِب جمع محراب و هو مكان إقامة الصلاة و العبادة، و التماثيل جمع تماثل و هي الصورة المجسمة من الشيء و الجفان جمع جفنة و هي صحفة الطعام، و الجوابي جمع جابية الحوض الذي يجبي أي يجمع فيه الماء، و القُدُور جمع قدر و هو ما يطبخ فيه الطعام، و الراسيات الثابتات و المراد بكون القُدُور راسيات كونها ثابتات في أمكنتها لا يزلن عنها لعظمتها.

و قوله: **{إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا}** خطاب لسليمان و سائر من معه من آل داود أن يعملوا و يعبدوا الله شكرا له، و قوله: **{وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ}** أي الشاكر لله شكرا بعد شكر و الجملة إما في مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكنين في هذا المقام قليلون و هم الأوحديون من الناس، و إما في مقام التعليل كأنه قيل: إنهم قليل فكثروا عدتهم.

قوله تعالى: **{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتُهُ}** المراد بدابة الأرض الأرضة على ما وردت به الروايات و المنسأة العصا و قوله:

{فَلَمَّا حَرَ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} اخلرور السقوط على

الأرض.

ويستفاد من السياق أنه (عليه السلام) لما قبض كان متكئا على عصاه فبقي على تلك الحال قائما متكئا على عصاه زمانا لا يعلم بموته إنس ولا جن فبعث الله عز وجل أرضة فأخذت في أكل منسأته حتى إذا أكلت انكسرت العصا وسقط سليمان على الأرض فعملوا عند ذلك بموته وتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلوا بموت سليمان المستور عنهم وما لبثوا هذا المقدار من الزمان وهو من حين قبضه إلى خروره - في العذاب المهين المذل لهم.

قوله تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لِسِيَّ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ}** إلخ، سبأ العرب العاربة باليمن سموا

- كما قيل - باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقوله: **{عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ}** أي عن يمين مسكنهم وشماله.

وقوله: **{كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ}** أمر بالأكل من جنتين وهو كناية عن رزقهم منهما، ثم بالشكر له على

نعمته ورزقه، وقوله: **{بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ}** أي بلدة ملائمة صالحة للمقام ورب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم.

قوله تعالى: **{فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَ**

شَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ} العرم المسناة التي تحبس الماء، وقيل: المطر الشديد وقيل غير ذلك، والأكل بضمم تين كل ثمرة مأكولة، وانحط على ما قيل كل نبت أخذ طعما من المرارة، والأثل الطرفاء وقيل: شجر يشبهها أعظم منها لا ثمرة له، والسدر معروف، والأثل وشيء معطوفان على **{أُكُلٍ}** لا على انحط.

والمعنى: فأعرضوا أي قوم سبأ عن الشكر الذي أمروا به فجازيناهم وأرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق

بلادهم وذهب بجنتيهم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي ثمرة مرة وذواتي طرفاء وشيء قليل من السدر.

قوله تعالى: **{ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ}** {ذَلِكَ} إشارة إلى ما ذكر من إرسال

السيل وتبديل الجنتين ومحله النصب مفعولا ثانيا لجزياناهم والفرق بين الجزاء والمجازاة كما قيل إن المجازاة لا تستعمل إلا في الشر والجزاء أعم.

و المعنى: جزينا سبأ ذلك الجزاء بسبب كفرهم وإعراضهم عن الشكر أو في مقابلة ذلك و لا نجازي بالسوء إلا من كان كثير الكفران لأنعم الله.

قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً} إِنْخ، ضمير {بَيْنَهُمْ} لسبب و الكلام مسوق لبيان تمة قصتهم المطلوب ذكرها و هو عطف على قوله: **{كَانَ لِسَبَأٍ}** و المراد بالقرى التي باركنا فيها القرى الشامية، و المراد بكون القرى ظاهرة كونها متقاربة يرى بعضها من بعض.**

و قوله: **{وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ}** أي جعلنا السير فيها على نسبة مقدرة متناسبة غير مختلفة فالنسبة بين واحدة منها و ما يليها كالنسبة بين ما يليها و ما يليه، و قوله: **{سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ}** على تقدير القول أي و قلنا: سيروا في هذه القرى على أمن إن شئتم ليالي و إن شئتم أياما، و المراد قررنا فيها الأمن يسيرون فيها متى ما شاءوا من غير خوف و قلق.

قوله تعالى: **{فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}** إِنْخ، أي أنعمنا عليهم ما أنعمنا من وفور الفواكه و قرب المنازل و أمن الطرق و سهولة السير و رغد العيش فلوا ذلك و سئموه و قالوا: **{رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}** أي اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعيدة نركب فيها الرواحل و نقطع المفاوز و البوادي و هذا بغى منهم و كفران كما طلبت بنو إسرائيل الثوم و البصل مكان المن و السلوى.

و بالجملة أتم الله نعمه عليهم في السفر بقرب المنازل و أمن الطرق و وفور النعمة كما أتم نعمه عليهم في الحضر و أراد منهم الشكر على ذلك فكفروا بنعمه في السفر كما كفروا بها في الحضر، فأسرع الله في إسعاف ما اقترحوه فخرّب بلادهم و فرق جمعهم و شتت شملهم.

فقوله: **{فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}** اقتراح ضمني لتخريب بلادهم، و قوله: **{وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}** أي بالمعاصي.

و قوله: **{فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ}** أي أزلنا أعيانهم و آثارهم فلم يبق منهم إلا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلا في وهم المتوهم و خيال المتخيل و فرقناهم كل تفرق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزءان

مجتمعان إلا فرقنا بينهما فصاروا كسدى لا شبح له بعد ما كانوا مجتمعاً ذا قوة و شوكة حتى ضرب بهم المثل «تفرقوا أيادي سبأ».

وقوله: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}** أي في هذا الذي ذكر من قصتهم آيات لكل من كثر صبره في جنب الله و كثر شكره لنعمه التي لا تحصى يستدل بتلك الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكراً لنعمه و أن وراءه يوماً يبعث فيه و يجزى بعمله.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}** أي حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقاً عليهم إذ قال لربه: **{لَأُغْوِيَنَّهُمْ}** و **{لَأُضِلَّنَّهُمْ}** و **{وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}**، وقوله: **{فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}** بيان لتصديقه ظنه.

و منه يظهر أن ضمير الجمع في **{عَلَيْهِمْ}** هاهنا و كذا في الآية التالية لعامة الناس لا لسبب خاصة و إن كانت الآية منطبقة عليهم.

قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِآلِ آخِرَةٍ مِّمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ}** ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطرهم إلى اتباعه حتى يكونوا معذورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فيتسلط عليهم لا أنه يتسلط فيتبعونه، قال تعالى: **{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}**: الحجر: ٤٢ و قال حاكياً عن إبليس يوم القيامة: **{وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ}**: إبراهيم: ٢٢.

و منشأ اتباعهم له ريب و شك في قلوبهم من الآخرة يظهر منهم بظهور أثره الذي هو الاتباع لإبليس، فإنه سبحانه لإبليس أن يتسلط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدار من التسلط ليمتاز به أهل الشك في الآخرة من أهل الإيمان به و لا يرفع ذلك مسؤوليتهم في اتباعه لكونه عن اختيار منهم.

فقوله: **{وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ}** نفي لكل سلطان، و قوله: **{إِلَّا لِنَعْلَمَ}** أي لنميز **{مَنْ يُّؤْمِنُ بِآلِ آخِرَةٍ مِّمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ}** استثناء لسلطانه عليهم من طريق

اتباعهم له عن اختيار منهم، وقد وضع فيه الغاية موضع ذي الغاية أي التمييز المذكور موضع التسلط من طريق الاتباع الاختياري.

و تقييد الإيمان و الشك بالآخرة في الآية لمكان أن الرادع الوحيد عن المعصية و الداعي إلى الطاعة هو الإيمان بالآخرة دون الإيمان بالله و رسوله لو لا الآخرة كما قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}**: ص: ٢٦ و قوله: **{وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}** أي عالم علما لا يفوته المعلوم بنسيان أو سهو أو غير ذلك و فيه تحذير عن الكفران و المعصية و إنذار لأهل الكفر و المعصية.

(بحث روائي)

في كمال الدين بإسناده إلى هشام بن سالم عن الصادق (عليه السلام) في حديث يذكر فيه قصة داود (عليه السلام) قال: **إنه خرج يقرأ الزبور و كان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل و لا حجر و لا طائر إلا أجابه.**

و في تفسير القمي: قوله عز و جل: **{أَنْ إِعْمَلْ سَابِغَاتٍ}** قال: **الدروع {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}** قال: **المسامير التي في الحلقة، و قوله عز و جل: {وَلِسُلَيْمَانَ أَرْبَحَ غَدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَّاحُهاَ شَهْرٌ}** قال: **كانت الريح تحمل كرسي سليمان - فتسير به في الغداة مسيرة شهر و بالعشي مسيرة شهر.**

و في الكافي بإسناده عن داود بن الحصين و عن أبان بن عثمان عن الفضل أبي العباس قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): **{يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَ تَمَائِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ}** قال: **ما هي تماثيل الرجال و النساء و لكنها تماثيل الشجر و شبهه.**

و فيه عن بعض أصحابنا مرفوعا عن هشام بن الحكم قال: قال أبو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام): **يا هشام ثم مدح الله القلة فقال: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}**.

أقول: و قد وقع هذا المعنى في عدة روايات و هو ينطبق على أحد المعنيين المتقدمين في ذيل الآية.

و في العلل بإسناده عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **أمر سليمان بن داود الجن فصنعوا له قبة من قوارير فبينما هو متكئ على عصاه في القبة ينظر إلى الجن كيف ينظرون**

إليه إذ حانت منه النفاتة فإذا رجل معه في القبة قال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أقبل الرشا ولا أهاب الملوك أنا ملك الموت. فقبضه وهو قائم متكئ على عصاه في القبة والجن ينظرون إليه .

قال: فكثروا سنة يدأبون له حتى بعث الله عز وجل الأرضة فأكلت منسأته وهي العصاء فلها خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين (الحديث).

أقول: وبقاؤه (عليه السلام) على حال القيام متكئا على عصاه سنة وارد في عدة من روايات الشيعة وأهل السنة.

وفي المجمع في الحديث عن فروة بن مسيك قال: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن سبب أ رجل هو أم امرأة؟ فقال: هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة فأما الذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذحج والأشعرين وأنمار وحمير فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم و بجيلة. وأما الذين تشاءموا فعاملة و جذام و لحم و غسان.

أقول: و رواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع والسنن عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) والمراد بالتيامن والتشاءم السكونة باليمن والشام.

وفي الكافي بإسناده عن سدير قال: سأل رجل أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل .
{فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} (الآية) فقال: هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض وأنهار جارئة وأموال ظاهرة فكفروا نعم الله عز وجل وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله فغير الله ما بهم من نعمة والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فأرسل الله عليهم سيل العرم ففرق قراهم و خرب ديارهم و ذهب بأموالهم و أبدلهم مكان جناتهم جنتين ذواتي أكل نحرط و أثل و شيء من سدر قليل ثم قال:
{ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}.

أقول: و ورد في عدة من الروايات أن القرى التي بارك الله فيها هم أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و القرى الظاهرة هم الوسائط بينهم وبين الناس من حملة أحاديثهم و غيرهم، و هو من بطن القرآن و ليس من التفسير في شيء.

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٢٢ الى ٣٠]

{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ
حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلِ مَنْ
يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلِ
لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ
هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلِ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا
الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلِ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

(بيان)

آيات مقررة للتوحيد واحتجاجات حوله.

قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} إلى

آخر الآية، أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يحتج على إبطال ألوهية آلهتهم بعدم قدرتهم على استجابة الدعاء، فقوله: **{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ}** أي ادعوا الذين زعمتموهم آلهة من دون الله ففعلوا **{زَعَمْتُمْ}** محذوفان لدلالة السياق عليهما و دعائهم هو مسألتهن شيئا من الحوائج.

وقوله: **{لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}** واقع موقع الجواب كأنه قيل: فماذا يكون إذا دعوهم؟ فقيل: لا يستجيبون لهم بشيء لأنهم **{لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}** ولو ملكوا لاستجابوا، ولا تتم الربوبية والألوهية إلا بأن يملك الرب والإله شيئا مما يحتاج إليه الإنسان فيملكه له وينعم عليه به فيستحق بإزائه العبادة شكرا له فيعبد، أما إذا لم يملك شيئا فلا يكون ربا ولا إله.

وقوله: **{وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ}** كان الملك المنفي في الجملة السابقة **{لَا يَمْلِكُونَ}** إلخ، الملك المطلق المنبسط على الجميع والمنفي في هذه الجملة الملك المحدود المتبعض الذي ينبسط على البعض دون الكل إما مشاعا أو مفروزا، لكن المشركين ما كانوا يقولون بالملك المشترك بينهم وبين الله سبحانه مشاعا بل كانوا يقولون بملك كل من آلهتهم لنوع من الخلق أو بعض منها، وأما الله سبحانه فهو رب الأرباب وإله الآلهة. و على هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلق و عدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيتهم وألوهيتهم.

وقوله: **{وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ}** أي ليس لله سبحانه منهم كلا أو بعضا من معين يعينه فيما يفرض فيه عجزه عن القيام بأمر تديره إذ لو كان له منهم ظهير يظهره على التدبير كان مالكا فيستجيب إذا دعي فيما هو ظهير بالنسبة إليه و إذ ليس فليس.

فتبين مما تقدم أن احتجاج الآية على نفي الملك بانتفاء استجابتهم دعاء الداعي يجري في جميع الصور الثلاث وهي ملكهم لما في السماوات و ما في الأرض مطلقا و ملكهم على وجه الشركة مع الله سبحانه و كونهم أو بعضهم ظهيرا لله سبحانه.

قوله تعالى: **{وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}** المشركون كانوا يقولون بشفاعة آلهتهم كما حكاها الله سبحانه عنهم بقوله: **{هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}**: يونس: ١٨

و ليس مرادهم بالشفاعة شفاعاة يوم القيامة التي يثبتها القرآن الكريم فإنهم ما كانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعاة في الدنيا لعبادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم وإصلاح شئونهم بتوسط آلهتهم.

و إذ كانت الآلهة مخلوقين لله مملوكين له من كل وجه فلا يملكون الشفاعاة من عند أنفسهم مستقلين بها إلا أن يملكهم الله سبحانه ذلك و هو الإذن لهم في أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفعوا بإذن الله سبحانه.

و قوله: **{إِلَّا لِمَنْ أذِنَ لَهُ}** يحتمل أن يكون اللام في **{لِمَنْ}** لام الملك و المراد بمن أذن له الشافع من الملائكة، و المعنى: لا تنفع الشفاعاة إلا أن يملكه الشافع بالإذن من الله و أن يكون لام التعليل و المراد بمن أذن له المشفوع له، و المعنى: لا تنفع الشفاعاة إلا لأجل من أذن له من المشفوع لهم، قال في الكشاف: و هذا يعني الوجه الثاني وجه لطيف و هو الوجه. انتهى.

و هو الوجه فإن الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهي و إجراءاته، قال تعالى: **{لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}**: الأنبياء: ٢٧ و قال: **{جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ}**: فاطر: ١ و الوساطة المذكورة من الشفاعاة كما تقدم في مباحث الشفاعاة في الجزء الأول من الكتاب.

فالملائكة جميعا شفعاء لكن لا في كل أمر و لكل أحد بل في أمر أذن الله فيه و لمن أذن له فنفي شفاعتهم إلا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء، فالآية في معنى قوله تعالى: **{وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}**: الأنبياء: ٢٨ لا في معنى قوله: **{مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ}**: يونس: ٣.

قوله تعالى: **{حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** التفريع إزالة الفزع و كشفه و ضمائر الجمع على ما يعطيه السياق للشفعاء و هم الملائكة.

و لازم قوله: **{حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ}** و هو غاية أن يكون هناك أمر مغيب بها و هو كون قلوبهم في فزع ممتد في انتظار أمر الله سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه، فالآية في معنى قوله تعالى: **{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ}** إلى أن قال **{وَالْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ}**

لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}: النحل: ٥٠ فالفرع هو التأثر والانتقاض من الخوف وهو المراد بسجدهم تذلا من خوف ربهم من فوقهم.

وبذلك يظهر أن المراد بفرعهم حتى يفرع عنهم أن التذلل غشي قلوبهم وهو تذللهم من حيث إنهم أسباب وشفعاء في نفوذ الأوامر الإلهية ووقوعه على ما صدر و كما أريد، وكشف هذا التذلل هو تلقيهم الأمر الإلهي واشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لا يظهر من وجودهم إلا فعلهم وطاعتهم لله فيما أمرهم به وأنه لا واسطة بين الله سبحانه وبين الفعل إلا أمره فافهم ذلك.

وإنما نسب الفرع والتفريع إلى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم وعن كل شيء إلا ربهم وهم على هذه الحالة لا يشعرون بشيء غيره حتى إذا كشف الفرع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهي بلا مهل ولا تخلف فليس الأمر بحيث يعطل أو يتأخر عن الوقوع، قال تعالى: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**: يس: ٨٢ فالمستفاد من الآية نظرا إلى هذا المعنى أنهم في فرع حتى إذا أزيل فرعهم بصدور الأمر الإلهي.

وقوله: **{قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ}** يدل على أنهم طوائف كثيرون يسأل بعضهم بعضا عن الأمر الإلهي بعد صدوره وانكشاف الفرع عن قلوب السائلين.

ويتبين منه أن كشف الفرع ونزول الأمر إلى بعضهم أسبق منه إلى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسئول عالما بما سئل عنه قبل السائل.

فلهم مراتب مختلفة ومقامات متفاوتة بعضها فوق بعض تتلقى الدانية منها الأمر الإلهي من العالية من غير تخلف ولا مهلة وهو طاعة الداني منهم للعالي، كما يستفاد ذلك أيضا بالتدبر في قوله تعالى: **{وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ}**: الصفات: ١٦٤ وقوله في وصف الروح الأمين: **{ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}**: التكوين: ٢١.

فبينهم مطاع ومطيع ولا طاعة مع ذلك إلا الله سبحانه لأن المطاع منهم لا شأن له إلا إيصال ما وصل إليه من الأمر الإلهي إلى مطيعه الذي دونه، ويمكن أن يستفاد ذلك من توصيف القول بالحق في قوله: **{قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ}** أي قال

القول الثابت الذي لا سبيل للبطلان و التبديل إليه.

و ما أطف ختم الآية بقوله تعالى: **{ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ }** أي هو العلي الذي دونه كل شيء و الكبير الذي يصغر عنده كل شيء فليس للملائكة المكرمين إلا تلقي قوله الحق و امتثاله و طاعته كما يريد.

فقد تحصل من الآية الكريمة أن الملائكة فزعون في أنفسهم متذللون في ذواتهم ذاهلون عن كل شيء إلا عن ربهم محذون إلى ساحة العظمة و الكبرياء في انتظار صدور الأمر حتى يكشف عن قلوبهم الفزع، بصدور الأمر و نزوله و هم مع ذلك طوائف مختلفة ذوا مقامات متفاوتة علوا و دنوا يتوسط كل عال في إيصال الأمر النازل إلى من هو دونه.

فهم مع كونهم شفعاء و أسبابا متوسطة لا يشفعون و لا يتوسطون في حدوث حادث من حوادث الخلق و التدبير إلا بإذن خاص من ربهم في حدوثه فيتحملون الأمر النازل إليهم حتى يحققوه في الكون من غير أن يستقلوا من أنفسهم في شيء أو يستبدوا برأي، و من كان هذا شأنه لا يشعر بشيء إلا طاعة ربه فيما يأمره به كيف يكون ربا مستقلا في أمره مفضوا إليه التدبير يعطي ما يشاء و يمنع ما يشاء؟

و في الآية أقوال مختلفة أحر:

منها: أن ضمير **{ قُلُوبِهِمْ }** و **{ قَالُوا }** الثاني للمشركين دون الملائكة و ضمير **{ قَالُوا }** الأول للملائكة و المعنى: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين وقت الفزع قالت الملائكة لهم: ما ذا قال ربكم؟ قالت المشركون لهم: الحق فيعترفون بما أنكروه في الدنيا.

و منها: أن ضمير **{ قُلُوبِهِمْ }** للملائكة و المراد أن الملائكة الموكلين بالأعمال إذا صعدوا بأعمال العباد إلى السماء و لهم زجل و صوت عظيم خشيت الملائكة أنها الساعة فيفزعون و يخرون سجدا لله سبحانه حتى إذا كشف عن قلوبهم الفزع و علموا أنه ليس الأمر كذلك فسألوا ما ذا قال ربكم؟ قالوا: الحق.

و منها: أن الله لما بعث النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بعد فترة بينه و بين عيسى (عليه السلام) لم ينزل فيها شيء من الوحي أنزل الله سبحانه جبريل بالوحي فلما نزل ظنت الملائكة أنه

نزل بشيء من أمر الساعة فصعقوا لذلك فجعل جبريل يمر بكل سماء و يكشف الفرع عن الملائكة الساكنين فيها فرفعوا رءوسهم و قال بعضهم لبعض: ما ذا قال ربكم؟ قالوا: الحق أي الوحي. و منها: أن الضمير للملائكة و المراد أن الله سبحانه إذا أوحى إلى بعض الملائكة غشي على الملائكة عند سماع الوحي و يصعقون و يخرون سجدا للآية العظيمة فإذا فرغ عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الذي أوحى إليه ما ذا قال ربك؟ أو سأل بعضهم بعضا ما ذا قال ربكم؟ فيعلمون أن الأمر في غيرهم. و أنت بعد التدبر في الآية الكريمة و التأمل فيما قدمناه تعلم وجه الضعف في هذه الأقوال و أن شيئا منها على تقدير صحته في نفسه لا يصلح تفسيرها لها.

قوله تعالى: **{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ}** إلخ، احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الذي هو الملاك العمدة في اتخاذهم الآلهة فإنهم يتعللون في عبادتهم الآلهة بأنها ترضيهم فيوسعون لهم في رزقهم فيسعدون بذلك.

فأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسألهم من يرزقهم من السماوات و الأرض؟ و الجواب عنه أنه الله سبحانه لأن الرزق خلق في نفسه و لا خالق حتى عند المشركين إلا الله عز اسمه لكنهم يستنكفون عن الاعتراف به بألسنتهم و إن أذعنت به قلوبهم و لذلك أمر أن ينوبهم في الجواب فقال: **{قُلِ اللَّهُ}**.

و قوله: **{وَأِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}**، تمتة قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و هذا القول بعد إلقاء الحجمة القاطعة و وضوح الحق في مسألة الألوهية مبني على سلوك طريق الإنصاف، و مفاده أن كل قول إما هدى أو ضلال لا ثالث لهما نفيا و إثباتا و نحن و أنتم على قولين مختلفين لا يجتمعان فإما أن نكون نحن على هدى و أنتم في ضلال و إما أن تكونوا أنتم على هدى و نحن في ضلال فانظروا بعين الإنصاف إلى ما ألقى إليكم من الحجمة و ميزوا المهدي من الضال و الحق من المبطل.

و اختلاف التعبير في قوله: **{لَعَلَىٰ هُدًىٰ}** و **{فِي ضَلَالٍ}** بلفظة على و في كما قيل للإشارة إلى أن المهدي كأنه مستعل على منار يتطلع على السبيل و غايتها التي فيها سعادته، و الضال منغمري ظلمة لا يدري أين يضع قدمه و إلى أين يسير

و ما ذا يراد به؟

قوله تعالى: **{قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ}** أي إن العمل و خاصة عمل الشر لا يتعدى عن عامله و لا يلحق وباله إلا به فلا يسأل عنه غيره فلا تسألون عما أجرمنا بل نحن المسؤلون عنه و لا نسأل عما تعملون بل أنتم المسؤلون.

و هذا تمهيد لما في الآية التالية من حديث الجمع و الفتح فإن الطائفتين إذا اختلفا في الأعمال خيرا و شرا كان من الواجب أن يفتح بينهما و يتميز كل من الأخرى حتى يلحق به جزاء عمله من خير أو شر أو سعادة أو شقاء و الذي يفتح و يميز هو الرب تعالى.

و في التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام و في ناحية المشركين بقوله: **{تَعْمَلُونَ}** و لم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب في المناظرة.

قوله تعالى: **{قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ}** لما كان من الواجب أن يلحق بكل من المحسن و المسيء جزاء عمله و كان لازمه التمييز بينهما بالجمع ثم الفرق كان ذلك شأن مدير الأمر و هو الرب أمر نبيه (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يذكرهم أن الذي يجمع بين الجميع ثم يفتح بينهم بالحق هو الله، فهو رب هؤلاء و أولئك فإنه هو الفتح العليم يفتح بين كل شيئين بالخلق و التدبير فيتميز بذلك الشيء من الشيء كما قال: **{أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}**: الأنبياء: ٣٠ و هو العليم بكل شيء.

فالآية ثبت البعث لتمييز المحسن من المسيء أولا ثم انحصار التمييز و الجزاء في جانبه تعالى بانحصار الربوبية فيه و يبطل بذلك ربوبية من اتخذوه من الأرباب.

و الفتح من أسماء الله الحسنى و الفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائدة تترتب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه و الفتح بين الشيئين لتمييز كل منهما عن الآخر بذاته و صفاته و أفعاله.

قوله تعالى: **{قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** أمر آخر للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضرورية للإله المستحق للعبادة من الاستقلال بالحياة و العلم و القدرة و السمع و البصر؟ و هذا معنى قوله: **{أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ}** أي ألحقتموهم به شركاء له.

ثم ردع بنفسه و قال: كلا لا يكونون شركاء له لأنهم إما أن يروه الأصنام بما أنها معبودة لهم معدودة آلهتهم وهي أجسام ميتة خالية عن الحياة و العلم و القدرة و إما أن يروه أرباب هذه الأصنام و هم الملائكة و غيرهم بجعل الأصنام تماثيل مشيرة إليهم و هم و إن لم يخلوا عن حياة و علم و قدرة إلا أن ما لهم من صفات الكمال مفاضة عليهم من الله سبحانه لا استقلال لهم في شيء من هذه الصفات و لا في الأفعال المتفرعة عليها فأين الاستقلال في التدبير الذي يدعون أنه مفوض إليهم فالوجود الواجي بكامله اللامتناهي يمنع أن يكون في خلقه من يشاركه في شيء من كماله.

اللهم إلا أن يدعوا أنه شاركهم في بعض ما له من الشئون لتدبير خلقه من غير صلاحية لهم ذاتية و هذا ينافي حكمته تعالى.

و قد أشير إلى هذه الحجة بقوله: **{بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** فإن عزته تعالى و هو منع جانبه أن يعدو إلى حريم كماله عاد لكونه لا يجد بحد تمنع أن يشاركه في شيء من صفات كماله كالربوبية و الألوهية المنتهيتين إلى الذات أحد غيره هذا لو كانت الشركة عن صلاحية ذاتية من الشريك و لو كانت عن إرادة جزافية منه من غير صلاحية حقيقة من الشريك فالحكمة الإلهية تمنع ذلك.

و قد تبين بذلك أن الآية متضمنة لحجة قاطعة برهانية فأحسن التدبر فيها.

قوله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** قال الراغب في المفردات: الكف كف الإنسان و هي ما بها يقبض و يبسط و كففته أصبت كفه، و كففته أصبته بالكف و دفعته بها و تعورف الكف بالدفع على أي وجه كان بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره، و قوله: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ}** أي كافا لهم عن المعاصي و الهاء فيه للمبالغة كقولهم: راوية و علامة و نسابة. انتهى.

و يؤيد هذا المعنى توصيفه (صلى الله عليه وآله و سلم) بالبشير و النذير، فقوله: **{بَشِيرًا وَنَذِيرًا}** حالان يبينان صفته لقوله: **{كَافَّةً لِلنَّاسِ}**.

و ربما قيل: إن التقدير و ما أرسلناك إلا إرساله كافة للناس و لا يخلو من تكلف و بعد. و

أما كون كافة بمعنى جميعا و حالا من الناس، و المعنى: و ما أرسلناك إلا للناس جميعا فهم ينعون عن تقدم الحال على صاحبه المجرور.

و اعلم أن منطوق الآية و إن كان راجعا إلى النبوة و فيها انتقال من الكلام في التوحيد إلى الكلام في النبوة على حد الآيات التالية، لكن في مدلولها حجة أخرى على التوحيد و ذلك أن الرسالة من لوازم الربوبية التي شأنها تديير الناس في طريق سعادتهم و مسيرهم إلى غايات وجودهم فعموم رسالته (صلى الله عليه وآله و سلم) و هو رسول الله تعالى لا رسول غيره دليل على أن الربوبية منحصرة في الله سبحانه فلو كان هناك رب غيره لجاؤهم رسوله و لم يعم رسالة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أو عمتهم و احتاجوا معه إلى غيره، و هذا معنى قول علي (عليه السلام) - على ما روي - لو كان لربك شريك لأنتك رسله.

و يؤيده ما في ذيل الآية من قوله: **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** فإن دالة انحصار الرسالة في رسل الله على انحصار الربوبية في الله عز اسمه أمس بجهل الناس من كونه (صلى الله عليه وآله و سلم) رسولا كافا لهم عن المعاصي بشيرا و نذيرا.

فنفاد الآية على هذا: لا يمكنهم أن يروك شريكا له و الحال أنا لم نرسلك إلا كافا لجميع الناس بشيرا و نذيرا و لو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك إليهم و هم عباد لإله آخر و الله أعلم.

قوله تعالى: **{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** سؤال عن وقت الجمع و الفتح و هو البعث فالآية متصلة بقوله السابق: **{قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا}** (الآية)، و هذا أيضا من شواهد ما قدمنا من المعنى لقوله: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً}** و إلا كانت هذه الآية و التي بعدها متخللتين بين قوله: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ}** (الآية)، و الآيات التالية المتعرضة لمسألة النبوة.

قوله تعالى: **{قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ}** أمر منه تعالى أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضي محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعاً و لا يختلف وقت وقوعه البتة أي إن الله وعد به وعدا لا يخلفه إلا أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلا الله سبحانه.

و ما قيل: إن المراد به يوم الموت غير سديد فإنهم لم يسألوا إلا عما تقدم وعده و هو يوم الجمع و الفتح و الجمع ثم الفتح من خصائص يوم القيامة دون يوم الموت.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام): في قوله تعالى: **{حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}** و ذلك أن أهل السماوات لم يسمعوا و حيا فيما بين أن بعث عيسى بن مريم إلى أن بعث محمد (صلى الله عليه وآله و سلم)، فلما بعث الله جبرئيل إلى محمد سمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا فصعق أهل السماوات.

فلما فرغ عن الوحي انحدر جبرئيل كلما مر بأهل سماء فزع عن قلوبهم يقول: كشف عن قلوبهم، فقال بعض لبعض: ما ذا قال ربكم؟ قالوا: الحق و هو العلي الكبير.

أقول: و روي مثله من طرق أهل السنة موصولا و موقوفا عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و مدلول الرواية على أي حال مصداق من مصاديق الآية و لا تصلح لتفسيرها البتة.

و في الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس و في الجمع عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي. بعثت إلى الناس كافة الأحمر و الأسود و إنما كان النبي يبعث إلى قومه، و نصرت بالرعب يرعب مني عدوي على مسيرة شهر، و أطعمت المغنم، و جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا، و أعطيت الشفاعة فادخرتها لأمتي إلى يوم القيامة و هي إن شاء الله نائلة من لا يشرك بالله شيئا.

أقول: و روي أيضا هذا المعنى عن ابن المنذر عن أبي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله و سلم).

و الرواية معارضة لما ورد مستفيضا أن نوحا كان مبعوثا إلى الناس كافة و ذكر في بعضها إبراهيم (عليه السلام) و في بعضها أن أولي العزم كلهم مبعوثون إلى الدنيا كافة، و تخالف أيضا عموم الشفاعة للأنبياء المستفاد من عدة من الروايات و قد قال تعالى: **{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}**: الزخرف: ٨٦ و قد شهد القرآن بأن المسيح (عليه السلام) من الشهداء قال تعالى: **{وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}**: النساء: ١٥٩.

و الروايات من طرق العامة و الخاصة كثيرة في عموم رسالته للناس كافة و ظاهر كثير منها أخذ {كافة} في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ} حالا من {للنَّاسِ} قدم عليه و يمنعه البصريون من النحاة و يجوز الكوفيون.

[سورة سبأ (٣٤): الآيات ٣١ الى ٥٤]

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا تَتْرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أُسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ

لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الغُرْفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا
مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ
لَهُ وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ
لِلْمَلَائِكَةِ أ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لَا ضَرّاً وَ
نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَ إِذَا تَتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّنْ قَدْ
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ
يَدْرُسُونَهَا وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا
آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَ
فُرَادِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ

رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن صَلَّيْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَ لَوْ تَرَى إِذُ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَ أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنَآوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

(بيان)

فصل آخر من آيات السورة نتكلم في أمر النبوة و ما يرجع إليها و ما يقول المشركون فيها و تتخلص في خلالها بما يجري عليهم يوم الموت أو يوم القيامة، و قد اتصلت بقوله في الفصل السابق: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ}** (الآية)، و قد عرفت أن الآية كالبرزخ بين الفصلين تذكر الرسالة و تجعلها دليلا على التوحيد.

قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}** المراد بالذين كفروا المشركون و المراد بالذي بين يديه الكتب السماوية من التوراة و الإنجيل و ذلك أن المشركين و هم الوثنيون ليسوا قائلين بالنبوة و يتبعها الكتاب السماوي.

و قول بعضهم: إن المراد بالذي بين يديه هو أمر الآخرة مما لا دليل يساعده، و قد أكثر القرآن الكريم من التعبير عن التوراة و الإنجيل بالذي بين يديه، و من الخطأ قول بعضهم: إن المراد بالذين كفروا هم اليهود.

قوله تعالى: **{وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ}** إنح، الظاهر أن اللام في **{الظَّالِمُونَ}** للعهد، و هذه الآية والآيتان بعدها تشير إلى أن وبال هذا الكفر وأساسه ضلال أئمة الكفر وإضلالهم تابعيهم سيلحق بهم و سيندمون عليه ولن ينفعهم الندم.

فقوله: **{وَلَوْ تَرَىٰ}** خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب **{إِذِ الظَّالِمُونَ}** وهم الكافرون بكتب الله ورسوله، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر **{مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ}** للحساب و الجزاء يوم القيامة **{يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ الْقَوْلِ}** أي يتحاورون و يتراجعون في الكلام متخاصمين **{يَقُولُ الَّذِينَ أُسْتُضِعُّوا}** بيان لرجوع بعضهم إلى بعض في القول و المستضعفون الأتباع الذين استضعفهم المتبوعون **{لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}** وهم الأئمة القادة **{لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ}** يريدون أنكم أجبرتمونا على الكفر و حلت بيننا و بين الإيمان.

{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعُّوا} جوابا عن قولهم و ردا لما اتهموهم به من الإكراه و الإكراه **{أَنَّا لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ}** الاستفهام للإنكار أي أن نحن صرفناكم **{عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ}** فبلوغه إليكم بالدعوة النبوية أقوى الدليل على أنا لم نحل بينه و بينكم و كنتم مختارين في الإيمان به و الكفر **{بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ}** متلبسين بالإكراه مستمرين عليه فأجرتم بالكفر به لما جاءكم من غير أن نجبركم عليه فكفرتم منكم و نحن برآء منه.

{وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} ردا لقولهم و دعواهم البراءة **{بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ}** أي مكركم بالليل و النهار حملنا على الكفر **{إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا}** و أمثالا من الآلهة أي أنكم لم تزالوا في الدنيا تمكرون الليل و النهار و تخطون الخطط لتستضعفونا و تئامروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون، فلم نشعر إلا و نحن مضطرون على الائتمار بأمركم إذ تأمرونا بالكفر و الشرك.

{وَأَسْرُوا} و أخفوا **{الْتَدَامَةَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ}** و شاهدوا أن لا مناص، و إخفاؤهم الندامة يوم القيامة و هو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء نظير كذبهم على الله و إنكارهم الشرك بالله و حلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور

ملكاتهم الرذيلة التي رسخت في نفوسهم فقد كانوا يسرون الندامة في الدنيا خوفا من شماتة الأعداء و كذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسروا و اليوم يوم تلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنهم كاذبون في قولهم.

ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: **{ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ }** السلاسل **{ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }** فصارت أعمالهم أغلالا في أعناقهم تحبسهم في العذاب.

قوله تعالى: **{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ }** المترفون اسم مفعول من الإتراف و هو الزيادة في التنعيم، و فيه إشعار بأن الإتراف يفضي إلى الاستكبار على الحق كما تفيد الآية اللاحقة.

قوله تعالى: **{ وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ }** ضمير الجمع للمترفين، و من شأن الإتراف و الترفه و التقلب في نعم الدنيا أن يتعلق قلب الإنسان بها و يستعظمها فيرى السعادة فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلا ظاهر الحياة و ينسى ما وراءه.

و لذا حكى سبحانه عنهم ذلك إذ قالوا: **{ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا }** فلا سعادة إلا فيها و لا شقوة معها **{ وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ }** في آخرة، و لم ينفوا العذاب إلا للغفلة و الانصراف عما وراء كثرة الأموال و الأولاد فإذا كانت هي السعادة و الفلاح فحسب فالعذاب في فقدها و لا عذاب معها.

و هاهنا وجه آخر و هو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال و الولد ظنوا أن لهم كرامة على الله سبحانه و هم على كرامتهم عليهم ما داموا، و المعنى: أنا ذوو كرامة على الله بما أوتينا من كثرة الأموال و الأولاد و نحن على كرامتنا فما نحن بمعذبين لو كان هناك عذاب.

فتكون الآية في معنى قوله: **{ وَلَئِن أَدْقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى }** حم السجدة: ٥٠.

قوله تعالى: **{ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ }**

لَا يَعْلَمُونَ (الآية) و ما يتلوها إلى تمام أربع آيات جواب عن قولهم: **{نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا}** إخ، و قد أجب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال والأولاد سعة و ضيقا بيد الله على ما تستدعيه الحكمة و المصلحة و هيا من الأسباب لا بمشية الإنسان و لا لكرامة له على الله فربما بسط في رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذي حزم أو أحمق خفيف العقل، و ربما بسط على واحد ثم قدر له. فلا دلالة في الإتراف على سعادة أو كرامة.

و هذا معنى قوله: **{قُلْ إِنَّ رَبِّي}** نسبه إلى نفسه لأنهم لم يكونوا يرون الله ربا لأنفسهم و الرزق من شئون الربوبية **{يَبْسُطُ}** أي يوسع **{الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ}** من عبادته بحسب الحكمة و المصلحة **{وَيَقْدِرُ}** أي يضيق **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** فينسبونه ما لم يؤتوه إلى الأسباب الظاهرية الاتفاقية ثم إذا أوتوه نسبه إلى حزمهم و حسن تدبيرهم أنفسهم و كفى به دليلا على الحق.

قوله تعالى: **{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى}** إلى آخر الآيتين هذا هو الجواب الثاني عن قولهم: **{نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ}** و محصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من الله لا يترتب على الأموال والأولاد إذ لا توجب الأموال والأولاد قربا و زلفى من الله حتى ينتفي معها العذاب الإلهي فوضع تقريب المال في الآية موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع المسبب.

و هذا معنى قوله: **{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ}** التي تعتمدون عليها في السعادة و انتفاء عذاب الله **{بِالَّتِي}** أي بالجماعة التي **{تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى}** أي تقريبا.

{إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا} في ماله و ولده بأن أنفق من أمواله في سبيل الله و بث الإيمان و العمل الصالح في أولاده بتربية دينية **{فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَصْفِ}** لعله من إضافة الموصوف إلى الصفة أي الجزاء المضاعف من جهة أنهم اهدوا و هدوا و أيضا من جهة تضعيف الحسنات إلى عشر أضعافها و زيادة **{وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ}** أي في القباب العالية **{آمِنُونَ}** من العذاب فما هم بمعذبين.

{وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} أي يجدون في آياتنا و هم يريدون أن يعجزونا أو أن يسبقونا **{أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}** و إن كثرت أموالهم و أولادهم.

وفي قوله: **{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ}** إنح، انتقل إلى خطاب عامة الناس من الكفار وغيرهم والوجه فيه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال والأولاد سواء في ذلك المؤمن والكافر فالمال والولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان وعمل صالح فيهما وإلا فلا يزيدان إلا وبالا.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** قال في مجمع البيان: يقال: أخلف الله له و عليه إذا أبدل له ما ذهب عنه. انتهى.

سياق الآية يدل على أن المراد بالإنفاق فيها الإنفاق في وجوه البر و المراد بيان أن هذا النحو من الإنفاق لا يضيع عند الله بل يخلفه ويرزق بدله.

فقوله في صدر الآية: **{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ}** للإشارة إلى أن أمر الرزق في سعته و ضيقه إلى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق ولا يزيد بالإمساك ثم قال: **{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ}** قليلا كان أو كثيرا و أيا ما كان من المال **{فَهُوَ يُخْلِفُهُ}** ويرزقكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة **{وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** فإنه يرزق جودا و رزق غيره معاملة في الحقيقة و معاوضة، و لأنه الرازق في الحقيقة و غيره ممن يسمى رازقا واسطة لوصول الرزق.

قوله تعالى: **{وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ}** المراد بهم جميعا بشهادة السياق العابدون و المعبودون جميعا.

وقوله: **{ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ}** ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم و لو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنهم عبدوهم في الدنيا و قد أنكروها كما في الآية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى بن مريم: **{أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}**. و الغرض من السؤال تبكيت المشركين و إقناطهم من نصره الملائكة و شفاعتهم لهم و قد عبدوهم في الدنيا لذلك.

قوله تعالى: **{قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}** أخذت الملائكة في جوابهم عن سؤاله تعالى بجوامع الأدب فنزهوه سبحانه أولاً تنزيها مطلقا فيه تنزيهه من أن يعبدوا من دونه ثم نفوا رضاهم بعبادة المشركين لهم لكن لا بالتصريح بنفي الرضا بالعبادة ولا بالتفوه بعبادتهم صونا لساحة المخاطبة عما يقرع السمع بذلك، ولو تصورا لا تصديقا بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى ونفيها عنهم ليدل على نفي الرضا بعبادتهم لهم على طريق الكناية فإن الرضا بعبادتهم لازمه الموالة بينهم، و الموالة بينهم تنافي قصر الولاية في الله سبحانه فإذا انحصرت الولاية فيه تعالى لم تكن موالة وإذا لم تكن موالة لم يكن رضاء.

ثم قالوا على ما حكاه الله سبحانه: **{بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}** والجن هم الطائفة الثانية من الطوائف الثلاث التي يعبدهم الوثنيون وهم الملائكة والجن والقديسون من البشر، والأقدم في استحقاق العبادة عندهم هم الطائفتان الأوليان والطائفة الثالثة ملحقة بهما بعد الكمال وإن كانوا أفضل منهما.

و الإضراب في قولهم: **{بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ}** يدل على أن الجن كانوا على رضى من عبادتهم لهم. وهؤلاء من الجن هم الذين يعدهم الوثنيون مبادئ الشرور في العالم فيعبدونهم اتقاء من شرورهم كما يعبدون الملائكة طمعا في خيراتهم لما أنهم مباد للخيرات لا كما قيل: إن المراد بالجن إبليس وذريته وقبيله و معنى عبادتهم لهم طاعتهم فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة أو مطلق المعاصي، ويرده ما وقع في الآية من التعبير بلفظ الإيمان دون الطاعة ولا ما قيل: إنهم كانوا يمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم و لا ما قيل: إنهم كانوا يدخلون أجواف الأصنام إذا عبت فيعبدون بعبادتها.

ولعل الوجه في نسبة الإيمان بهم إلى أكثرهم دون جميعهم أن أكثرهم يعبدون الآلهة اتقاء من طروق الشر من قبلهم، و مبادئ الشر عندهم مطلقا الجن لا كما قيل: إن المراد بالأكثر الكل، وهو مبني على تفسير العبادة بمعنى الطاعة وقد عرفت ما فيه.

قوله تعالى: **{قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا}**

ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ نوع تفرّيع على تبري الملائكة منهم و قد بين تبري عامة المتبوعين من تابعيهم و التابعين من متبوعيهم في مواضع كقوله تعالى: **{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ}**: فاطر: ١٤ و قوله: **{ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا}**: العنكبوت: ٢٥ و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: **{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ}** إنخ، خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد في التمسك بدين آبائهم و تحريض لهم عليه (صلى الله عليه وآله وسلم)، و في توصيف الآيات بالبينات نوع عتبي كأنه قيل: إذا تلى عليهم هذه الآيات و هي بينة لا ريب فيها فبدلاً من أن يدعوا عامتهم إلى اتباعها حثوهم على الإصرار على تقليد آبائهم و حرضوهم عليه - و في إضافة الآباء إلى ضمير **{يَصُدَّكُمْ}** مبالغة في التحريض و الإثارة.

و قوله: **{وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مُفْتَرٍ}** معطوف على **{قَالُوا}** أي و قالوا مشيراً إلى الآيات البينات إشارة تحقير ليس هذا إلا كلاماً مصروفاً عن وجهه مكذوباً به على الله، بدلاً من أن يقولوا: إنها آيات بينات نازلة من عند الله تعالى و قد أشاروا إلى الآيات البينات بهذا دلالة على أنهم لم يفهموا منها إلا أنها شيء ما لا أزيد من ذلك.

ثم غير سبحانه السياق و قال: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}** و محجىء الحق لهم بلوغه و ظهوره لهم، و الأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل و المعنى: و الذين كفروا بعثهم الكفر إلى أن يقولوا للحق الصريح الذي بلغهم و ظهر لهم هذا سحر ظاهر سحرته و بطلانه.

و أكد إصرارهم على دحض الحق باتباع الهوى من غير دليل يدل عليه بقوله: **{وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ}** و الجملة حالية أي و عد الذين كفروا - أي كفار قريش - الحق الصريح الظاهر لهم سحراً مبيناً و الحال أنا لم نعظهم كتباً يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل و لم نرسل إليهم قبلك من رسول ينذرهم و يبين لهم ذلك فيقولوا استناداً إلى الكتاب الإلهي أو إلى قول الرسول النذير: إنه حق أو باطل.

قوله تعالى: **{وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}**
ضميرا للجمع الأول والثاني لكفار قريش ومن يتلوهم والثالث والرابع للذين من قبلهم، والمعشار العشر و
النكير الإنكار، والمراد به في الآية لازمه وهو الأخذ بالعذاب.

والمعنى: وكذب بالحق من الآيات الذين كانوا من قبل كفار قريش من الأمم الماضية ولم يبلغ
كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوة والشدة فكذب أولئك الأقوام رسلي فكيف كان أخذي بالعذاب و
ما أهون أمر قريش. والالتفات في الآية إلى التكلم لاستعظام الجرم وتهويل المؤاخذة.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ}**
المراد بالموعظة الوصية كناية أو تضمينا، وقوله: **{أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ}** أي تنهضوا لأجل الله ولوجهه الكريم، و
قوله **{مَثْنَى وَفُرَادَى}** أي اثنين اثنين وواحدا واحدا كناية عن التفرق وتجنب التجمع والغوغاء فإن الغوغاء
لا شعور لها ولا فكر وكثيرا ما تمت الحق وتحيي الباطل.

وقوله: **{مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ}** استئناف **{إِنَّمَا}** نافية ويشهد بذلك قوله بعد: **{إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ**
بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} ويمكن أن يكون **{إِنَّمَا}** استفهامية أو موصولة و **{مِنْ جِنَّةٍ}** بيانا له.

والمراد بصاحبكم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه والوجه في التعبير به تذكيرهم بصحبته الممتدة
لهم أربعين سنة من حين ولادته إلى حين بعثته ليتذكروا أنهم لم يعهدوا منه اختلالا في فكر أو خفة في رأي
أو أي شيء يوهم أن به جنونا.

والمعنى: قل لهم: إنما أوصيكم بالعظة أن تنهضوا وتنتصبوا لوجه الله متفرقين حتى يصفو فكركم ويستقيم
رأيكم اثنين اثنين وواحدا واحدا و تفتكروا في أمري فقد صاحبكم طول عمري على سداد من الرأي وصدق
وأمانة ليس في من جنة. ما أنا إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد في يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن.

قوله تعالى: **{قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ}** إلخ، كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوة فإنه إذا
وهبهم كما سألهم من أجر فليس له عليهم أجر مسؤل

و لازمه أن لا يسألهم و هذا تطيب لنفوسهم أن لا يتهموه بأنه جعل الدعوة ذريعة إلى نيل مال أو جاه.

ثم تم القول بقوله: **{إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** لئلا يرد عليه قوله بأنه دعوى غير مسموعة فإن الإنسان لا يروم عملا بغير غاية فدفعه بأن لعملي أجرا لكنه على الله لا عليكم و هو يشهد عملي و هو على كل شيء شهيد.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ}** القذف الرمي، و قوله: **{عَلَامُ الْغُيُوبِ}** خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف و هو الضمير الراجع إليه تعالى.

و مقتضى سياق الآيات السابقة أن المراد بالحق المقذوف القرآن النازل إليه بالوحي من عنده تعالى الذي هو قول فصل يحق الحق و يبطل الباطل فهو الحق المقذوف إليه (صلى الله عليه وآله و سلم) من عند علام الغيوب فيدمغ الباطل و يزهقه، قال تعالى: **{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}**: الأنبياء: ١٨ و قال: **{قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}**: إسرء: ٨١.

قوله تعالى: **{قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ}** المراد بمجيء الحق على ما تهدي إليه الآية السابقة نزول القرآن المبطل بحججه القاطعة و براهينه الساطعة لكل باطل من أصله.

و قوله: **{وَ مَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ}** أي ما يظهر أمرا ابتدائيا جديدا بعد مجيء الحق و ما يعيد أمرا كان قد أظهره من قبل إظهارا ثانيا بنحو الإعادة فهو كناية عن بطلان الباطل و سقوطه عن الأثر من أصله بالحق الذي هو القرآن.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}** بيان لأثر الحق الذي هو الوحي فإنه عرفه حقا مطلقا فالحق إذا كان حقا من كل جهة لم يخطئ في إصابة الواقع في جهة من الجهات و إلا كان باطلا من تلك الجهة فالوحي يهدي و لا يخطئ البتة.

و لذا قال تأكيداً لما تقدم: **{قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ}** و فرض مني ضلال **{فَإِنَّمَا أَضِلُّ}** مستقرا ذلك الضلال **{عَلَى نَفْسِي}** فإن للإنسان من نفسه أن يضل **{وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي}** فوحيه حق لا يحتمل ضلالا و لا يؤثر إلا الهدى.

وقد علل الكلام بقوله: **{إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}** للدلالة على أنه يسمع الدعوة ولا يحجبه عنها حاجب البعد وقد مهد له قبلاً وصفه تعالى في قذف الحق بأنه علام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخل بأمره ويمنع نفوذ مشيئته هداية الناس بالوحي قال تعالى: **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}**: الجن: ٢٨.

قوله تعالى: **{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}** ظاهر السياق السابق ويشعر به قوله الآتي: **{وَوَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ}** أن الآيات الأربع وصف حال مشركي قريش و من يلحق بهم حال الموت.

فقوله: **{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا}** أي حين فزع هؤلاء المشركون عند الموت **{فَلَا فَوْتَ}** أي لا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو أي حائل آخر.

وقوله: **{وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}** كناية عن عدم فصل بينهم وبين من يأخذهم وقد عبر بقوله: **{أُخِذُوا}** مبنيًا للمفعول ليستند الأخذ إليه سبحانه، وقد وصف نفسه بأنه قريب، وكشف عن معنى قربه بقوله: **{وَوَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}**: الواقعة: ٨٥ وأزيد منه في قوله: **{مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}**: ق: ١٦ وأزيد منه في قوله: **{أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}**: الأنفال: ٢٤ فبين أنه أقرب إلى الإنسان من نفسه وهذا الموقف هو المرصاد الذي ذكره في قوله: **{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}**: الفجر: ١٤ فكيف يتصور فوت الإنسان منه وهو أقرب إليه من نفسه؟ أو من ملائكته المكرمين الذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه وبينهم.

فقوله: **{وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}** نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما نتصوره من معنى القرب لاحتباسنا في سجن الزمان والمكان وأنسنا بالأمر المادية وإلا فالأمر أعظم من ذلك.

قوله تعالى: **{وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}** التناوش التناول و ضمير **{بِهِ}** للقرآن على ما يعطيه السياق.

و المراد بكونهم في مكان بعيد أنهم في عالم الآخرة وهي دار تعين الجزاء وهي

أبعد ما يكون من عالم الدنيا التي هي دار العمل و موطن الاكتساب بالاختيار و قد تبدل الغيب شهادة لهم و الشهادة غيبا كما تشير إليه الآية التالية.

قوله تعالى: **{وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}** حال من الضمير في **{وَأَنِّي لَهُمُ التَّنَاوُسُ}** و المراد بقوله: **{وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}** رميهم عالم الآخرة و هم في الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به و كونه غائبا عن حواسهم إذ كانوا يقولون: لا بعث و لا جنة و لا نار، و قيل: المراد به رميهم النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بالسحر و الكذب و الافتراء و الشعر.

و العناية في إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبة إلى الآخرة نظيره إطلاقه على الآخرة بالنسبة إلى الدنيا و قد تقدمت الإشارة إليه.

و معنى الآيتين: و قال المشركون حينما أخذوا آمنا بالحق الذي هو القرآن و أنى لهم تناول الإيمان به إيمانا يفيد النجاة من مكان بعيد و هو الآخرة و الحال أنهم كفروا به من قبل في الدنيا و هم ينفون أمور الآخرة بالظنون و الأوهام من مكان بعيد و هو الدنيا.

قوله تعالى: **{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ}** ظاهر السياق أن المراد بما يشتهون اللذائذ المادية الدنيوية التي يحال بينهم و بينها بالموت، و المراد بأشْيَاعِهِمْ من قبل أشباههم من الأمم الماضية أو موافقوهم في المذهب، و قوله: **{إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ}** تعليل لقوله: **{كَمَا فُعِلَ}** إنلخ.

و المعنى: و وقعت الحيلولة بين المشركين المأخوذين و بين ما يشتهون من ملاذ الدنيا كما فعل ذلك بأشباههم من مشركي الأمم الدارجة من قبلهم إنهم كانوا في شك مرِيب من الحق أو من الآخرة فيقذفونها بالغيب.

و اعلم أن ما قدمناه من الكلام في هذه الآيات الأربع مبني على ما يعطيه ظاهر السياق و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنة أن الآيات ناظرة إلى خسف جيش السفيناني بالبدياء و هو من علائم ظهور المهدي (عليه السلام) المتصلة به فعلى تقدير نزول الآيات في ذلك يكون ما قدمناه من المعنى من باب جري الآيات فيه.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ}** قال: يسرون الندامة في النار إذا رأوا ولي الله فقيل: يا بن رسول الله و ما يغنيهم أسرارهم الندامة و هم في العذاب؟ قال: يكرهون شماتة الأعداء. أقول: و رواه أيضا عن أبي عبد الله (عليه السلام).

و فيه: و ذكر رجل عند أبي عبد الله (عليه السلام) الأغنياء و وقع فيهم فقال أبو عبد الله (عليه السلام): **اسكت فإن الغني إذا كان وصولا لرحمه بارا بإخوانه أضعف الله له الأجر ضعفين لأن الله يقول: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ}**.

و في أمالي الشيخ بإسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث يقول فيه: **حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم ثم أعطاهم بكل واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله عز و جل: {جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا} و قال: {فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ}**.

و في الكافي بإسناده عن السكوني عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **من صدق بالخلف جاد بالعطية.**

و فيه بإسناده عن سماعة عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **من أيقن بالخلف سخط نفسه بالنفقة.**

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يقول: **إن لكل يوم نحسا فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة، ثم قال: اقرءوا مواضع الخلف فإني سمعت الله يقول: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} إذا لم ينفقوا كيف يخلف؟**

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: **{قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ}** و ذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) سأل قومه أن يودوا أقاربه و لا يؤذوهم. و أما قوله: **{فَهُوَ لَكُمْ}** يقول: ثوابه لكم.

و في الدر المنثور في قوله تعالى: **{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا}** (الآية): أخرج الحاكم و صححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يخرج رجل يقال له السفياي في عمق دمشق و عامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يقرر بطون النساء و يقتل الصبيان فيجمع لهم قيس فيقتلها حتى لا يمنع ذنب تلعة و يخرج رجل من أهل بيتي فيبلغ السفياي فيبعث إليه جندا من جنده فيهمهم فيسير إليه السفياي بمن معه حتى إذا صار بيضاء من الأرض خسف بهم فلا ينجو منهم إلا المخبر منهم.

أقول: و الرواية مستفيضة من طرق أهل السنة مختصرة أو مفصلة و قد رووها من طرق مختلفة عن ابن عباس و ابن مسعود و حذيفة و أبي هريرة و جد عمرو بن شعيب و أم سلمة و صفية و عائشة و حفصة أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و نفيرة امرأة القعقاع عن سعيد بن جبير موقوفاً.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ}**: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكابلي قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): **و الله لكأني أنظر إلى القائم (عليه السلام) و قد أسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد الله حقه ثم يقول: يا أيها الناس من يحاجني في الله. فأنا أولى بالله أيها الناس من يحاجني بآدم فأنا أولى بآدم. أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى بنوح. أيها الناس من يحاجني بإبراهيم فأنا أولى بإبراهيم. أيها الناس من يحاجني بموسى فأنا أولى بموسى. أيها الناس من يحاجني بعيسى فأنا أولى بعيسى. أيها الناس من يحاجني بمحمد فأنا أولى بمحمد. أيها الناس من يحاجني بكتاب الله فأنا أولى بكتاب الله.**

ثم ينتهي إلى المقام فيصلي ركعتين و ينشد الله حقه. ثم قال أبو جعفر (عليه السلام): **هو و الله المضطر في كتاب الله في قوله: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ}**.

فيكون أول من يبأعه جبرئيل ثم الثلاثمائة و الثلاثة عشر فمن كان ابتلي بالمسير وافي و من لم يبتل بالمسير فقد عن فراشه و هو قول أمير المؤمنين (عليه السلام): **هم المفقودون عن فرشهم و ذلك قول الله: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا}** قال: الخيرات الولاية، و قال في موضع آخر: **{وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ}**

وهم أصحاب القائم (عليه السلام) يجتمعون و الله إليه في ساعة واحدة.

فإذا جاء إلى البيداء يخرج إليه جيش السفيناني فيأمر الله عز و جل الأرض فيأخذ بأقدامهم و هو قوله عز و جل: **{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ}** يعني بالقائم من آل محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) **{وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}** **{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}** يعني أن لا يعذبوا **{كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ}** يعني من كان قبلهم من المكذبين هلكوا **{مِنْ قَبْلِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ}**.

تم والحمد لله .

بعض المواضيع المبحوث عنها في هذا الجزء

رقم الصحيفة	نوع البحث	موضوع البحث	رقم الآيات
٤٠	قرآني وتاريخي	كلام حول قصص موسى وهارون عليهما السلام في فصول :	سورة القصص ٢٩ - ٤٢
٤٠		١ - منزلة موسى عند الله وموقفه العبودي	
٤١		٢ - قصص موسى في القرآن	
٤٤		٣ - منزلة هارون عند الله وموقفه العبودي	
٤٤		٤ - قصة موسى في التوراة الحاضرة	
١٨٩		كلام في معنى كون الدين فطرياً في أربعة فصول	سورة الروم ٢٧ - ٣٩
٢٢١	قرآني وروائي	كلام في قصة لقمان ونبذ من حكه في فصلين	سورة لقمان ١٢ - ١٩
٢٥٥	مختلط	كلام في كينونة الإنسان الأولى	سورة السجدة ١ - ١٤